أحمد حسن الباقوري

معاني القرآن

بين الرواية والدراية

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠١ يوان

قائمـــة المحتويـــات

الموضـــــوع	صفحـــة
هذا الكتـــاب	٧
بين يدى الكتاب	٩
الجـــزء الأول	١١
الكعبـــة	١١
بنـاء الكعبـــة	١٣
الحجر الأســـود	١٥
رسول الله ﷺ والحجر الأسود	١٧
العلم الحديث وحكمة الطواف	١٨
الجـــزء الثانى	٢٣
القـــرآن	٢٣
الكليات الخمس	٢٥
الرفق بالخلق	٢٦
آل حاميم	٢٨
(١) تفسير ســـــورة : « الحمد لله رب العالمين »	٣٠
(٢) تفسير قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه »	٣٤
(٣) تفسير قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »	٣٩
(٤) تفسير قوله تعالى : « وإذ قـال ربـك للملائكـة إنـى جاعـل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبـح بحمـدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون »	٤١
(٥) تفسير قوله تعالى : « وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما	

علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » ٤٣

الشيطـــان ٤٧

(٦) تفسير قوله تعالى : « وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » ٥٠

(٧) تفسير قوله تعالى : « وكُلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ٥٣

« الناسخ والمنسوخ » ٦١

(٨) تفسير قوله جل ثناؤه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » ٦١

زواج المتعة ٨٦

رأى السلف عن العزل ٩٧

رأى أبى مسلم فى عدم القول بالنسخ فى آيات القرآن ١٠٦

(٩) تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة » ١٠٩

(١٠) تفسير جل ثناؤه : « وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحـــيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » ١١٣

(١١) تفسير قوله جل ثناؤه : « وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن تعولوا » ١١٧

المدافعون عن شريعة التعدد ١٢٢

الموضـــــوع	صفحـــة

العناية باليتامى ١٣٠

(١٢) تفسير قوله جل ثناؤه : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . . إلى ـ فأصبح من النادمين » ١٣٨

ماذا للعيد علينا نحن المسلمين من حق ١٤٧

الأعياد فى مصـــر ١٥٠

حكمة النبى فى سماع غناء الجاريتين ١٥٢

(١٣) تفسير قوله جل ثناؤه : « إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » ١٥٨

معنى الكناية ١٦٦

مذهب السلف : أعلم ، والخلف : أحكم ١٦٧

(١٤) تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا » ١٧٢

(١٥) تفسير قوله جل ثناؤه : أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون » ١٨٢

(١٦) تفسير قوله جل ثناؤه : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » ١٩٩

(١٧) تفسير قوله جل ثناؤه : « والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ٢٠٣

(١٨) تفسير قوله جل ثناؤه : « لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ٢٠٨

(١٩) تفسير قوله جل ثناؤه : « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » ٢٢٢

(٢٠) تفسير قوله جل ثناؤه : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد » ٢٣٦

الموضـــــوع	صفحـــة

رأى العلماء فى السحر والطلسمات ٢٤٣

(٢١) تفسير قوله جل ثناؤه : « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » ٢٤٨

الجـــزء الثالـــث ٢٥١

الخلافـــة ٢٥٣

قوله عز وجل : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » ٢٥٣

الحكايات المدخولة للمؤرخين عن نكبة الرشيد وقصة العباسة ٢٥٧

الطور الأول : طور الخلافة الراشدة ٢٦٢

الطور الثانى : طور الملك العضوض ٢٦٢

الطور الثالث : طور العصبية الجامحة ٢٦٥

وزر زعماء العرب فى العصر الحديث ٢٦٨

تركيا بعد الأندلس ٢٧٠

مصطفى كمال لا يحترم دينا أو إنسانا ٢٧٢

حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٨٠

شر ما فى الخوارج ٢٨٣

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء اليوم من المخطوطات التى تركها شيخنا الباقورى ـ رحمه الله ـ مرتبة ، ولم يقدمه للطبع وقد عرّف به فى مقدمته تعريفا كافيا .

ويدور الكتاب حول محور واحد هو وحدة المسلمين . ومع ما فيه من نهج علمى ـ هو تعبير عن خواطر فى ذهن شيخنا ، وقد كان رحمه الله يأسى كثيرا لما يجد عليه المسلمين من تفرق الكلمة واختلاف الرأى واحتدام الضغائن فيما بين بعضهم البعض ، ويرى أن الرابطة الوحيدة التى تجمعهم هى رابطة الإسلام ، وأنهم ما تفرقوا واختلفوا إلا لأنهم اتخذوا هذا القرآن مهجورا . فالقرآن والسنة كلاهما يدعو إلى الوحدة وينهى عن النزاع والاختلاف .

وقد تحدث هنا حديثا علميا عن الروابط الثلاثة التى يجتمع عليها المسلمون ، وهى الكعبة المشرفة ، والقرآن الكريم ، والخلافة الإسلامية . فالكعبة هى الرمز البارز لاتحاد المسلمين مهما تباعدت مواطنهم وإختلفت ألسنتهم وألوانهم ، إليها يفيئون من شتى البقاع ، وإليها تتجه وجوههم فى صلواتهم .

والقرآن هو دستور المسلمين العام فى علم ما بينهم ونبأ ما قبلهم وما بعدهم ، وهو كلام الله الذى يتعبد المسلون بتلاوته ، ويتبعون أحكامه ويتقربون إلى الله بقراءته وسماعه .

وإذا كان المسلمون فى مختلف أنحاء الأرض يتلون كتابا واحدا ، ويتجهون إلى قبلة واحدة ويعبدون إلها واحدا ، ويتبعون تعاليم نبى واحد ، فلماذا يختلفون فيما بينهم ، ولماذا تنحل وحدتهم ؟!

أما الخلافة فهى الرابطة السياسية التى تجمع المسلمين تحت لواء واحد ، وقد خسر العالم الإسلامى خسارة كبيرة بضياع الخلافة الإسلامية منذ دالت دولة

العثمانيين ـ وكان شيخنا الباقورى ـ يذكر هذا وهو حزين موجع القلب ، وكان يرى أن سقوط الخلافة ، وخضوعها للنفوذ الأجنبى منذ عزل السلطان عبد الحميد ، كان تدبيرا لهدم الإسلام ومؤامرة عليه .

والشيخ الباقورى يتحدث عن هذه المعالم الثلاثة حديثا علميا يجمع بين عرض الأحداث التاريخية ، وتحليل عواملها ورصد نتائجها ، وبين نصوص التفاسير وآراء أصحابها ولكنه لا يسلم بكل ما يروى ، بل يناقش الآراء التى يعرضها ويقدم الأدلة الكافية على ما يريد . والكتاب كله صورة لمؤلفه فى نقاشه الهادىء الرزين ، وأسلوبه الخالص العروبة ، وأفكاره المرتبة .

وها هى ذى هذه الآراء حول وحدة المسلمين صبت فى قالب متين رصين حلو العبارة شائق العرض غزير الفائدة .

رحم الله شيخنا الباقورى وأكرم عنده مثواه .

دكتور عبد الجليل شلبى
الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية

بين يدى الكتاب

القرآن الكريم دستور المسلمين فى حياتهم ، والكعبة المعظمة قبلتهم فى صلاتهم ، والخلافة الراشدة مُجتلى وحدتهم ونظام شتاتهم .

وهذه الأحوال الثلاثة هى العُمدُ التى قامت عليها أول دولة للإسلام فى المدينة المنورة ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وبمقدار ما كانت الأمة الإسلامية ترى فى هذه الأصول الثلاثة سبب بقائها ونمائها ؛ كانت قوى الاستعمار ترى فيها عقبة كئودا فى طريقها إلى الاستذلال والاستغلال ، ولذلك راحوا يتربصون بها ويكيدون لها ، تسوقهم إلى ذلك أحقاد مشبوبة النار مسعورة الأورار ، حتى إذا لاحت لهم الفرصة إلى النيل منها ، افترصوها بكل ما تنطوى عليه صدورهم من أحقاد ، وتبلغه مكايدهم من ائتمار واحتيال .

ولست ترتاب ـ أعزك الله ـ فى أن هذا الإجمال يحتاج إلى تفصيل ، ينتفع به ضارب فى متاهات الجهالة ، أو حائر فى ظلمات التاريخ .

القسم الأول

الكعبة

بنـاء الكعبـة

وأول ما نبدأ بتفصيل القول فيه ، الكعبة المعظمة فى مكة المكرمة ، فإنها من الكعوب وهو العلو والارتفاع ، والكعبة البيت المربع ، والكعبة البيت الحرام ، سمى كعبة لارتفاعه وتربعه .

وقد ذكرت الكعبة فى كتاب الله فى مواضع كثيرة ، فى قوله تعالى :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ **وقوله :** ﴿ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾

(سورة المائدة)

وكانت أول موطن فى الأرض ارتفع منه دعاء ضارع إلى الله ـ تعالى ـ أن يتفضل على الدنيا بأمة مسلمة ، تحمل إلى الإنسانية الغارقة فى ظلمات الوثنية رسالة سماوية تخرجها من الظلمات إلى النور على يد نبى عربى كريم ، كما تقرر ذلك الآيات الشريفة من سورة « البقرة » :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ
وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً
مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فقد أشارت هذه الآيات إلى أن بناء الكعبة ، كان على يد أبى العرب وأبى الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم أكدت هذا المعنى على سبيل التصريح الآية من سورة « آل عمران » :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

ووجه التأكيد فى هذه الآية ، كلمة « مقام إبراهيم » . ذلك أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى وضعه له ولده حينما ارتفع البناء عن قامته ، فكان يقوم عليه وهو يبنى البيت . وقد ظل هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة حتى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأمر ـ رضى الله عنه ـ بأن يؤخَّر عن موضعه قليلا ، لكى لا يشغل المصلين ولا يعوق الطائفين . فوجود الحجر بجانب الكعبة ، آية بينة على أن إبراهيم هو أول من بناها ، ولا عبرة بما يرويه القصاصون عن قِدَم البيت مما لم يرد به خبرٌ موثوق عن معصوم ، كقولهم : إن الكعبة نزلت من السماء وإن آدم حج اليها . وعلى ما يزعمون ـ أيضا ـ من أن آدم عرف حواء على جبل عرفة ، الذى سمى بهذا الاسم من أجل ذلك ، بعد أن افترقا إثر هبوطهما من الجنة ، وقد زعم هؤلاء القصاصون أن الكعبة كانت محلاةً بالحجر الذى كان درةً بيضاء ، وأنه إنما اسودّ بسبب استلام المذنبين إياه فى أثناء الطواف .

وليس يخفى أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مزاعم لفقهاء الزنادقة ، لكى يشوهوا بها وجه الإسلام ، ولكن فضل الله ـ تعالى ـ أبى أن يستأسر لهذه الخرافات إلا ضعاف العقول من عوام الناس ، فأما خواصهم وأهل الرأى فيهم ، فإنهم من ذلك بمنأًى بعيد جد بعيد .

وجملة القول فى بناء الكعبة ، أن أول من بناها ، ابراهيم عليه السلام ثم جاءت قريشٌ من بعده فأعادت بناءها قبل البعثة المحمدية بخمس سنين . وفى هذه المرحلة احترقت الكعبة وكان أمرها إلى عبد الله بن الزبير ، فشاور من حضره فأشاروا عليه بإصلاح ما وَهَى منها ، غير أنه رأى أن يهدمها وأن يبنيها على مقتضى الحديث ، الذى حدثته به خالته أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وفى هذا الحديث تذكر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لها : « ألم تَرَىْ يا عائشةُ أن قومك اقتصروا عن قواعد إبراهيم حين عجزت بهم النفقة ، ولولا أنهم حديثو عهدٍ بجاهلية لهدمت الكعبة وجعلت لها خَلْفًا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحِجْر » .

ولما كان ابن الزبير ـ رحمه الله ـ من الوقافين عند حدود الله ، وكان حريصا على

إمضاء رغبة رسول الله فى بناء الكعبة ، أمضى ما تضمنه الحديث ؛ فألصق بابها بالأرض وعمل لها بابا من ورائها وأدخل فيها الحِجْر ، ثم قال فى تسويغ هذا التصرف : لئن كانت قريش قد أعجزتها النفقة ، إننا اليوم غير عاجزين .

ثم لما أفضى سلطان الدولة الإسلامية إلى عبد الملك بن مروان ، كره أن يُمضى الأمر على ما رآه ابن الزبير ، فسفّه رأيه ثم هدم الكعبة وبناها على ما كانت عليه من قبل . وغير بعيد على من يتمثل هوى السياسة ، أن يرى سلطان الحكم يسوّل للحاكم المتسلط أن يصنع ما يشاء كيف يشاء ، ما دام يرى فى تصرفه هذا ما يُرضى عصبية باطلة ، كرهها الإسلام لعامة المسلمين فضلا عن خاصتهم وأولياء الأمر فيهم .

وآية هذا الذى نقول ، أن الخليفة العباسى أبا جعفر ، راودته عن دينه عصبية بغيضة أيضا ، كتلك التى راودت من قبل عبد الملك بن مروان ، فأراد أن يهدم الكعبة ويبنيها على ما بناها عليه ابن الزبير . غير أن إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال له : أنشُدك الله يا أمير المؤمنين ألا تفعل ، حتى لا تكون الكعبةُ ملعبة للملوك من بعدك ، فلا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها ، فتذهب هيبتها من قلوب الناس . وعن هذه الكلمة الحكيمة نجت الكعبة من الهدم على يد الخليفة العباسى ، ونجت ـ مع ذلك ـ من أن تكون ملعبة لكل ذى سلطان .

الحجر الأسود

وما دام حديث هذا الباب متعلقا بالكعبة ، فلا بد من كلمة فى أثنائه عن الحجر الأسود ، لعل فيها خيرا ينتفع به الحراص على المعارف والعلوم .

وإذا لم يكن بدٌ من كلماتٍ ترضى أذواق المعاصرين الذين يستحبون الجديد من الأقوال والآراء ، فإن من خير ما يذكر فى باب الحديث عن الحجر الأسود ، أن الصخور فى الأصل نوعان :

أحدهما نارى : يرجع أصله إلى جوف الأرض حيث خرج منها ، إما إلى سطحها فتصلب بسرعة كحجر البازلت البركانى ، وإما إلى قريب من سطح الأرض فتصلب ببطء كصخر الجرانيت ، ثم ظهر فوق سطح الأرض بسبب الحركات الأرضية العنيفة .

وثانى النوعين : رسوبى تصلب تحت ماء المحيطات والبحار ، ثم ارتفع على هيئة جبال عالية ، مثل تلال المقطم وجبال الألب والهيمالايا ، وكلها من الحجر الجيرى والرملى ، وقد تكونت طبقاتها تحت قاع بحر عميق غطى معظم أفريقيا الشمالية وأوربا الجنوبية وآسيا حتى اليابان فى العصور الجيولوجية القديمة .

وليس يخفى أن معظم الجبال حول مكة ، هى من النوع النارى الذى تحول إلى صخر ، وليس يخفى - أيضا - أن الصخور مختلفة الألوان بين أحمر وأخضر وأشهب ، كما أن منها جُدَداً بيضاً وأخرى سودًا ، على ما تشير إلى ذلك الآية الكريمة من سورة « فاطر » فى ذكرها اختلافَ الألوان فى عوالم النبات والجماد والحيوان :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة فاطر)

هذا . وغير خفى أن الكعبة بنيت مرارا من أحجار أخذت مما حولها من تلك الجبال ، فليس يبعد أن الحجر الأسود مقطوع من صخر أسود ، يخالف لونه لون بقية الأحجار التى بنيت بها الكعبة ، وقد وضعه الخليل فى موضعه من بناء الكعبة علامةً على بدء الطواف ، فهو - إذن - حجر نارى كسائر الأحجار ، يرجع سواد لونه إلى طبيعة تكوينه من معادن دكناء مختلفة ، يعسر على المرء أن يعرفها على سبيل التفصيل . وكل ما يمكن قوله ، أنه قطعة من البازلت ، أو أنه أحد الصخور النارية المتحولة ، أو أنه من مادة الشهب التى سقطت قديما من السماء ، والتى لا يزال يسقط مثلها حتى الآن .

رسول الله والحجر الأسود

وليس لرسول الله ـ ﷺ ـ عملٌ فى الحجر الأسود إلا حينما اختلفت قريش حول وضعه فى مكانه من الكعبة ، حيث اتفقوا على أن يجعلوا الحَكَمَ أول داخل على المختلفين ، فلما رأوه ـ ﷺ ـ قالوا : هذا الأمين ، رضينا بحكمه . ثم قصوا عليه قصتهم ـ وقد رأى العداوة تبدو فى عيونهم ـ فجعل يفكر ، ثم قال : « هلمّ إلّى ثوبًا » . فأتوه به فنشره فأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال : « ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب » . فرفعوه جميعا حتى وازى موضعه من البناء ، ثم تناوله ـ صلوات الله عليه ـ من الثوب فوضعه فى موضعه . وبذلك انحسم الخلاف واختفى شبح الشر بين المتنافسين .

هذا ، ومما يكملْ به حديث الكعبة ؛ حديث الطواف ، فى المعنى الذى يدل عليه والغاية التى تبتغى منه . فنذكر لك ـ أول ما نذكر ـ أن على المسلم كلما دخل مسجدا أن يصلى ركعتين تحيةً للمسجد . فأما المسجد الحرام ، فإن تحيته الطواف بالبيت العتيق ، ثم صلاة ركعتين عند مقام إبراهيم . وقد يسأل بعض الذين يطيب لهم الجرى وراء دقائق المعانى ، فيقولون : هل الطواف حول الكعبة أمرٌ تعبدى أو هو أمرٌ معقول المعنى بين شرائع الإسلام ؟

وليس لهذا السؤال جوابٌ يأثره الأخلاف عن الأسلاف ، وكل ما يمكن قوله ، إن الطواف منسك من مناسك الحج وأنه أمر تعبدى ، يتمثل المسلم فيه أمر الله ـ تعالى ـ مقتديا برسوله ﷺ ، حيث يقول : « خذوا عنى مناسككم » . غير أن بعض أهل العلم يقول عن رأى له : إن الإنسان بحكم الفطرة ، إذا كان معه شىء عزيز عليه ، فإنه يطوف من حوله حذراً من غصبْ غاصب أو استراق لص . والكعبة أغلى ما يعتز به المسلم ، فهو يطوف من حولها إيذانا بأنه حريص عليها معتز بها ، باذلٌ نفسه فى حمايتها من متربص بها أو معتد عليها . وهو رأى لا يفرضه من يراه على أحد من المسلمين فإن شاء أخذ به وإلا انصرف عنه .

غير أن من العلماء الذين جمع الله ـ تعالى ـ لهم بين الفقه بعلوم الدنيا وعلوم الدين ، من رأى فى الطواف حول الكعبة رأيا نؤثر أن نرويه لك ، حيث قال :

إن الطواف حول الكعبة من مميزات الإسلام بين الأديان ، فقد يحج بعض

ذوى الدين من غير المسلمين إلى محج لهم على صورة تخالف صورة الحج فى الإسلام إذ كان الطواف بالكعبة مطلوبا من كل مسلم ومسلمة ، من حيث كانت تحية المسجد ركعتين فى غير المسجد الحرام ، فأما تحيته هو فإنها الطواف حول الكعبة .

والكعبة التى جعلها الله مطافا للناس فى الحج ؛ جعلها ـ سبحانه ـ قبلة للناس فى الصلاة . فالطواف جزء من كل يمثل الجاذبية التى ينبغى أن تكون بين عبد الله وبين بيت الله ، يستقبله الإنسان ويتجه إليه فى صلاته مرات كل يوم وهو بعيد عنه ، فإذا استطاع الحج فى عمره مرة ؛ استقبله فى صلاته ـ أيضا ـ قريبا منه كما كان يستقبله بعيدا عنه ، ثم زاد على ذلك أنه يطوف حوله .

ومبلغ العلم ، أن الناس لا يجدون صعوبة فى التماس حكمة لافتراض قبلةٍ واحدةٍ عليهم فى الصلاة ، على أن تكون تلك القبلة بيت الله الحرام ، ولكنهم يجدون صعوبة بالغة فى إدراك حكمة للطواف بالبيت العتيق الذى هو الكعبة ، ولهذا جعلوا الطواف بها أمرا تعبديا لا تُعرف له حكمة إلا النزول على حكم الله بالطاعة والتسليم . فهل فى العلم الحديث ما يعين على إدراك حكمة للطواف ؟ . وهل فيه ما يفتح بابا إلى الإلمام بمغزاه ؟ . وقد يبدو ـ لأول وهلة ـ أن هذا سؤال لا محل له ولا فائدة تُرجى من محاولة إجابته ، وإلّا فأى صلة بين الطواف فى الحج ، وبين العلم الحديث الذى لا يبحث إلا فى الماديات ؟

العلم الحديث وحكم الطواف

ونبادر إلى القول بأن الطواف حول الكعبة أمر معقول المعنى ، يرتضيه العلم الحديث وتساوقه الفطرة السوية ولا يضيق به العلماء بالشرع الحنيف . وفاطر الفطرة هو الذى تعبد الإنسانَ بالطواف حول الكعبة ، فليس يمتنع أن يكون هذا الطواف رمزا إلى سر عظيم تستوى فيه الروح والمادة ، ثم يكون فيما كشف عنه العلم من أسرار الفطرة ما يدل عليه أو يشير إليه .

وأهل النظر الصحيح لا يكادون يتجهون هذا الاتجاه ، حتى ينكشف لهم ـ فيما كشف عنه العلم من حقائق الفطرة ـ نظائرُ للطواف ، ثم تتكاثر عليهم هذه النظائر ، حتى يستيقنوا أنها مظهر لسنة عامة فى الخلق ، أهم وأجل كثيرا فى دلالتها مما يخطر لأول وهلة على بال .

وأول ما يلقاك من تلك النظائر ، ماثل فى المجموعة الشمسية ، إذ كانت الأقمار فيها تدور أو تطوف حول كواكبها : القمر ، يدور حول الأرض . وأقمار المشترى ، تدور حول المشترى . والأرض وأخواتها من السيارات ، تدور مع أقمارها حول الشمس ، دوراناً متصلا يختلف بإختلاف كتلة السيار وبعده عن الشمس ، ومهما يكن الاختلاف فى الكيف والمدار ، فإن الطواف حول الشمس من كل سيار ، أمر لا ريب فيه .

ولقد بيّن علم الفلك الحديث مقدار انتشار ظاهرة الطواف هذه بين الكواكب ، فُرادى وجماعات وعوالم ، فكم من كوكب يطوف أو يدور حول كوكب . وعالم المجرة الذى فيه مجموعتنا الشمسية ـ بل العالم الفلكى كله ـ يدور دورانا بطيئا هائلا حول مركز ، كما تدور حول مركزها ، على ما ذكر ذلك العالِم الانجليزى الحجة مؤلف كتاب (النجوم فى مسالكها) .

وأنت إذا تركت عالَم الفلك إلى عالَم الذرة ، فإنك واجدٌ أمر الطواف والدوران أعجب وأغرب ، لا يشك فى هذا الذى نقول أحد من المشتغلين بالعلم الموثوقين .

والذى يتأمل هذا التصوير العلمى الموثوق تأملا بصيرا ، لابد أن يجيب عن سؤال يقول : ماذا ترى فى انتشار ظاهرة الطواف فى الفطرة الكونية من الذرّه إلى المجرة ؟ . ولابد له من اجابة على هذا السؤال بقوله : إن فى كل ذرة طائفا ومطوفا به ، وعلى هذين يقوم بناء الذرة ، واعيا إلى اليقين بأن عالم المجرة ـ بملايين شموسه وكواكبه ـ يدور أو يطوف حول شىء واحد .

ولست ترى ـ بعد ذلك ـ بدا من الاعتراف بوجود شبه بين الطواف الذى هو قِوامُ الحج ـ وبين الطواف الذى فطر الله عليه كونه العظيم ، وربما كان هذا الشبه قائما على أن نظام الكون مرتبط ـ أشد الارتباط ـ بدوران الكائنات بعضها حول بعض ، بحيث لو اختل نظام الدوران أو انتفى لفسد الكون واضطرب نظامه ، وعلى هذا المثال يكون ارتباط الأمة الاسلامية بالكعبة فى انجذاب المسلمين اليها بجميع ما تدل عليه وتشير إليه ، فلو افترضنا انتفاء الصلة بين الكعبة وبين أمة الإسلام ، لزال وجود الأمة زوالا لا يبقى معه خير لدنيا ولا لدين ، وتلك هى الحكمة من الطواف الذى انفرد به الإسلام بين الديانات الكتابية جمعاء .

هذا ما يتصل ببناء الكعبة وحكمة الطواف ، فأما ما يتصل بمنزلتها وعظيم أثرها فى أمة القرآن ، فلا يخفى أنها ملتقى أرواحهم فى الصلاة ، ومجتمع أبدانهم فى الحج والعمرة ، يطوفون من حولها كما يطوف الحارس بالشىء الغالى يحفظه ويحميه .

ولما كانت الكعبة مهوى أفئدة المسلمين ومطاف أرواحهم فى صلاتهم وحجهم واعتمارهم جعل النبى للحج أميرا هو للحجيج بمنزلة الامام للمصلين ، وكان هو صلوات الله عليه فى حجة الوداع أميرا للحج كما كان إماما للصلاة .

ولا يخفى أن الكعبة هى قلب الحج ، فحين ذكر الله الحج فى كتابه كانت هى مدار النص الكريم ، فذلك حيث قال سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

يعنى جل ثناؤه أن من ترك الحج مع الاستطاعة فإن الله غنى عنه لأن الله غنى عن العالمين .

ومما لا يجوز التجاوز عنه دون التنبيه إليه ، أن القرآن استعمل كلمة : « ومن **كفر** » بدلا من كلمة : « ومن ترك **الحج** » إيذانا بشدة حرص الإسلام على أداء هذه الشعيرة عند الاستطاعة .

ولا يخفى أيضا أن دعوة الإسلام المسلمين إلى أداء فريضة الحج دعوة مشددة مؤكدة ، لا تقف بهم عند قضاء حق الدين عليهم ، ولكنها تضم إلى ذلك منافع من صميم الحياة لا تستغنى عنها أمة تحمل رسالة الحق والخير .

وإلى هذا المعنى يشير قول الله تعالى :

﴿ * جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴿٩٧﴾ ﴾ (سورة المائدة)

يعنى جل ثناؤه ، أنه جعل الكعبة نظاما وانتعاشا لهم فى أمر دينهم ودنياهم ، ونهوضا إلى أغراضهم ومقاصدهم فى معاشهم ومعادهم ، وإلى هذا أيضا تشير الآية الكريمة :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ (سورة الحج)

وربما ذهب أهل العلم إلى أن المراد بالمنافع فى الآية إنما هو التجارة، وليس من الميسور التسليم بهذا ، فإن المنافع أوسع دائرة وأرحب أفقا ، فلا تقتصر على التجارة وحدها ، فإنما هى منفعة من المنافع ، ولعل أبرز المنافع وأشملها للخير ، التجمع والتعارف مضيا مع قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴿١٣﴾ ﴾
(سورة الحجرات)

ويؤيد هذا المعنى ويقويه شدة حرص الشارع على شهود المسلم للجمعة والجماعات فى الصلاة ، حتى لقد قال عليه الصلاة والسلام فى شأن قوم تخلفوا عن صلاة الجماعة : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم آتى قوما تخلفوا عن صلاة الجماعة فأُحرّق عليهم بيوتهم » فليس وراء هذا دليل على فضل الجماعة وعلى شدة حرص الشارع عليها .

وإجتماع المسلمين فى المسجد لأداء الصلاة إنما هو اجتماع نفر قليل فى قرية أو بلد ، بيد أن اجتماع الحجيج فى الحج إنما يكون من أبعد البلاد وأعمق الفجاج فالفائدة به أعم ، والثمرة به أنفع والحرص عليه أشد ، وخليق بمن يتأمل حكمة الحج فى هذا الضوء ألا يقصرها على منافع التجارة والرزق ، وإنما يمضى بها قدما إلى ما أراده الله تعالى للمسلمين من التجمع والتعارف والتفاهم والتشاور الذى هو خير وبركة لكافة المسلمين .

والذين يتبعون فى عصرنا هذا ما صار عرفا متبعا بين الشعوب من المعاهدات الثقافية التى يتعارفون فيها ويتواصلون ، والمعاهدات الاقتصادية التى يتبادلون فيها المنافع والكسوب ، يرون الإسلام قد سبقهم إلى ذلك بأربعة عشر قرنا من الزمان . فالحج بهذا النظر ركن عظيم تستند إليه الجامعة الإسلامية التى تصون مصالح أمة القرآن .

الجزء الثانــى

الــقرآن

الكليات الخمس

هذا هو الأصل الأول الذى هو الكعبة ، وأما الأصل الثانى الذى هو القرآن العظيم ، فليس يخفى أنه روح الأمة المحمدية ، وأنهامرتبطة به بقاء ونماء ، على ما تشير إلى ذلك الآية الكريمة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة الشورى)

ففى هذه الآية سمَّى الله ـ تعالى ـ القرآن روحا وجعله نورا ، فإن تخلت عنه الأمة وفارقته فقد فارقت روحها ، ولا حياة للكائن الحى بغير روح .

وأول ما نبدأ به الحديث عن القرآن الكريم ، أنه هو الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولست ترتاب ـ حفظك الله ـ فى أن القرآن لا يُعرّف تعريف المجاهيل ، فحسبُك ما أخرجه الإمام الترمذى عن أمير المؤمنين على ـ كرم الله وجهه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « كتاب الله ـ تعالى ـ فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهوى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ونوره المبين . لا تزيغ به الأهواء ولا تتشعب عنه الأراء ولا تنقضى عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد ، من حكم به عدل ومن دعا إليه هُدِى ومن عمل به أُجر » .

هذا . . وقد جمع الله ـ تعالى ـ للمسلمين فى هذا الكتاب الكريم أصول الحياة الاجتماعية الشريفة، التى يسعد فى ظلالها أبناء العقيدة الاسلامية ، ومن يعايشونهم فى سلطان دولتهم مهما اختلفت عقائدهم ، متغاضين عن التعالى بالعنصرية العِرقية أو التباهى بالوطنية الجغرافية ، إذ كانت الغاية التى تجمع بينهم ماثلةً فى احترام كليات خمس ، أجمع على احترامها أهل الديانات الكتابية التى إبتعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، على اختلاف الأمكنة وتبدل العصور .

وهذه الكليات الخمس هى : احترام النفس ، واحترام المال ، واحترام النسب ، وإحترام العقل ، وإحترام الدين . وليس يرتاب المنصف فى أن احترام هذه الكليات الخمس ، يسبغ على المجتمع الذى يأخذ بها ويستمد تشريعاته منها ، ظلالَ الأمن والسكينة والسلام ، لا يجادل فى ذلك أو يغض من قدره من يتغيا العدل ويتحرى مرضاة الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والعقيدة التى تحترم هذه الكليات الخمس إحتراما يستعصى على التأويل ، هى العقيدة نفسها التى تدعو إلى التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى ، تكافلا لا تعرف الانسانية له نظيرا قبل الإسلام . وآية ذلك حديث يرويه الثقات عن رسول الله ، وفيه يقول ـ ﷺ ـ « من مات من المسلمين وعليه دَيْن ، فعلىّ قضاءُ دينه ، ومن مات وترك مالا فماله لورثته ، ومن مات وترك عيالا ضائعين بلا مال ، فأنا كافلُ عيالِه » .

الرفق بالخلق

على أن التكافل فى المجتمع الذى استحدثته الدعوة المحمدية ، لم يقتصر التراحم فيه على الإنسان ، بل تجاوزه إلى الحيوان . والدليل على ذلك أمور نرويها لك عن الموثوقين من الفقهاء بشريعة الاسلام المسماح .

فمن ذلك ما جاء فى كتب السنة من قول رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق ، إشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ثم خرج وقد ارتوى . فلما بلغ رأس البئر إذا كلبٌ يلهث ويأكل الثرى من شدة العطش . فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى . ثم نزل البئر فملأ خفَّه وأمسكه

بفيه حتى خرج من البئر فسقىَ الكلب ، ومازال يهبط ويصعد ويسقى الكلب حتى أرتوى . فشكر الله ـ تعالى ـ له ، فغفر له » قالوا : وإن لنا فى البهائم لأجرا يا رسول الله ؟ . قال : « نعم ، فى كل ذى كبد رطبة أجر » .

ومن أعظم صور الرفق بالخلق فى شريعة الإسلام ، رثاء رسول الله ـ ﷺ ـ لبعير ، فى قصة خلاصتها أنه ـ صلوات الله عليه ـ دخل ذات يوم بستان فتى من الأنصار ، فاذا فيه جملٌ يبدو عليه الضَرّ ، فسأل : « من صاحب الجمل ؟ » فجاء إليه الفتى الأنصارى يقول : أنا صاحبه يا رسول الله . فقال له ـ صلوات الله عليه ـ : « أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ؟ » .

ومن أكرم صور الرفق بالخلق فى الشريعة ما تجده فى كتب المالكية ، حيث يذكرون أنه إذا لجأت هرّة عمياء إلى بيت مسلم ، فإن عليه أن يطعمها ويسقيها ، إذ كانت غير قادرة على التصرف والكسب .

ومن أشرف صور الرفق فى أحكام الشريعة ، إجماع العلماء على أنه لا يحل للمسلم أن يحمل على دابته ما يَشُقّ عليها . وكذلك حكمهم بأنه لا يحل لمالك البهيمة أن يَحلُب من لبنها ما يَضُرّ بولدها . وكذلك لا يحل له أن يحلب بهيمته إذا طالت أظافره بحيث تؤذيها ، فاذا أراد حلبها ، فعليه أن يقص أظافره ثم يحلب إذا شاء .

ومن أجلّ صور التكافل الذى تقتضيه مصلحة الأمة ولا تضيق به صدور المؤمنين ، أن الفقهاء بالشريعة أوجبوا على مالك خلايا النحل ، أن يبقى لنحلة من العسل ما تحتاج إليه . ويتصل بذلك أنهم أوجبوا على مالك دود القز أن يحصِّل له من ورق التوت ما يحفظ حياته ويحقق الفائدة منه .

هذا ، ومن أعجب صور الرفق بالخلق ، ما يرويه الثقات عن أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ حيث قال والله لو أن بغلة عثرت فى العراق ، لوجدتنى مسئولا عنها بين يدى الله : لِمَ لَمْ أمهّد لها الطريق حتى لا تعثر .

وخلاصة ما تتغياه هذه الوقفة حيال القرآن ، أن الله ـ تعالى ـ قد جمع للأمة الإسلامية فى هذا الكتاب العزيز ، كلَّ ما يعتز به الإنسان ويسعى إليه ويحرص على الظفر به ، من الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والسلام ، الذى هو شقيق الإسلام فى

المادة اللغوية ، وفى الغاية التى يطمئن إليها الناس فى معترك الحياة . وصدق الله العظيم فيما وصف به كتابه الكريم :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (سورة ابراهيم)

تلك كلمات مجملة ـ غاية الإجمال ـ عن القرآن الكريم ، وقد كان أرضَى للنفس وأجلبَ للخير أن نأخذ فى تفسير القرآن كله ، إبتغاء خيرى الدنيا والآخرة فى الانتماء إلى خَدَمَة القرآن العظيم ، غير أن مشاغل الحياة لم تأذن لنا بذلك ، فآثرنا ـ إذا فاتنا إدراكُ كل ما تمنينا ـ ألا يفوتنا بعضه ، فتخيرنا آيات من الكتاب العزيز يختلف حيالها أهل العلم أختلاف رواية ودراية ، لنعطى الذين يقرءون لنا صورة عن سماحة الإسلام فى تربية أبنائه على حرية الرأى ، ما دام رأيا يقوم على احترام أعراف اللغة التى نزل بها القرآن ، ويتحرى مقاصد الشريعة التى جاء بها الإسلام على يد محمد رسول الله وفيض رحمته للعالمين .

آل حاميم

وقد يرى بعض الغيارى على الكتاب الكريم أن أختيار آيات دون غيرها من القرآن ، يشير إلى تفاضل آياتِهِ وتفضيل بعضها على بعض ، مع أن الآيات جميعا قد توافر لكل آية منها ما توافر لسائر الآيات ، فالتفضيل بينها وإيثار إحداها بالاختيار على الأخريات ، عمل لا مسوِّغ له ولا خير فيه .

ونقول لهذا القائل : إننا فى هذا الاختيار ، قد آثرنا الاقتداء بعبد الله ابن مسعود الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : « من أراد أن يسمع القرآن غضا طريا كما أنزل ، فليستمع إلى قراءة ابن أم عبد » ، يعنى ابن مسعود وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم : « إقرأ على يا عبد الله » فقال : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ . فقال النبى ﷺ : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » . فامتثل ابن مسعود وقرأ سورة « النساء » ، حتى إذا بلغ الآية الكريمة :

(١) راجع فى هذه الطرائف الموثوقة كتاب « النفقات » للأستاذ أحمد ابراهيم .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

نظر إلى النبى ـ ﷺ ـ فإذا عيناه تدمعان . فهذا الصحابى الجليل قد اختار سورا من القرآن كان يراها أحق بالاختيار من سواها ، وقد نسب إليها من الفضل والزيادة فى الخير ما لم ينسبه لغيرها ، فذلك قوله ـ رضى الله عنه : « كنت إذا دخلت فى آل حاميم[1] ، دخلت فى روضات دمثات[2] أتأنق[3] فيهن » فنحن إذا أخذنا آيات من القرآن ايثارا لها لمعنىً فيها ، فقد اقتدينا بصَحابى جليل أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الآل : الأهل ، ولا تستعمل هذه الكلمة إلا للأشهر الأشرف ، فنقول : القراء ، آل الله . وليس يسوغ لك أن تستعمل كلمة « آل » لغير شريف ، فلا تقول : آل الخياط و آل الاسكاف ، وإنما نقول أهله . والمراد بآل حاميم : السُّور التى تبدأ بحرف الحاء والميم والياء والميم . وهذه السور المفتتحة بالأحرف « حاميم » سبع سور هى : سورة « غافر » ، وسورة « فصلت » ، وسورة « الشورى » ، وسورة « الزخرف » ، وسورة « الدخان » ، وسورة « الجاثية » ، وسورة « الأحقاف » .

(٢) الدمث : المكان السهل ذو الرمل .

(٣) التانق : تَطَلُّب الأنيق المعجب وتتبعه .

(١)
تفسير سورة « الحمد لله رب العالمين »

وأول تلك الآيات الشريفة ، قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾
(سورة الفاتحة)

فالحمد لله ، تعنى الشكر لله والإقرار بنعمته . فكذلك قال رسول الله ﷺ : « إذا قلت الحمد لله رب العالمين ، فقد شكرت الله فزادك » .

وأما كلمة « رب » فإن الرب فى كلام العرب تدل على السيد المطاع ، وشاهده قول النابغة الذبيانى :

تَخُبُّ إلى النعمان حتى تنالَه ... فِدىً لك من ربٍ طريفى وتالدى

يقول : إن كل ما أملكه من مال عتيق أو مستحدث ، إنما هو فِدىً لك أيها السيد .

والرب ـ أيضا ـ هو الرجل المصلح . وشاهده قول الفرزدق :

كانوا كَسالِئَةٍ حمقاءَ إذ حَقَنَتْ ... سلاءَها فى أديمٍ غيرِ مربوبِ

يقول : إن تلك الحمقاء وضعت سلاءها فى أديم غير مصلح . والسلاء ، السمن . وحقنه ، حبسه فى أديم معروف عند العرب ، يصون السلاء ويقيه الفساد .

فربنا ـ جل ثناؤه ـ هو السيد الذى لا شبيه له ولا مثيل فى سوددة ، وهو ـ سبحانه ـ المصلح أمرَ خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، ثم هو ـ سبحانه ـ المالك الذى له الخلق والأمر .

وأما كلمة « العالمين » ، فإنها كلمة فاجأت العرب من جانبين : جانب الجمع ، وجانب تذكير الجمع ، إذ كان العرب لا يعرفون إلا عالما واحدا ، هو العالم الذى كانوا يعيشون فيه . والناس ـ إلى اليوم ـ لا يتحدثون إلا عن عالم

واحد ، هو الذى نبصره ونُحسه ونعيش فيه . وقد إلتمس الناس تلك العوالم المتعددة فقالوا : إنها عوالم الإنس والجن والملائكة ، ثم قالوا : هى عوالم الحيوان والنبات والجماد . ولكن ذلك كله لا يقوم به لفظ العالمين ، لأنه جمع معرّف لا جمع منكّر . وأنت إذا قلت : العالَم ، لم تفهم إلا عالما واحدا ، هو هذا العالم الشامل لكل ما ترى من أرض وسماء ، فإذا أخذنا بحرفية اللفظ فى الفهم ، كان عالَمنا هذا فردا من أفراد وعالما من عوالم مثلِه .

وقد جاء علم الفلك الحديث بمراقبه ومراصده وتحليلاته الرياضية وغير الرياضية فبيّن أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ، ليست فى هذا العالم المجرِّىّ شيئا مذكورا . ثم بيّن علم الفلك ـ أيضا ـ أن هنالك عوالَم مجرِّيةً أخرى مترامية المطارح ، لا تُعَدّ بالمئات ولا بالألوف وقد تعدها بالملايين . فحرفية اللفظ القرآنى وحقيقة الجمع الذى أورده القرآن العظيم ، يقتضيان أن تكون هنالك عوالم أخرى فيها أرض تدور حول شمس ، يتحقق فيها ما هو متحقق لنا فى هذا العالم ، الذى جمعه الله ـ سبحانه ـ جمع تذكير فى أول آية من كتابه العزيز ، ينبه الناس بذلك إلى ما فى الكلمة الكريمة من أسرار ، ليطلبوها فلا يصرفوا أنفسهم عنها بتعليلهم صيغة الجمع بمراعاة رؤوس الآيات ، حتى تكون جارية على مقتضى المد العارض بالسكون :

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ (سورة الفاتحة)

ولك بعد ذلك ـ أو عليك ـ أن تسأل عن مبلغ ما وصل إليه العلم الحديث من شأن هذا السر العظيم ، الذى أشار إليه الخالق جل ثناؤه بكلمة « رب العالمين » . وهذا السر هو سر وجود الحياة فى أرض غير أرضنا فى عالم غير عالمنا . وأنت إذا شئت الاستزادة من هذا المعنى ، فاقرأ قول الحق ـ تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩ ﴾

(سورة الشورى)

وسوف نرى أن من المفسرين للقرآن الكريم ، من ذهب إلى أن المراد من الدواب فى السماء إنما هم الملائكة . ولكن هذا الرأى لا يسيغه الذوق السليم إذ كان إطلاق الدابة على الملك إطلاقا غير سائغ ؛ ولذلك ذهب الإمام القاسمى فى تفسير الآية مذهبا أليق بأهل العلم أن يفهموه ويستأسروا له وهو ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الله ـ تعالى ـ خلق فى السماوات دواب ، وأن هذه الدواب ليست هى الملائكة ، بل هى حيوانات كحيوانات الأرض ، وربما كان بين هذه الحيوانات حيوان عاقل من نوع الإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن تكون فى السماوات نباتات وأشجار وبحار وأنهار ، كما يومىء إلى ذلك فى هذا العصر ما أنكشف على أيدى علماء العلم الحديث من وجود أرضين فى مختلف المجموعات الشمسية ، التى لا تعد بالألوف ولكنها تعد بالملايين . والقياس يقتضى أن فى كل مجموعة شمسية كواكب ، ومن بين هذه الكواكب أرض كأرضنا التى نعيش عليها اليوم . وفى آيات الكتاب العزيز آيات تشير إلى هذا المعنى ، منها قوله ـ تعالى ـ فى سورة « فصلت » :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

ووجه الإشارة من هذه الآية أن الله ـ تعالى ـ جعل الشمس والقمر آيتين تدلان على وجوده وقدرته وإتصافه بجميع صفات الكمال ، وكان مقتضى التعبير فى الظاهر القريب : ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر وأسجدوا لله الذى خلقهما . فإذ قد عدل التعبير الكريم عن التثنية إلى الجمع ، فقد دل ذلك على أن المراد مجموعات شمسية كثيرة ، تشتمل كل مجموعة منها على مثل ما تشتمل عليه مجموعتنا الشمسية من كواكب ، وبين هذه الكواكب أرض كأرضنا تشتمل على ما يصلح لحياة الدواب من نبات وأشجار وبحار وأنهار . وكما تشتمل مجموعاتنا الشمسية على الأرض بمن فيها من الإنسان الذى يحتاج إلى الدواب وما يقوم بحياتها ؛ لا يستبعد العلماء المعمليون والرياضيون أن يكون على تلك الأرضين فى مختلف المجموعات الشمسية ، إنسان من نوع الإنسان الذى يعيش على أرضنا هذه . ومن ثم إنطلقوا بمراكبهم الفضائية

يبحثون فى الزهرة والمريخ وما لا يعلمه إلا الله ، ولعلهم واجدون ما توقعوا وجوده فى قريب من الزمان أو بعيد . وبهذا لا يقع أهل العلم فيما حملهم عليه سوء الأدب من إطلاق كلمة « الدابة » على عباد الله الأكرمين من الملائكة . ويؤيد هذا المعنى بقية الآية الشريفة :

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (شورة الشورى)

ذلك أنه إذا وصل العلماء إلى وجود الإنسان فى كوكب ، فلابد أن يتزاور أهل أرضنا وأهل الأرض التى كشف عنها طموح العلم وإرادة العلماء فى عصرنا الحديث . بل لقد اجتمع فعلا ، إذ كان الذين وصلوا إلى القمر قد استقروا على ظهره ونقلت الآلات الحديثة صورهم وترجمت أحاديثهم ، فأصبح إنكار ذلك الأمر إنكارا لا يلوذ به أو يطمئن إليه عاقل بصير يكره العناد والمعاندين .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الفاتحة)

يحتاج إلى مزيد من التدبر . ذلك أن الرحمة فى لغة العرب ، رقة فى القلب تقتضى التفضل والإحسان ، فهى هنا كناية عن فضل الله ورحمته ، كما يشير إلى ذلك الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه الشيخان ، وفيه يقول رسول الله ـ ﷺ ـ : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

ومع أن الكلمتين : الرحمن الرحيم مأخوذتان من الرحمة ، إلا أن بينهما فرقا لابد من التنبه له والتنبيه إليه . وجملة هذا الفرق ، أن الرحمن على وزن فَعْلَان يدل على بلوغ الموصوف به غاية الصفة . وأما الرحيم ، فإنه يدل على أن الموصوف به لا تنفك الرحمة عن ذاته العلية . فوصف الله ـ تعالى ـ نفسه بأنه رحمن رحيم ، يعنى أن له ـ تعالى ـ أقصى ما تدل عليه كلمة الرحمة من الصفة ، وأن هذه الصفة لازمة له ، لزوم السجايا التى لا تنفك عن الموصوف بها ، كقولهم : حليم كريم عليم . فكذلك سمعنا شيوخنا يقولون ، وكذلك نروى عنهم ما سمعنا منهم ، رضى الله عنهم أجمعين .

(٢)

تفسير قوله تعالى : ـ

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾

إن أول ما تنبغى ملاحظته حول هذه الآية ، أن هذه الحروف المقطعة يجب نطقها بأسمائها : ألف . لام . ميم . وقد اختلف العلماء فى فواتح السور ، فقال الإمام الحافظ ابن كثير : من الناس من قال : إنها مما استأثر الله بعلمه . ومنهم من قال : إن لها معنى . فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنها أسماء للسور . وربما عضد هذا الرأى ما ورد فى الصحيح من أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ألف . لام . ميم السجدة . ووجه التعبير أن إسم السورة هو : ألف . لام . ميم السجدة .

والإمام السهيلى ممن ذهب إلى أن الحروف المقطعة فى فواتح السور ذوات معان . حتى لقد ركب ـ رحمه الله ـ فى رأيه هذا متن الغلو فيما يلوح للناظر ، وذلك حيث يقول : ولهذه الحروف فى أوائل السور معان جمة وفوائد لطيفة ، وما كان الله ـ تعالى ـ لينزل فى الكتاب ما لا فائدة فيه ، ولا ليخاطب نبيه وذوى الألباب من صحبه بما لا يفهمون ، وقد أنزله بيانا للناس وشفاء لما فى الصدور فهذه الحروف الأربعة عشر التى تتكون منها فواتح السور ، فى تخصيصها بالذكر دون غيرها حكمة بل حكم ، وفى إنزالها مقطعة على هيئة التهجى فوائد علمية وفقهية ، وفى تخصيصها بأوائل السور وفى أن كانت فى بعض السور دون بعض ، فوائد أيضا ، وفى اقتران الألف باللام وتقدمها عليها معان وفوائد ، وفى إرداف الألف واللام بالميم تارة وبالراء أخرى ـ ولا توجد الألف واللام فى أوائل السور إلا هكذا ـ مع تكررها ثلاث عشرة مرة ، فوائد أيضا ، وفى إنزال الكاف قبل الهاء ، والهاء قبل الياء ثم العين ثم الصاد من مفتتح سورة مريم معانٍ ، أكثرها تنبه عليها آيات من الكتاب ، وتبين المراد بها لمن تدبرها ، والتدبر والتذكر واجب على أولى الألباب .

قال الإمام السهيلى : والخوض فى إيراد هذه المعانى ، والقصد لإيضاح ما لاح لى عند الفكر والنظر فيها ، مع إيراد الشواهد على ذلك من كتاب وأثر وعربية ونظم ؛ يخرجنا عن موضوع الكتاب وينأى بنا عن المراد به ، ويقتضى إفراد جزء أشرح فيه ما أمكن من ذلك ، ولعله أن يكون إن ساعد القدر ، والله المستعان وهو ولى التوفيق لا شريك له .

هذا ما قاله الإمام السهيلى فى كتابه « الروض الأنف » ، وهو من أعيان القرن السادس الهجرى ، ولد بمدينة « مالقه » وتوفى « بمراكش » . ولو كان ما قاله ـ رضى الله عنه ـ قد أخرج للناس لكان شيئا جليلا ، لأنه قد شقق الأمور تشقيقا عجيبا ، ولم يدع شيئا يخطر بالذهن إلا أشار إليه ووعد أنه مفصِّلٌ القول فيه . ولعل القدر لم يساعده على إخراج ما كان يريد من علم ، لا شك فى نفعه للحراص على تفهم كل ما ورد فى الكتاب العزيز . ولعله أن يكون قد كتب ما وعد به وأشار إليه ، ولكن كتابه لم تتداوله الأيدى . وإن كنا نرجح أنه لم يكتبه ، إذ لو كان فعل ـ مع طرافة ما وعد به ـ لكان قد تردد فى دنيا الناس ترددا لا يخفى أمره . إلا أن تكون قد عبثت به الأيام فى الفتن التى أصابت المسلمين فى المشرق والمغرب .

هذا ، ويقول بعض أهل العلم : إن هذه الفواتح أدوات استفتاح قرآنية ، وهو قول له وجاهته وله مبرراته ، فالشعر العربى والنثر العربى كلاهما يزخر بأدوات يسمونها أدوات استفتاح يقصد بها إلى التنبيه واستجماع الأذهان ، ولفتها إلى ما للكلام بعدها من قيمة ، وما ينبغى له من الاهتمام .

ومن أدوات الاستفتاح كلمة « ألا » .

يقول لَبيد بن ربيعة :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وكذلك كلمة « أما » .

يقول صخر الهُذَلى :

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد كنت ألقاها وفى النفس هجرها ... بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر

وفى الحديث الشريف : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وفى القرآن الكريم نفسه :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (سورة يونس)

وإذا كان فى الشعر أدوات استفتاح وتنبيه ، وفى النثر كذلك ، وفى القرآن نفسه آيات تبدأ بأدوات استفتاح وتنبيه ، فإن « ألف . لام . ميم » وما إليها فى ابتداء السور هى أدوات استفتاح قرآنية ، اختص بها القرآن الكريم ، والمفسرون أنفسهم يطلقون عليها فواتح السور ، وهم بهذا يشيرون إلى هذا المعنى ، أعنى إلى معنى أنها أدوات استفتاح ، وهو معنى سهل وميسور جنح به إلى الغموض كثرة كلام الناس فيه ، وما أكثر ما يتأبى البديهى ويستغلق إذا تعاورته الألسن وأسرفت فى التحكك به غرائب الأفهام .

ومن الآراء التى تسترعى النظر ، ما يرويه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتابه الكامل عن ابن عباس ، فقد سأله نافع بن الأزرق عن :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ (سورة البقرة)

فقال ابن عباس : تأويله هذا القرآن . قال المبرد هكذا جاء ، ولا أحفظ عليه شاهدا عن ابن عباس ، وأنا أحسبه لم يقبله إلا بشاهد ، وتقديره عند النحويين إذا قال ذلك الكتاب ، أنهم كانوا قد وُعدوا كتابا . كما جاء ذلك فى سورة « البقرة » فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وكذلك قوله ـ تعالى ـ فى السورة نفسها : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

ففى هاتين الآيتين بيان من الله تعالى بأنه ـ سبحانه ـ كان قد وعد بإنزال كتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، يجىء به رسول يصدِّق الأنبياء والمرسلين قبله . فهذا الكتاب الموعود هو الذى أشير إليه أول سورة « البقرة » بالحروف الثلاثة « ألف . لام . ميم » ، وكذلك سائر فواتح السور . فهذا هو الذى أراده ابن عباس فى إجابته نافع بن الأزرق .

وهذا القدر من الكلام يحتاج إلى شىء من التفصيل يقول به بعض أهل العلم، الذين لهم فى كتاب الله ـ تعالى وعز ـ نظر واجتهاد .

قالوا : إن السور المفتتحة بالحروف المقطعة نوعان : مكى ، ومدنى . والسور المدنية كانت تنزل فى المدينة حيث كان أهل الكتاب يساكنون العرب فيها ، فكلمة ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ (١ ، ٢) سورة البقرة ـ ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١ ، ٢) سورة آل عمران ـ ﴿ الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ سورة الرعد ـ إشارة إلى أن أهل الكتاب كانوا يتوقعون نبيا ذا كتاب ، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧ ﴾

(سورة الاعراف)

هذا ما يتصل بفواتح السور المدنية ، وأما ما يتصل بفواتح السور المكية ، فقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ حين يتلو القرآن يروح المشركون يشوشون عليه فى أصوات فاحشة ، يحاولون بها صرف الناس عن الاستماع إليه عليه السلام ، فذلك قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

ففواتح السور تقع فى بدء التلاوة فى الوقت الذى يقوم فيه كفار قريش باللغو ، فإذا بدأوا يصمتون بدأت كلمات القرآن وأسلوبه يهيمن عليهم ويتسلط على قلوبهم وأفكارهم ، فيكرههم على الإنصات له والاستماع إليه .

ولا ينبغى أن يخفى على أهل النظر أن هذه الآراء المختلفة ليس اختلافها اختلاف تضاد ، بل اختلاف تنوع ، فيمكن أن تكون هذه الحروف أدوات استفتاح قرآنية ، وفى الوقت نفسه تكون أسماء للسور ، وفى الوقت نفسه تكون من أسماء الله ـ عز وجل ـ وفى الوقت نفسه تكون إشارة إلى كتاب النبى الموعود به فى التوارة والإنجيل . كذلك يمكن أن تكون ـ على ما ذهب إليه بعض المفسرين ـ إشارة إلى أن هذا القرآن الذى أعجزهم ولم يستطيعوا أن يعارضوه ، مؤلف من الحروف التى يعرفونها ويألفونها ، والتى تنشأ لغتهم منها وتقوم فصاحتهم عليها .

والعرب ـ كما أسلفت ـ ومن يساكنونهم من أهل الكتاب ، كانوا يتوقعون نبيا وكتابا ، فهذه الفواتح تشير إلى أن الكتاب المنتظر ـ مع النبى الموعود ـ ليست لغته السريانية ولا العبرانية ، ولكن لغته هى اللغة العربية التى تتألف كلماتها من هذه الحروف .

(٣)

تفسير قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾
(سورة البقرة)

فالغيب فى هذه الآية على ما يرى ترجمان القرآن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ هو الإيمان بما جاء من الله جل ثناؤه .

وهو عند ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار مما ذكر الله ـ تعالى ـ فى القرآن .

والتابعى الجليل زر بن حبيش يرى أن الغيب هو القرآن نفسه .

ثم يجىء بعد هؤلاء أبو مسلم الأصفهانى فيقول : « إن قوله ـ تعالى ـ « **بالغيب** » هو صفة المؤمنين ، ومعناه أنهم يؤمنون بالله حال الغيب كما يؤمنون به حال الحضور ، فهم ليسوا كالمنافقين

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ﴾ (سورة البقرة)

قال ـ رحمه الله ـ : ونظيره من القرآن قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (سورة يوسف ٥٢)

وذلك كما يقول الرجل لغيره : نعم الصديق لك فلان بظهر الغيب . وكل ذلك مدح للمؤمنين لكون ظاهرهم موافقا لباطنهم ، بخلاف حال المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

قوله تعالى : ـ ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾
(سورة البقرة ٢٦)

ففى هذه الآية نفى الله ـ تعالى ـ عن ذاته العلية صفة الحياء ، إذ كان الحياء تغيرا وانكسارا يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به ، وذلك مما لا يليق بالله تبارك وتعالى ، لأنه صفة للأجسام والله ـ تعالى ـ منزَّهٌ عن كونه جسما .

وقد اعترض فريق من أهل العلم على ذلك قائلا : كيف يَسُوغ نفي الحياء عن الله تعالى مع ورود الأحاديث بذلك ، كقوله ـ ﷺ ـ فيما روى سلمان : « إن الله تعالى حَيِىٌّ كريم يستحى إذا رفع العبد إليه يديه ، أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا » .

وإذ قد كان ذلك كذلك ، فقد وجب المصير إلى تأويل يسوغ به ورود الحياء فى حق الله ـ تعالى ـ على سبيل النفى أو على سبيل الإثبات . وبيان ذلك أن كل صفة لها مبدأ ونهاية ، فإذا ورد الحياء فى حق الله ـ تعالى ـ فليس المراد به مبدأ الصفة الذى هو الخوف والإنكسار من أجل ما يعاب به ويذم من أجله ، وإنما المراد به النهاية التى تنتهى إليها صفة الحياء ، وهو ترك الفعل الذى يعاب به ويذم عليه . وعلى مثل ذلك تجىء صفة الغضب ، فإن لها كذلك مبدأ ونهاية ، فأما مبدؤها فهو غليان دم القلب وتحكم شهوة الانتقام وهذا مستحيل فى حق الله ـ تعالى ـ من حيث مبدأ الصفة ، وإنما المراد به ما تتغياه الصفة وهو إنزال العقاب بالمغضوب عليهم ، فذلك هو القانون الكلى فى هذا الباب من أبواب الكلام . وفى ظل هذا القانون الكلى تجىء صفة الرحمة ، فمبدؤها مستحيل على الله من حيث كانت رقةً فى القلب وغايتها الإحسان إلى من يستحق الرحمة ، وهذا أمر واجب ثابت فى حق الله تعالى .

(٤)

تفسير قوله تعالى : - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

ففى هذه الآية يذكر الثقات من أهل التأويل أن الله ـ سبحانه ـ متخذ فى الأرض خليفة يقوم بعمارتها ، ويتمم الإبداع الذى أراده الله لها . وذلك الخليفة متخذ من النوع الإنسانى بما انطوى عليه من مادة وروح ، ذلك أن كل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية له استعداد محدود وعلم إلهامى محدود أيضا ، وعمل محدود كذلك . وما كان كذلك ، فلا يصلح أن يكون خليفة عن الله الذى لا حد لعلمه وإرادته ولا حصر لأحكامه وسننه ولا نهاية لأعماله وتصرفاته .

وأما الإنسان ، فمهما كان مخلوقا ضعيفا كما قال تعالى ـ :

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة النساء)

فمهما كان مخلوقا جاهلا كما قال تعالى ـ :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾

(سورة النحل ٧٨)

فإنه على ضعفه وجهله موضع لعجب المتعجب ، من حيث كان يتصرف فى الأقوياء ويعلم جميع الأشياء ، فالحيوان يولد عالما بالإلهام ما ينفعه وما يضره ، ثم تكمل له

قواه فى زمن يقصر أو يطول . وأما الإنسان فإنه يولد وليس معه من الإلهام إلا القليل الذى يتمثل فى الصراخ والبكاء والاهتداء إلى الغذاء ، ثم تنمو قواه ويكتمل إحساسه شيئا فشيئا ، وقد أعطاه الله ـ تعالى ـ قوة أخرى تتصرف تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها بعد ذلك ، كما تشاء له تلك القوة الغريبة التى يسمونها العقل ولا يعقلون سرها ، فهى التى تغنى الإنسان عن كل ما أُعطى الحيوان فى أصل الفطرة ، من الكساء الذى يقيه البرد والحر ، والأعضاء التى يتناول بها غذاءه ويدافع بها عن نفسه ، وقد يسطو بها على عدوه وما إلى ذلك من المواهب التى يُعطاها الحيوان بلا كسب . حتى لقد كان للإنسان بقوته العاقلة من الاختراعات العجيبة ما كان وما سيكون ، مما لا يصل إليه التقدير والحسبان .

فالإنسان ـ بهذه القوة ـ غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ، ولا محدود العلم ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه فى الكون تصرفا بإذن الله ، ولا تضبطه حدود ولا تحول دونه سدود . وكما أعطاه الله ـ تعالى ـ هذه المواهب والأحكام ليظهر بها أسرار خليقته وملكه الأرض ، أعطاه أحكاما وشرائع حدّ فيها لأعماله وأخلاقه حدّا ، يحول دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض .

ولقد ظهرت آثار الإنسان فى هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه فى المعدن والنبات وفى البر والبحر والهواء ، فهو يتفنن ويبتدع ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل ، حتى غيّر شكل الأرض فجعل الحَزْن سهلا ، والمَحْل خصبا والخراب عمرانا والبرارى بحارا أو خلجانا ، ثم ولّد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن معروفة من قبل . فقد خلق الله ذلك كله بيد الإنسان وأنشأه بكسبه ثم تصرف الإنسان فى كون الله تصرفا لا يطمع فى إحصائه بيان . فعن هذا الاستعداد وهذه المواهب جعل الله ـ تعالى ـ الإنسان خليفته فى الأرض ، يقيم سننه ويظهر عجائب صنعته وأسرار خليقته وبدائع حكمته ، فهو آية الآيات على كمال الله ـ تعالى ـ وسعة علمه .

(٥)

تفسير قوله تعالى : - ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ففى هذه الآية عدة معان ، بعضها سائغ مقبول وبعضها غير سائغ ولا مقبول . وأقرب شىء يقال فى هذا المجال ما ذكره الأستاذ العلامة عباس محمود العقاد ، حيث قال رحمه الله ما نؤثر أن ندونه هنا بعبارته :

يوم عرف الإنسان الشيطان ، كانت معرفته فاتحة خير . وهذه الكلمة « شيطان » ، كلمة رائقة معجبة تروع السامع وتستحق فى بعض الأذواق أن تُقال ، ولو تسامح القائلون والسامعون فى بعض الحقيقة طلبا لبلاغة المجاز .

ولكنها هى الحقيقة فى بساطتها الصادقة التى لا مجاز فى لفظها ولا فى معناها ، ولا تسامح فى مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هى من قبيل الحقائق الرياضية التى تثبت بكل برهان ، وتقدم الشواهد عليها فى كل مكان .

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يُعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته .

كان ظلامٌ لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حَسنٍ وقبيح ، فلما ميز الإنسان النور عرف الظلام ، ولما إستطاع إدراك الصباح إستطاع أن يعارضه بالليل وبالمساء .

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن بين أعمالها الحسان وأعمالها القباح من فارق إلا أن هذا يسرّ وهذا يسوء ، وإلا أن هذا يؤمَن وهذا يخاف . أما أنّ هذا جائز وهذا غير جائز فى ميزان الأخلاق ، فلم يكن له مدلول فى الكلام ، ولم يكن له من باب أولى مدلول فى الذهن والوجدان .

وكانت القدرة هى كلّ شىء .

فلما عرف الإنسان كيف يذم القدرة ويعيبها ، عرف القدرة التى تجمل بالرب المعبود ، والقدرة التى لا تنسب إليه ، ولكنها تنسب إلى ضدّه ونقيضه وهو الشيطان .

وكانت فاتحة خير لا شك فيه .

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح فى التعبير .

وكانت للإنسان عين يعرف بها الظلام ، لأنها عرفت النور ، وخرجت من غيابة الظلمات التى كانت مطبقة عليه .

فتاريخ الإنسان فى أخلاقه الحية لا ينفصل عن تاريخ الشيطان .

وأولُهُ هذا التمييز بين الخير والشر .

ولكنه الأول فى طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه .

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخرى ألزم من تلك الخطوة الأولى فى تاريخ الأخلاق الحية .

وتلك هى معرفة الخير فى الصميم .

فقد كان على الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة .

فليس الخير خلوا من الشر وكفى .

وليس الخير ابتعادا عن الشر وكفى .

وليس الخير عجزا عن الشر وكفى .

وليس الخير مخالفة للشر وكفى .

كلا . بل الخير قائم بذاته ، وليس قصاراه أنه امتناع عن شيء سواه .

الخير هو القدرة على الحَسَن مع القدرة على القبيح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين .

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان أنه سقط لأنه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة أجمعين .

وإنما فُضِّل آدم عليه لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور .

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر ، لأنهم بمنجاة عن غوايته ، وفضل على الجان الذين لا يختارون بين نقيضين .

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان فى هذا العالم ، وعرفت معها فضيلة الإنسان . فإنما وظيفة الشيطان أن يُثبت عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن بمشئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام .

وإنما فضيلة الإنسان أن يصنع خيرا ، وللشر عنده غواية ، وله فى نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجان .

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للأخلاق الحية فى وجدان آدم وبنيه .

وتمتحن الأخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل ، كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لأن يعرف بعد جهل ، ويدرك بعد قصور ، فليس غير الإنسان مصداق لذلك المخلوق .

ليست الملائكة ولا الجان فى صورتها الحية مخلوقات نامية فى معرفتها ، عالمة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة إلى الرشد ، إلى غاية المدى المقدور لكل مخلوق .

ولكنها فى صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التى لا تفارقها ، فلا اجتهاد لها فيما تعلم ، ولا فوات على اجتهادها فيما تجهل ، وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلمعان النور ووهجان النار ولألاء الجوهر الصافى وجريان الماء وخفقان الهواء .

ولا كذلك سليل التراب . إنه ليعلم حتى لَتعجب كيف علم ، وإنه لَيجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لأن يأتى بالعَجبِ فى علمه وجهله ، فهو مسئول عن هذا وذاك .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار ، وإنما القداسة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان .

وكلما ذكرت الأخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان فى ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية فى المطاوعة والاعتصام ؛ وتلك هى الأخلاق الحية كما تعيش فى اللحم والدم وفى القيم والمزايا . فأما الأخلاق فى صفحات الورق وفى مصطلحات الباحثين فهى كلمات وحروف وأصداء .

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطورا على صفحات ، فيجمعها أطروحة فى قاعة درس أو سفرا على الرف إلى جانب أسفار .

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ، ويعطيها الأسماء التى تدله على تلك الحقائق ، كما يستقبلها بحسه وشعوره ، ويواجهها برجائه وخوفه ، وبإقباله ونفوره ، وينادَى بالإسم من هذه الأسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة فى القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق وسرا يختلج فى الأعماق .

وهكذا ينطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الأمم وهى تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الأكوان التى لا تحصرها الأوراق ولا تحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجىء العقول طارئا عليها وحنيفا فى رحابها ، وقد مضى عليها فى مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .

الشيطـــــان

أى مجموعة من الأسفار تؤدى للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان إلى الأعماق .

وإلى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون بها ألف « لوجى ولوجى » على غرار السيكولوجى والبيولوجى والميثولوجى ، وغيرها من اللواحق فى الأواخر على اختلاف الصيغ واللغات .

إلى اليوم يفرقون بين الصفات والأخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى الحس ولا فى الذهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة إلى آخر الزمان .

وقد سمعنا عن الصفات الإلاهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الإنسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية ، فما هو بفاهم شيئا من فوارق الأخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب .

ولمن شاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى أو الفلسفى من قبيل الأخلاق المثالية والأخلاق الاجتماعية والأخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ؛ فإنه لا يحس منها إلا أنها بطاقات معلقة على واجهات ، أو شواخص لا نبض فيها ولا دم ولا حراك .

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الإلاهية فيفهم أنها أعلى الصفات ، ويحس أنه يرتفع بالاتجاه إليها والرجاء فيها إلى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغالق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ، ولا يكون قصاراه من معرفتها أنها مادة فى معجم أو عنوان على مذهب أو إشارة مرور إلى حيث يسير أو لا يسير .

ولأول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة ، فيفهم أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها فى الوقت نفسه بالحنين إليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليها ، لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها .

ولأول وهلة يسمع الصفات الإنسانية ، فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الإلاهية والملكية ، ويعرف فى الوقت نفسه أن الإنسان قابل للطموح إلى ما يعلو عليه والهبوط إلى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء .

ولأول وهلة يسمع الصفات الشيطانية ، فيفهم أنه فى موقف احتراس وحذر ، وإن لم يخلُ من تطلع فى أحيان ومن إعجاب فى أحيان أخرى ، ولا يُضطر إلى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فإن هذه الكلمة تقع فى موقعها عنده كأنها نقلت إليه الشىء نفسه محسوسا ملموسا معقولا مدروسا ولم نَقلت منه بإشارة أو عنوان .

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيمية أو الصفات السبعية ، فإنها كذلك تنقل إليه أشياء وأحياء ، ولا تنقل إليه حروفا وكلمات .

إن خالق الكون لم يرد بإعطاء الناس حياتهم ، أن يعطيهم قاموسا أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففى وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا ، فإذا هى أكثر الأشياء إختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، وإذ هى برج بابل يمتد على كرة الأرض ولا يزال أبدا فى حاجة إلى ترجمان .

ولو كانت هذه المدلولات فى اللغات هى الحقائق المقصودة ، لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة فى كل لسان .

ولكن هذا النوع الإنسانى تلقى وجوده من خالقه حياة تجيش فى ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية ، كائنا ما كانت أصداؤها فى عالم الحروف والرموز والإشارات والكلمات والطلاسم ، أو فى « الهيروغليفية » الكونية على الإجمال .

ومن شاء فليبادل إن كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالإنسان إلى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة « الشيطان » أو كلمة « الملك » أو كلمة « الخطيئة » أو كلمة « العصيان » وليضع فى مكانها ما يقترحه فى تصريف اللغة ومصطلحاتها ، مفسرة ميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع بالإنسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد . . فإنه قاتله وملقيه فى مقبرة من قاموسه الجليل ! .

من كانت له الجرأة وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته ، وبين هذه « الهيروغليفية » الكونية ، التى هى الكلام وهى متكلموه وهى المُحسَّون به وفاهموه .

فإذا كان لا يدرك تاريخ الأخلاق الإنسانية حقا وصدقا إلا من تاريخ الشيطان فلا ينكِرنَّ هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى .

إن وجوده أرسخ من وجود الإنسان .

ومن لم يكن فى وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة ، فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخفاء ، والظواهر والأسرار ، فكل أولئك له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه .

(٦)

تفسير قوله جل ثناؤه ـ :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقد اختلف أهل التأويل فى المراد من الجنة ، هل هى جنة الخلد أو جنة أخرى ؟ .

فقالت طائفة : أسكن الله آدم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة . واحتجوا للقول بأنها جنة الخلد وأنها جنة المأوى بما ذكره ابن القيم ، مرويا عن أبى موسى الأشعرى فى قوله : إن الله ـ تعالى ـ لما أخرج آدم من الجنة ، زوده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شىء ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير .

واحتجوا ـ أيضا ـ بما رُوى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى ـ :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴾

(سورة البقرة)

قال : يا رب ألم تخلقنى بيدك ؟ . قال : بلى ، قال : أى رب ألم تنفخ فى من روحك ؟ . قال : بلى . قال : أى رب ألم تسكنى جنتك ؟ . قال : بلى . قال : رب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ . قال : بلى . قال : أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ . قال : بلى ، قال : فهو قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(سورة البقرة)

وقالت طائفة أخرى : إن الجنة التى أُسكِنُها آدم ليست هى جنة الخلد . وبهذا القول قال منذر بن سعيد مقررا أن هذا القول تكثر الدلائل الشاهدة له ، والموجبة للقول به .

وعن أبى القاسم الراغب فى تفسيره حاكيا عن بعض المتكلمين ، أن الجنة كانت بستانا جعله الله ـ تعالى ـ لآدم وزوجته امتحانا وابتلاء ، ولم تكن جنة المأوى .

وهذا القول هو ما ذهب إليه أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الأصفهانى ، فقد قالا : إن هذه الجنة فى الأرض ، وحملا الاهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، وضربا لذلك مثلا قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

(سورة البقرة)

قالا : وهذا قول تكثر الدلائل الموجبة للقول به ، وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ على لسان جميع رسله أن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة ، ولما يأت زمن دخولها . ومع ذلك وصفها الله ـ تعالى ـ فى كتابه بصفاتها ، ومحال أن يصف الله ـ تعالى ـ شيئا بصفته ، ثم يكون ذلك الشىء بغير تلك الصفة التى وصفه بها ، وقد وجدنا ربنا ـ تعالى وعز ـ وصف الجنة التى أعدت للمتقين بأنها دار المقامة ، فمن دخلها أقام بها ، وآدم لم يُقِم بالجنة التى دخلها ، ثم وصفها ـ سبحانه ـ بأنها جنة الخلد ، وآدم لم يخلد فيها ، كما وصفها جل ثناؤه بأنها دار ثواب وجزاء ، وليست دار أمر ونهى وتكليف ، كما وصفها ـ تعالى وعز ـ بأنها دار سلامة مطلقة ، لا دار ابتلاء وإمتحان ، وقد ابتلى فيها آدم بأعظم الإبتلاء ، وسماها سبحانه دار السلام ،

ولم يسلم فيها الأبوان ، كما سماها دار القرار ، ولم يستقرا فيها ، وقال فى داخليها :

﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * ﴾

(سورة الحجر)

وقد أُخرج الأبوان منها ، وأخبر سبحانه أنه لا لغو فيها ولا تأثيم ، وقد سمع فيها أبونا آدم لغو إبليس وإثمه .

(٧)

تفسير قوله جل ثناؤه - :

﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فالرغد ، الواسع من العيش الهنىء الذى لا يعنَّى صاحبه ، تقول العرب : أرغد فلان ، إذا أصاب واسعا من العيش الهنىء ؛ وكذلك فسره ابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ .

والشجرة فى كلام العرب ، كل ما قام على ساق ، وهو خلاف النجم الذى يراد به ما نجم من الأرض من غير ساق ، ومن ذلك قول الله - جل ثناؤه - :

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

وقد اختلف أهل التأويل فى عين الشجرة التى نهى آدم عن أكل ثمرها ، فقال بعضهم هى السنبلة أو البر ، وعن ابن عباس أنها الكرمة ، واللفظ المروى عن جعدة ابن هبيرة أنها العنب ، وفى رواية عنه قال : الشجرة التى نهى عنها آدم هى شجرة الخمر ، وعن أهل العلم أنها التينة .

وأما الإزلال فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ (سورة البقرة)

فهذا البناء أزلهما ، من قولهم : زل الرجل فى دينه ، إذا هفا وأخطأ فأتى ما ليس له إتيانه فيه .

والعرب تقول : أزله غيره ، إذا سبب له ما يزل من أجله فى دينه أو دنياه . قال الإمام الطبرى : ولذلك أضاف الله - تعالى ذكره - إلى إبليس خروج آدم وزوجته من الجنة ، فقال سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا ﴾ يعنى إبليس ﴿ مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (سورة البقرة) لأنه كان الذى سبب لهما الخطيئة التى عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة .

وها هنا مواطن للنظر لابد للباحث أن يتلبث بها وأن يطيل التأمل فيها ، ولعله بعد ذلك واقع على معنى للشجرة التى نهى الله عن قربانها آدم وحواء ، يكون أدنى إلى الفهم ، وأخلق بالاجتهاد فى كتاب الله الكريم .

وأول هذه المواطن وأولاها بالقبول ، أن الجنة المذكورة إنما كانت فى الأرض وأن معنى الاهباط الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما يشهد لذلك القرآن نفسه فى قوله - تعالى - : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (سورة البقرة)

وربما كانت تلك الجنة على مرتفع من الأرض ، فذلك أصلح لها وأعود عليها بالخير فى شجرها وثمرها ، على ما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ (سورة البقرة)

وعلى هذا يكون الاهباط أشد وضوحا من حيث كان يشير إلى إرتفاع وإنخفاض .

والموطن الثانى ، أن آدم - عليه السلام - حين أُسكن الجنة ، كان يمشى فيها وحشا ليس له زوجة يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ فإذا عند رأسه إمرأة قاعدة ، خلقها الله - تعالى - من ضلعه ، كما فى الحديث الشريف ، فسألها : من أنت ؟ . قالت : امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ . قالت : لتسكن إلى . فقال عند ذلك : لحمى ودمى وروحى . وسكن إليها .

ومهما يكن الأمر فى خلق حواء من ضلع آدم ، ومهما يكن رأى العلماء فى ذلك وجدالهم من حوله باعتباره حقيقة أو تجوزا ، فإن خلق حواء من ضلع آدم - حقيقة لا مجازا - يدل فيما نرى على معنى جليل بالغ الأثر فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، فإن خلقها من ضلع آدم يعطى شدة التلازم بين الذكر والأنثى ، كما يتحقق به تحققا كاملا سكون كل منهما إلى صاحبه ، فإن الأنثى على هذا الفهم تكون جزءا من الذكر ، والجزء دائب الحنين إلى الكل ، والكل دائب السعى وراء الجزء ،

ولا يتأتى هذا المعنى فى خلق حواء من الأرض كما خلق آدم منها ، فإن الأمر لو كان كذلك ، لكانت المرأة شيئا قائما بذاته ، مخلوقة من الأرض خلقة الرجل ، وبهذا يفوت معنى التلازم الذى أشرنا إليه .

وليس يخفى أن عاقلا لا يستطيع أن يقول إن كل أنثى خلقت من ضلع ذكر ، فذلك ما تنقضه المشاهدة ، وإنما الذى نريد أن نقوله ، أن هذا المعنى الذى أشرنا إليه قد أُلقِىَ فى وجدان ذرية آدم وحواء ، يتوارثه الأخلاف عن الأسلاف ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وثالث تلك المواطن ، ما يرويه شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى من أن الشيطان كان قد وسوس إلى حواء فى الشجرة حتى أتى بها إليها ، ثم حسنها فى عين آدم ، فدعاها آدم لحاجته ، فقالت حواء : لا إلا أن تأتى ها هنا . فلما أتى قالت حواء : لا إلا أن تأكل من هذه الشجرة . فأكل منها . وربما دعا إلى مزيد من التلبث بهذا الموطن ما رواه ابن جرير عن بعض السلف من أنه كان يحلف بالله ما يستثنى أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سَكِرَ قادته إليها فأكل .

ورابع هذه المواطن ، تَرَتُّبُ انكشاف العورة على ذوق الشجرة مع التعبير عن العورة بالسوأة ، إشارة إلى أن ذلك قد ساءهما ، وذلك فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة « الأعراف » :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ (سورة الأعراف ٢٢)

وكذلك قوله ـ سبحانه ـ فى سورة « طه » :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ ﴾ (سورة طه ١٢١)

يعنى لكى يسترا ما ساءهما من انكشاف العورة ، وذلك مع أنهما لم يدركا قبل ذلك ضرورة ستر عوراتهما . والمتأمل لا يملك هنا أن يمر بهذا الترتيب دون أن يسأل نفسه : لماذا ساء الأبوين أن تنكشف سوآتهما بعد ذوق الشجرة والأكل منها ، ولم يسؤهما ذلك قبل الذوق والأكل ؟ .

فإذا أعطى الناظر هذه المواطن حقها من التأمل ، وتمثل أبوينا محتاجا كلٌّ منهما إلى صاحبه حاجة أُنس وسكون ، ثم تمثل أبوينا وقد طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليسترا بذلك ما ظهر لهما من سوآتهما ، لم يستشعر حرجا ـ يجحد به حقا أو ينصر به باطلا ـ إذا اعتبر الشجرة تجوزا عن الشهوة التي هي قوام الحياة الانسانية وجودا وخلودا .

وربما زكى هذا الذي تذهب إليه من التجوز عن الشهوة بالشجرة ، أن نتأمل قول الله ـ تعالى ـ لملائكته : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (سورة البقرة ٣٠) فإن الخلافة في الأرض لا تتم بوجود آدم وحواء وحدهما غير متناسلين ، والتناسل وليد الإختلاط استجابة للغريزة وعن هذه الإستجابة ينشأ النسل وينمو ثم يتوالد ويتكاثر ، فتضيق الجنة التي أسكنها آدم وحواء على ذريتهما ، ولا تكون لهم مندوحة عن أن ينتشروا في أرجاء الدنيا ليتحقق معنى الخلافة في الأرض ، التي أرادها الله ـ تعالى ـ من خلق الانسان .

وليس يستعصي على أهل اللغة التجوز عن الشهوة بالشجر ، من حيث كانت الشجرة تعطي الثمار وتخلّد النوع ، وكانت الشهوة الانسانية كذلك تعطي النسل وتخلد النوع ، فصورة الشجرة في إعطائها الثمار واستبقائها النوع ، أشبه ما تكون بصورة الشهوة التي ينشأ عنها النسل ويخلد بها نوع الانسان .

وربما أعان على استساغة هذا التجوز ، ما يستحضره المتأمل لكتاب الله وهو يقرأ من سورة « الأعراف » قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

ثم وهو يقرأ من سورة « الأعراف » قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم وهو يقرأ من سورة « طه » قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ
لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا
وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا
مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (سورة طه)

ووجه المعونة من ذلك أن آدم كان يعيش عيشا رغيدا هنيئا لا تعب فيه ولا عناء ، لا يتعرض فيه لذل الباطن وهو الجوع ، كما لايتعرض فيه لذل الظاهر وهو العرى ، ولا يجد فيه قسوة الظمأ ولا حر الشمس ، فلما اقترف ما نهاه الله عنه ، وكان من شأن هذا الإقتراف أن يكثر به نسله وأن تضيق به الجنة عليه ، ظلم بذلك نفسه ففارق الجنة فى عيشها الرغيد إلى الأرض الواسعة التى يكد فيها ويكدح ، ويتعرض فيها لحر الشمس وجهد الظمأ وذل الباطن من الجوع ، وذلك الظاهر من العرى كما يقول المفسرون .

وفى هذا المعنى يقول صاحب مفاتيح الغيب فى تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ (سورة طه)

ما نصه :

والعَجب ما روى عن أبى أمامة الباهلى ، قال : لو أن أحلام بنى آدم إلى قيام الساعة وضعت فى كفة ، ووضع حلم آدم فى الأخرى ، لرجح حلمه بأحلامهم ، ولكن المكادحة مع قضاء الله ممتنعة .

واعلم أن واقعة آدم عجيبة ، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله :

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ (سورة طه)

وإبليس رغبه أيضا فى دوام الراحة بقوله : « **هل أدلك على شجرة الخلد** » (سورة طه ١٢٠)

وفى انتظام المعيشة بقوله : « **وملك لا يبلى** » (سورة طه ١٢٠)

فكان الشىء الذى رغب الله آدم فيه ، هو الذى رغبه إبليس فيه ، إلا أن الله ـ تعالى ـ وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة ، وإبليس وقفه على الإقدام عليها . ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله ، وعلمه بأن الله ـ تعالى ـ مولاه وناصره ومربيه ، وقد أعلنه بأن إبليس عدوه حيث امتنع عن السجود له وعرض نفسه للفتنة بسبب عداوته ، كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له ، وأعرض عن قول الله ـ تعالى ـ مع علمه أنه هو المربى والناصر ؟

إن من تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وإن كان فى غاية الظهور ونهاية القوة ، فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله ـ تعالى ـ ذلك وقدره . هذا ما قاله صاحب المفاتيح .

ثم إن المراد من الظلم فى الآيات التى ذكرت قصة آدم ، هو ظلم آدم نفسه وزوجه ، ولن يقول غير مقول أو يعقل غير معقول من يتأمل قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة طه)

نقول ليس مبعدا فى الفهم من يستعين على تأكيد التجوز عن المرأة بالشجرة من طريق هذه الآية ، فالخلد لا يعنى أن آدم يظل ما بقيت الدنيا ، وإنما يمكن أن يفهم

على أنه خلود النوع ، والإنسان يرى فى بنيه وذريته إمتدادا لحياته وبقاء من بقائه وكذلك قوله ـ تعالى ـ : « **وملك لا يبلى** » ، فإن ملك الذرية ملك لأبيها ، والخلفاء فى الأرض من أبناء آدم هم ممتلكوها وباسطوا سلطانهم عليها ؛ ومتصرفون فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، فهو ملك لا يبلى .

ولغتنا العربية الشريفة لا تأبى هذه الصورة من التجوز عن المرأة بالشجرة ، وهى اللغة التى يرى الإنسان فيها العجب العاجب فى مجازاتها واستعاراتها وكناياتها ، فهذا ابن أبى الاصبع صاحب (تحرير التحبير) يقول فى باب الكناية : ومن نخوة العرب وغيرتهم كناياتهم عن حرائر النساء بالبيض كما قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدرٍ لا يُرام خباؤها تمتعت من لهو بها غيرَ مُعَجلِ

ومن مليح الكناية قول الأحوص :

ألا يا نخلةً من ذات عرقٍ عليك ورحمةُ الله السلامُ
سألت الناس عنك فخبرونى هنا مَن ذاك تكرهه الكرامُ
وليس بما أحل الله عيب إذا هو لم يخالطه الحرامُ

فإن هذا الشاعر كنى عن المرأة بالنخلة ، وبالهناة عن الرفث . فأما الهناة فمن عادة العرب الكناية بها عن مثل ذلك .

وفى لسان العرب ، يقول ابن منظور راويا عن الأزهرى : إن العرب تكنى عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء ، ومنه قول الشاعر :

يا سرحة الماء قد سُدَّت موارده أما إليك طريقٌ غير مسدودِ
لحائمٍ حام حتى لا حراك به مُحَّلأٍ عن طريق الورد مردود

يقول إن كلمة « محلأ » تعنى أنه مبعَد ممنوع ، وقد كنى بالسرحة النابتة على الماء عن المرأة ، لأنها حينئذ أحسن ما تكون .

وفى كتاب الله ـ تعالى ـ صور من التجوز يقف أرباب الذوق البلاغى حيالها خاشعين مما يتراءَونه فيها من فرط الدقة وجمال البيان ، فذلك حيث يقول تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً
مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ

بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ (سورة النحل)

يقول صاحب مفاتيح الغيب : إن ابن الراوندى سأل ابن الأعرابى : هل يذاق اللباس ؟ . فقال له ابن الأعرابى : لا بأس ، ولا لباس ، يا أيها النسناس ، هَبْكَ تشك أن محمدا ما كان نبيا ، أفما كان عربيا ؟ .

وظاهر أن مقصود ابن الراوندى : لم يكن إلا الطعن فى هذه الآية ، من حيث كانت بلاده طبعه لم تعنه على فهم هذا اللون من التجوز الدقيق ، فكان يرى أن يقال : فكساهم الله لباس الجوع ، أو يقال : فأذاقهم الله طعم الجوع .

فهذه اللغة الشريفة فى اتساعها العجيب فى ألوان التجوز ، لا تستعصى على الذين حذقوا أساليبها وذاقوا بيانها أن يسيغوا التجوز عن الشهوة بالشجرة فى هذه الآية من كتاب الله ، فهو تجوز سائغ لا يأباه لسان العرب ولا يضيق به أسلوب القرآن .

وهذا الرأى على كل حال إنما نذكره لنفتح به بابا إلى التأمل والبحث والدراسة والنظر ، غير متشبثين به ولا راكبين متن العناد إليه ، فإنما نريد به وجه الله عز وجل ، وتيسير السبيل إلى فهم كتابه الكريم ، فإن كان صحيحا فمن فضل الله وتوفيقه ، والحمد لله سبحانه والثناء عليه ، وإن كان غير ذلك ، فإننا نستغفر الله ونتوب إليه ، وهو المأمول لكل خير ، وهو الرؤوف الرحيم .

الناسخ والمنسوخ

(٨)

تفسير قوله تعالى : -

﴿ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فالنسخ ، هو إزالة الصورة عن الشيء واثباتها فى غيره . تقول : نسخت الشمس الظل ، تريد أنها أزالته . وكذلك تقول : نسخ الحكم الحكم ، إذا ازاله به . وكلمة « ننسها » تعنى أننا نجعلها تُنسى .

وجملة القول فى هذه الآية ، أن النسخ له معنيان مختلفان : بحسب عرف السلف وعرف علماء الأصول .

فالنسخ فى عرف السلف ، يعنى رفع دلالة الظاهر بتقييد المطلق ، أو تخصيص العام ، أو تبيين المبهم ، حتى إنهم ليعتبرون الاستثناء والشرط والصفة نسخا ، لتضمّن ذلك رفع دلالة الظاهر . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾

(سورة الاسراء ١٨)

فقد ذكر ابن عباس أن هذه الآية ناسخة للآية الأخرى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ (سورة الشورى ٢٠)

فهذا عن التحقيق ليس نسخا ولكنه تقييد للمطلق . ومن أمثلة ذلك أيضا قوله - تعالى - :

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

فقد رأوا أن فى ذلك نسخا بقوله - تعالى - :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(سورة الشعراء ٢٢٧)

فهو تخصيص للعموم .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله - تعالى - :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

فقد ذكر الأسلاف أن هذه الآية منسوخة بقوله - سبحانه - : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ . وهذا ليس نسخا ولكنه بيان للابهام فى قول الله - تعالى - :

﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (سورة الأنفال)

هذا ما يراد بالنسخ فى عرف السلف ، وهو آيات كثيرة فى الكتاب العزيز ، وأما النسخ عند علماء الأصول ، فإنه لا يتجاوز آيات معدودات فى الكتاب الكريم .

وأولى هذه الآيات : قوله ـ تعالى ـ :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية منسوخة بالكتاب والسنة ، فأما الكتاب فقول الله ـ تعالى ـ فى سورة « النساء » :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (سورة النساء ١١)

وأما السنة ؛ فقول رسول الله ﷺ : « لا وصية لوارث » . ولكن من أهل العلم من يرى أن الآية محكمة وليست منسوخة ، فهذه الآية توجب الوصية ـ فى رأى هؤلاء الأعلام ـ للوالدين والأقربين ، لتدارك الخطأ الذى كان يواقعه المسلمون فى أول الإسلام ، إذا كانوا يوصون للأباعد طلبا للفخر والشرف ، ويتركون الأقارب فى الفقر والمسكنة وكأنهم بهذا التصرف الغريب ، يرون الأقربين مضمونا ولاؤهم بحكم القرابة ، فيريدون أن يضموا إلى هذا الولاء القائم على العصبية ، ولاء آخر قائما على كسب قلوب الأجانب من طريق بذل المال ، ايثارا لطلب الذكر وبُعد الصيت . وأنت لا ترتاب فى أن تلك السنة ـ على سوئها ـ ماضية فى الناس حتى يوم الناس هذا ، فاننا نرى كثيرا من الناس يصطنعون الأبعدين فيطعمونهم من جوع ، ثم يتركون أقرباءهم جياعا ، وليس لذلك من سبب معقول أو مقبول سوى أنهم أمنوا جانب الأقرباء ، وأرادوا أن يظفروا ـ مع ذلك ـ بثناء الأبعدين . وما أكثر ما فقد هؤلاء بهذا التصرف الغريب ولاء الأقربين والأبعدين جميعا .

وربما ساقنا ذلك إلى أن نروى فى هذا المقام كلمة قالها أموى كبير وقد سأله سائل : ما الذى ذهب بدولتكم وأظفر بكم بنى العباس ؟ . فقال ذلك الأموى الحكيم : كنا ندنى ذوى البُعدى تألفا لهم ، ونقصى ذوى القربى ثقة بهم ، فلا نحن ظفرنا بولاء الأعداء ، ولا احتفظنا بثقة الأقرباء ، فزالت دولتنا .

فكذلك كان المسلمون فى أوائل الاسلام يوصون للأبعدين طلبا للشرف والفخر ، ويتركون الأقربين يعانون المسكنة والفقر ، فأوجب الله تعالى فى أول الإسلام الوصية لهؤلاء ، منعا للقوم عما كانوا قد إعتادوه من سوء التصرف .

والآية الثانية : قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فالتقدير فيها ليقرب إلى الأذهان معناها : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا فليوصوا لهن وصية وليمتعوهن متعا ، مقيمات غير مخرجات .

وجمهور المفسرين على أنها منسوخة ، وهم يقولون إن الأمر فى إبتداء الإسلام ، كان على أن الرجل إذا مات لم يكن لامرأته من ميراثه شىء إلا النفقة والسكنى مدة سنة . وكان الحول عزيمة عليها فى الصبر عن التزوج ، ولكنها كانت مخيرة فى أن تعتد فى بيت الزوج إن شاءت ، وإن شاءت خرجت قبل الحول ، ولكنها متى خرجت سقطت نفقتها .

وبهذا يظهر أن الآية الكريمة توجب أمرين : أحدهما ، وجوب النفقة والسكنى من مال الزوج مدة سنة . وثانيهما ، وجوب الاعتداد مدة سنة لأن وجوب السكنى والنفقة من مال البيت سنة ، توجب المنع من التزوج بزوج آخر فى هذه السنة .

قال الجمهور : ثم إن الله ـ تعالى ـ نسخ هذين الحكمين ، أعنى الوصية بالنفقة والوصية بالسكنى ، وذلك لأن القرآن دل على ثبوت الميراث لها ، ولأن السنة دلت على أنه لا وصية لوارث ، فصار الأمران أعنى القرآن والسنة جميعا ناسخين للوصية بالنفقة والسكنى للزوجة فى الحول .

وأما العدة بالحول فهى منسوخة بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ ﴾ (سورة البقرة ٢٣٤)

كذلك يقول أكثر المتقدمين والمتأخرين من المفسرين .

هذا ، ويقول مجاهد ـ وهو من أعيان المفسرين ـ فى صدد هذه الآية : إن الله ـ تعالى ـ أنزل فى عدة المتوفى عنها زوجها آيتين ، إحداهما قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والآية الأخرى هى هذه الآية :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

يقول مجاهد : إن الزوجة إذا لم تختر السكنى فى دار زوجها ولم تأخذ النفقة من ماله ، فإن عدتها أربعة أشهر وعشر ، على ما تقرره الآية المتقدمة . وأما إذا أختارت السكنى فى دار زوجها والأخذ من ماله وتركته ، فإن عدتها هى الحول ، وتنزيل الآيتين على هذين التقديرين أولى ، حتى تكون كل آية منهما معمولا بها . والإعمال أولى من التعطيل .

والذين يطيب لهم أن ينزهوا كتاب الله عن النسخ ، يتلقون رأى مجاهد هذا بإرتياح عظيم .

وإذا كان رأى مجاهد بهذه المنزلة من نفوس المسلمين الذين يؤثرون عدم النسخ فى القرآن العظيم ، فإنهم أشد إرتياحا وأبين سعادة أو ينبغى أن يكونوا كذلك حين يستعرضون رأى الإمام الجليل أبى مسلم الأصفهانى فى هذه الآية ، فإنه ـ رحمه الله ـ قد بسط القول فيها ونأى بها عن النسخ نأيا شديدا ، فقال ـ رحمه الله ـ : إن معنى الآية ، إن الذين يتوفون ويذرون أزواجا وقد وصوا وصية لأزواجهم بنفقة الحول ومسكن الحول ، فإن خرجن قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التى ضربها الله ـ تعالى ـ لهن ، فلا حرج فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ـ يعنى الزواج

الصحيح ـ لأن اقامتهن بهذه الوصية غير لازمة ، وسبب ذلك أنهم كانوا فى زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولا كاملا ، وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول ، فيبين الله ـ تعالى ـ فى هذه الآية أن ذلك غير واجب ، وعلى هذا التقدير فالنسخ زائل .

ويحتج الإمام لرأيه هذا بوجهين :

أحدهما : أن النسخ خلاف الأصل ، فوجب المصير إلى عدمه بقدر الإمكان .

وثانيهما : أن يكون الناسخ متأخرا عن المنسوخ فى النزول ، وإذا كان متأخرا عنه فى النزول كان الأحسن أن يكون متأخرا عنه فى التلاوة أيضا ، لأن هذا الترتيب أحسن. فأما تقدم الناسخ على المنسوخ فى التلاوة ، فإنه ـ مع جوازه فى الجملة ـ معدود من سوء الترتيب ، ويجب تنزيه كلام الله عنه . . ولما كانت هذه الآية :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً ﴾ (سورة البقرة ٢٤٠)

متأخرة فى التلاوة عن الآية الأخرى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ (سورة البقرة ٢٣٤)

كان الأولى ألا يحكم بكونها منسوخة بتلك . هذا وقد ثبت فى علم أصول الفقه أنه متى وقع التعارض بين النسخ وبين التخصيص ، فإن التخصيص يكون أولى . فإن نحن خصصنا هاتين الآيتين بالحالتين على ما هو قول مجاهد ، فإن النسخ يندفع ، ويكون المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ بغير دليل .

على أن الأمر فى قول أبى مسلم أوضح وأظهر ، وذلك أن فى الآية تقديرا لابد منه لكى تفهم ، والتقدير عند غير أبى مسلم (فعليهم وصية لأزواجهم ، أو فليوصوا وصية لأزواجهم) وبهذا يضيف أهل هذا التقدير الحكم إلى الله ـ تعالى ـ فأما أبو مسلم فإنه يقدر تقديرا آخر هو (والذين يتوفون منكم ولهم وصية لأزواجهم ، أو وقد أوصوا وصية لأزواجهم) فهو يضيف هذا الكلام إلى الزوج . وإذا كان لابد من الاضمار ، فليس إضمار غير أبى مسلم أولى من إضمار أبى مسلم ، بل ان إضمار أبى مسلم أخلق بالواقع وأدنى إلى الفهم .

والآية الثالثة :

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فإن أهل الرواية يقولون : لما أنزلت هذه الآية على رسول الله ـ ﷺ ـ إشتد ذلك على أصحابه ، فأتوه ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أى رسول الله ، كُلفِّنا من الأعمال ما نطيق ، الصلاة والصوم والجهاد ، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ، وإنا لا نطيقها . فقال رسول الله ـ ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا : سمعنا وأطعنا » . فقالوا : سمعنا وأطعنا . فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله فى أثرها :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فلما فعلوا ذلك نسخها فأنزل سبحانه :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (سورة البقرة)

قال الشيخ القرطبى ـ رحمه الله ـ : ولما تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا مدحهم الله وأثنى عليهم فى هذه الآية ، ورفع المشقة فى أمر الخواطر عنهم ، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى .

فالآية على هذا منسوخة ، وهو ما يقول به ابن عباس وابن مسعود وعائشة والشعبى وعطاء وابن سيرين وجماعة من الصحابة والتابعين .

وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة والشعبى ومجاهد أنها محكمة مخصوصة ، وهى فى معنى الشهادة التى نهى عن كتمها فى آية سبقتها ، هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (سورة البقرة ٢٨٣)

ومما يدعو إلى الحيرة ويثير الدهشة ، أن يروى الرواة عن ابن عباس الرأى وضده ، كما فى هذا الموطن ، وكما فى مواطن أخر كثيرة .

وخلاصة ما قيل فى هذه الآية يتضمن أمرين :

أحدهما : أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فهموا منها أنهم محاسبون على خواطرهم ، التى لا حيلة لهم فيها ولاسلطان لهم عليها ، فتكليفهم منازعتها والتغلب عليها ، تكليف مالا يطاق ، ولهذا مضوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وبركوا على الركب ، مشفقين على أنفسهم من العجز عن القيام بما تكلفهم به الآية وتلزمهم إياه . وقد أوضح لهم النبى سبيل الظفر برحمة الله فى الخضوع لأمره ـ تعالى ـ وإعلان السمع والطاعة له ، وحين أخذوا بتوجيهه ـ عليه السلام ـ وسلكوا السبيل التى أرشدهم اليها ، أدركهم لطف ربهم وحفت بهم رحمته ، فدفع ـ تعالى ـ عنهم المشقة وأزاح عن صدورهم آصار الحرج ، فأنزل قوله :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا ﴾ (سورة البقرة ٢٨٦)

والخواطر التى تراود النفوس وتخالج الصدور مما لايتحكم فيه الإنسان ، ولا يقدر على جلبه أبيا ولا دفعه أتيا . ومن أجل ذلك نرى أهل العلم حين يتعرضون للحديث عن الخواطر ، يتجهون بالأمر والنهى إلى مقدماتها أو إلى نتائجها ، ولا يتجهون بذلك إليها فى أنفسها ، وذلك فى مثل شرحهم للحديث الشريف ، الذى يقول فيه الرسول ﷺ لأحد أصحابه وقد أستوصاه : « لا تغضب ، لا تغضب ،

لا تغضب » ، فقد قال أهل العلم : إن الغضب أمر لا يملكه الإنسان ، فالنهى لا يتجه إليه فى نفسه ، وهذا ما لم يرده ـ ﷺ ـ وانما أراد أن ينهى صاحبه عن مباشرة الأسباب التى تقضى به إلى الغضب ، أو الأخذ بالنتائج التى تنشأ عن الغضب . ولا شك أن الإنسان قادر على تجنب أسباب الغضب ، وعلى تجنب النتائج التى يفضى إليها .

وثانى الأمرين : أن الآية تشير إلى حكم تضمنته الآية التى سبقتها ، وهو كتمان الشهادة ، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس ومن تابعه . وعليه فالآية محكمة غير منسوخة .

والذى تطمئن إليه النفس وترتاح إلى الأخذ به ، أن الآية غير منسوخة ، وأنها غير مقصورة على الخواطر ، ولا على كتمان الشهادة ، بل أنها أبعد من ذلك مدى وأرحب أفقا . وذلك أننا إذا لاحظنا أنفسنا ونحن نأتى عملا ، فإننا ندرك أن العمل الاختيارى يبدأ فى صدورنا أول ما يبدأ تصورا ، ثم يستحيل عزما ثم يبرز سلوكا ظاهرا أو خفيا ، لا فرق فى ذلك بين أعمال القلوب كالإيمان والكفر ، وبين أعمال الجوارح كإفتراء الكذب أو بذل المعروف .

فلكل عمل بالنسبة لعامله منطقتان ، إحداهما داخل حدود نفسه ، والأخرى خارج هذه الحدود . . فإذا إعتزم الإنسان أن يعتنق الإيمان بدين أو رأى أو مذهب ، كشف عن هذا الإيمان بأعمال وتصرفات تدل عليه وتشير إليه ، أو كتمه فلم يقم عليه دليلا ، كما يقول ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾

(سورة غافر ٢٨)

وإذا أراد إنسان أن يؤذى آخر ، أخرج إرادته هذه فى صورة واضحة حينا ، وخفية حينا . كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة إشارة تنظيم الأمرين :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ
إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾

(سورة الحجرات ١٢)

وإذا أراد الإنسان أن يبذل من ماله لذى عسرة ، ابدى إرادته هذه فى معونة سافرة ظاهرة ، أو خفية محجبة ، كما تقر ذلك فى وضوح الآية الكريمة :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(سورة البقرة ٢٧١)

وكما فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله . . ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

فهذه الصور من الأعمال تنشأ أول ما تنشأ فى النفس ، ثم تأخذ طريقها إلى مجال الحس ظاهرة فى وضوح أو مستترة فى خفاء ، وهى فى صورتيها هاتين من الأمور المقدور عليها ، التى يستطيع المؤمن أن يتحكم فيها ، مثلها فى ذلك مثل سائر الأعمال المقدورة للمكلفين والخاضعة لحساب الله عز وجل . ثم الله ـ تعالى ـ بعد ذلك غافر لمن أخلص النية فشاء له الغفران ، ومعذب من قصد إلى الرياء والسمعة فشاء له العذاب ، إلا أن يتفضل ـ تعالى ـ بالعفو والرحمة ، والذى له ما فى السماوات والأرض ، له تمام الملك ، والذى يعلم ما خفى من تصرفات الناس وما ظهر ، له تمام العلم ، والذى يغفر حين يريد الغفران ويعذب حين يريد التعذيب ، له تمام القدرة . وليس ذلك ولا شىء منه لأحد من خلق الله ، ولكنه كله لله رب العالمين ، وحده لا شريك له .

والآية الرابعة :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ (سورة النساء)

فإن الله ـ جل ثناؤه ـ يعنى أن من لم يستحق شيئا إرثا ، وكان من الأقارب أو اليتامى أو المساكين الذين لا يرثون ، فإن من حقهم أن يكرموا وألا يحرموا إذا كان المال كثيرا ، فإن كان قليلا لا يقبل الرضخ[1] ، أو كان عقارا ، فإن الواجب فى هذه الحال الإعتذار اليهم وقول المعروف لهم ، حرصا على مروءتهم ورعاية لمشاعرهم . فإن اعطى الورثة من هذا القليل شيئا فإن فى هذا العطاء خيرا كثيرا ، وأجرا عظيما ، وربما سبق درهم مائة ألف درهم إلى مرضاة الله عز وجل .

(١) الرضخ : العطاء القليل .

وها هنا أسئلة تقتضى الإجابة عنها :

أولها : إلى من يتجه الخطاب فى الآية ؟ .

وثانيها : هل هذا العطاء واجب ، أو هو مندوب إليه ؟ .

وثالثها : هل الآية محكمة أو منسوخة ؟ .

أما عن اتجاه الخطاب فى الآية ، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنه متجه إلى المورث الذى حضرته الوفاة وأراد الوصية ، أمره الله ـ تعالى ـ أن يوصى لمن لم يرثه من المذكورين بشىء من ماله .

وذهب آخرون إلى أن الخطاب متجه إلى جماعة الوارثين ، أمرهم الله ـ تعالى ـ أن يرزقوا المذكورين فى الآية إذا لم يكن لهم سهم فى الميراث .

وذهب فريق ثالث إلى أن المخاطب هم أولياء الورثة الصغار ، أمروا أن يقولوا للمذكورين : إن هذا المال ليتامى صغار ، وليس لكم فيه حق ، وليس نملك أن نعطيكم منه شيئا .

فأما الحكم فى العطاء فهو أنه مندوب ، وفيه يقول الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ : كان المؤمنون يفعلون ذلك ؛ إذا اجتمع الورثة حضرهم هؤلاء المذكورون ، فرضخوا لهم بالشىء من ورثة المتاع ، فحضهم الله على ذلك تأديبا من غير أن يكون فريضة ، ولو كان فريضة لضرب له حد ومقدار ، كما لغيره من الحقوق .

وقد كان عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه ـ وعائشة رضى الله عنها على قيد الحياة ـ فلم يدع عبد الله أحدا فى الدار إلا أعطاه من ميراث أبيه ، ثم قرأ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ (سورة النساء ٨)

ويقول آخرون : إن الأمر فى الآية على الوجوب ، وليس على الندب . ولم يذكروا لذلك حجة ، إكتفاء بالقاعدة الأصولية القائمة على أن الأمر للوجوب ما لم يصرف عن ذلك صارف .

والمراد بالقول « المعروف » هو أن يلطفوا لهم القول ، مثل أن يقولوا : خذوا بارك الله عليكم . ثم يعتذروا إليهم ، ويستقلوا ما أعطوهم ، ولا يستكثروا ولا يمنوا .

وفى معنى الرفق بهؤلاء يقول الحسن والنخعى ـ رحمهما الله ـ : أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى الذهب والورق ، فإذا صارت القسمة إلى الأرضين وما أشبه ذلك قالوا لهم قولا معروفا ، فكانوا يقولون لهم : بورك فيكم .

ولا نشك فى أن هذا الأدب الذى إلتزمه المسلمون الأولون من غاية الرفق بالفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، إنما كانوا يصدرون فيه عن أدب الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين فيما أنزل الله من كتاب ، وفيما قال رسول الله ـ ﷺ ـ من حيث إيثارا للبر وحرصا على التكريم ، وتجنبا لما يؤذى المشاعر ويجرح النفوس .

وأما عن النسخ فى الآية ، فقد روى ناس عن ابن عباس أنها منسوخة ، وروى آخرون عنه أيضا أنها محكمة غير منسوخة .

ومما يدعو إلى أشد العجب أن يكون ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مصدرا لروايتين متناقضتين أشد التناقض . ومن شأن ذلك أن يدعو الحرصاء على تحرى الحقائق ، والغيارى على دين الله إلى إطالة التأمل فيما يروى عن الأسلاف مما يتصل بكتاب الله حتى يخرج المسلم من ذلك بما هو أشبه بالحق وأقرب إلى الصواب .

والرأى الخليق بالاطمئنان إليه والأخذ به ، أن الآية غير منسوخة ، من حيث كان القائلون بذلك أكثر عددا وأقوى سندا ، ومن ورائهم إمام الأئمة محمد الباقر ، رضى الله عنه وعنا به .

وأهل العلم يروون عن سعيد بن جبير قوله : « إن ناسا يقولون نسخت هذه الآية والله ما نسخت ، ولكنها مما تهاون به الناس » .

ويزيد المؤمن اطمئنانا إلى القول بعدم نسخها ما رواه القرطبى عن يحيى بن يعمر من قوله : ثلاث آيات محكمات تركهن الناس ، هذه الآية :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ (سورة النساء)

وآية ثانية فى سورة « النور » : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ

ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ
تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ
ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ
طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ (سورة النور)

فقد أمر الله ـ تعالى ـ في هذه الآية أن يستأذن الصغار والخدم والمماليك فى غشيان المخادع والحجرات ، التى يترخص الناس عادة فيها بإطراح الحشمة والتحرر من القيود . وليس يخفى أن هذه الأوقات الثلاثة ـ قبل صلاة الفجر وعند القيلولة وبعد صلاة العشاء ـ هى الأوقات التى يأوى فيها الناس إلى مخادعهم ، ويطرحون الاحتشام فى خلواتهم فإنما كان الأمر بالاستئذان من أجل الحرص على مظاهر الوقار ، حتى ينشأ الناشئون فى المجتمع الإسلامى على إلتزام هذه الآداب العامة ، إلتزاما يطبعهم على الإحتشام ورعاية الحرمات .

والآية الثالثة من الآيات التى تهاون بها الناس ـ فيما يروى قتادة عن يحيى بن يعمر ـ هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الحجرات)

فقد نزلت هذه الآية فى شأن رجل يدعى « أبا هند » ، ولم يكن من السادة بل كان من الموالى ، وحديثه ذكره أبو داود فى المراسيل عن الزهرى ، قال : أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند إمرأة منهم ، فقالوا لرسول الله : أفترانا نزوج بناتنا موالينا ؟ .

فأنزل الله ـ عز وجل ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (سورة الحجرات)

وقيل : نزلت فى ثابت بن قيس بن شَمّاس وكان فى مجلس رسول الله ـ ﷺ ـ فجاء رجل ليجلس فى مجلس النبى ، وقيل لثابت هذا : تفسح لأخيك حتى يجلس . فقال فى عنجهية الجاهلية : أفترونى أتفسح لابن فلانة ؟ . فلما سمع النبى ذلك منه ، قال : « من الذاكر فلانة ؟ » . فقال ثابت : أنا يا رسول الله . فقال : فقال النبى : « يا ثابت ، أنظر فى وجوه القوم » . فنظر ، فقال النبى له : « ماذا ترى من وجوه ؟ » . فقال ثابت : رأيت أبيض وأسود وأحمر . فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : « فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى » . ثم تلا عليه وعليهم فى مجلسه الشريف :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(سورة المجادلة ١١)

وقال ابن عباس فى سبب نزول الآية : لما كان يوم فتح مكة ، أمر النبى ـ ﷺ ـ بلالا حتى علا ظهر الكعبة فأذن . فقال عتّاب بن أسيد من سادات العرب : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام من سادات العرب : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ؟ . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره . وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئا ، أخاف أن يخبر به محمد .

ثم دعاهم رسول الله ﷺ جميعا وسألهم عما قالوا فأقروا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية ، تزجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والإزدراء بالفقراء وتذكر لهم أن المدار على التقوى ، وأن الجميع من آدم وحواء ، وأن التفاضل بين الناس ليس إلا بتقوى الله عز وجل .

وفى معنى الآية خطب النبى ـ ﷺ ـ فقال : « أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها . الناس رجلان : بر كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس لآدم ، وآدم من تراب » ، ثم تلا قول الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وحيال هذه الآية لا نرى مندوحة عن التنبيه إلى أمرين :

الأمر الأول : قول القائل : إن هذه الآيات الثلاث مما تهاون به الناس ، فهذا القول لا يعنى أنهم كانوا يرون هذه الآيات شيئا هينا ، يستخفون بحقه استخفافا يستوجب الإعراض عنه ، فلو قد كان ذلك كذلك لخرج هؤلاء من الإسلام ، لأنهم استخفوا بأحكام الله وشرائعه ، وكل من استخف بشرائع الله وأحكامه يخرج من الإسلام .

وإنما يعنى أسلافنا بهذه الجملة أن الناس كانوا يرونها شديدة المشقة على نفوسهم لمنافرة طبائعهم لأحكامها ، فكانوا لذلك ينظرون إليها فى آفاق المثل العليا ، والمثل العليا للمسلم مندوحة عن القيام بحقها كاملا ، فله أن يترخص فيها شيئا ، ودليل ذلك قصة حدثت فى صدر الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ وفيها إشارة إلى الأعاصير التى كان يمكن أن تعصف بالجماعة الإسلامية الناشئة ، لولا القوة النفسية الكبيرة لرسول الله ، ولولا حكمته البالغة فى أخذ الناس بالتربية القائمة على المنطق والإقناع على أصول راسخة ثابتة .

فقد روى الثقات من المؤرخين أن سلمان الفارسى خطب إلى عمر ابنته ، وأن عمر رضيه صهرا له ؛ فلما علم ابنه عبد الملك بذلك شق عليه الأمر وضاق به صدره ، حتى عرف الناس ذلك فى وجهه ، فسأله عمرو بن العاص ماذا به ، ولما أخبره الخبر قال له : هون عليك ، وإنى بما أهمك لكفيل . وراح داهية العرب ـ رحمه الله ـ يفكر كيف يخرج عبد الله من هذا الضيق ، وينفى عنه هذا الحرج . وذات يوم أقبل على مجلس فيه سلمان ، وقد تخلق من حوله المسلمون عرفانا لسابقته وقضاء لحقه من الحب والإحترام ، فتقدم عمرو يقول له ـ وقد ربت كتفه ـ : يا سلمان أبشر فقد تواضع أمير المؤمنين فزوجك . فالتفت إليه سلمان مغضبا وقال : أبى يتواضع أمير المؤمنين ؟ . والله لا أتزوجها أبدا .

ولا يرتاب أحد فى أن عَمرا بعد أن سمع هذه الكلمة من سلمان ، انصرف

راضيا عن نفسه بما قدم لعبد الله بن عمر من صنيع ، واتخذ عنده من يد ، وأزال عنه ما كان يؤرق ليله ويجهد نهاره .

والأمر الثانى : أن تعدد أسباب نزول هذه الآية ـ فيما رواه الرواة عن السلف ـ جعل بعض العلماء يذهبون إلى القول بأن الآية نزلت عدة مرات ، ولا مانع عند بعضهم من نزول الآية مرة أو مرتين أو مرات حسب مقتضى الأحوال . وهذا المذهب فيما يبدو لا يسهل الأخذ به والانقياد إليه . ولابد للنفس أن تتلفت إلى مذهب أيسر قبولا وأقوى حجة وأوضح محجة ، وهو ما ذكره الإمام الهلوى ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

إن معرفة أسباب النزول من المواضع الصعبة ، ووجه الصعوبة فيها إختلاف المتقدمين والمتأخرين حولها . والذى يظهر من إستقراء كلام الصحابة والتابعين ، أنهم لا يستعملون كلمة « نزلت الآية فى كذا » لمحض قصة كانت فى زمنه ـ ﷺ ـ بل ربما ذكروا بعض ما صدقت عليه الآية مما كان فى زمنه أو بعد زمنه ، عليه الصلاة والسلام . وهم يقولون : نزلت فى كذا ، ولا يلزم هناك إنطباق جميع القيود ، بل يكفى إنطباق أصل الحكم فقط .

وقد يذكرون حادثة تحققت فى تلك الأيام المباركة ، واستنبط النبى حكمها من آية قرأها فى ذلك الباب ، فتراهم يقولون ـ بعد ذلك ـ : إن الآية نزلت فى كذا وربما قالوا : فأنزل الله قوله كذا . فكأنه إشارة إلى أنه استنباطه عليه الصلاة والسلام .

وإلقاء الآية تلك الساعة فى خاطره المبارك نوع من الوحى ، ولذلك أمكن أن يقال : أنزلت الآية .

ويمكن أن يعبر فى هذه الصورة بتكرار النزول . . . والمحدثون يذكرون فى ذيل آيات القرآن كثيرا من الأشياء التى ليست من قسم سبب النزول فى الحقيقة ، مثل استشهاد الصحابة فى مناظراتهم أو تمثيلهم بآية ، ومثل تلاوته ـ ﷺ ـ الآية للاستشهاد بها فى كلامه الشريف ، ومثل رواية حديث وافق الآية فى أصل الغرض .

ومضى الإمام الجليل يقول : إن من جملة الآثار المروية فى كتب التفسير بيان سبب النزول ، وسبب النزول على قسمين :

الأول : أن تقع حادثة فيها إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين ، كما وقع فى أحد والأحزاب . وقد أنزل الله ـ تعالى ـ مدح هؤلاء وذم أولئك ليكون فيصلا بين الفريقين . وربما يقع فى مثل هذا من التعريض بخصوصيات الحادثة ما يبلغ حد الكثرة ، فيجب أن يذكر شرح الحادثة مختصرا ليتضح سوق الكلام فى نظر القارئين .

الثانى : أن يكون معنى الآية واضحا بعمومها دون حاجة إلى العلم بالحادثة التى هى سبب النزول . وذلك أن الحكم لعموم اللفظ وليس لخصوص السبب ، وإنما ذكر قدماء المفسرين تلك الحادثة قصدا إلى الإحاطة بالآثار المناسبة لتلك الآية ، أو قصدا إلى بيان ما صدق عليه العموم . وليس ذكر هذا من الضروريات .

وراح الإمام ـ رضى الله عنه ـ فى تواضع جم يقول :

وقد تحقق عند الفقير أن الصحابة والتابعين كثيرا ما كانوا يقولون : نزلت الآية فى كذا وكذا . وغرضهم من ذلك تصوير ما تصدق عليه الآية ، وذكر بعض الحوادث التى تشملها بعمومها ، سواء تقدمت القصة أو تأخرت ، وسواء كان ذلك إسرائيليا أو جاهليا أو إسلاميا ، وسواء استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها .

وبهذا يعلم أن للاجتهاد فى هذا القسم مدخلا ، وأن للقصص المتعددة هناك سعة .

فمن استحضر هذه النكتة تمكن من حل إختلاف أسباب النزول بأدنى عناية .

ذلك ما قاله الإمام الجليل ، نضر الله وجهه ونفعنا بعلمه فى الدنيا والآخرة .

وبهذا لا يكون تعدد أسباب النزول فى الآية التى نحن بصددها شيئا تتبلبل به الخواطر أو تضيق به الصدور ، وذلك أن كل سبب ذكر مما أسلفنا بيانه صالح لأن تحمل عليه الآية ومعين على فهمها ومحصل للغاية منها .

والله الموفق للخير ، والمعين عليه ، نعم المولى ونعم النصير .

والآيتان الخامسة والسادسة : ﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ

ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة النساء)

فى هاتين الآيتين لأهل الرواية والنقل كلام كثير ، تشعبت به الطرق واختلفت الآراء ، حتى أصبح المعنى المقصود عصيًا على الهضم ، بعيدا عن الفهم والإفهام . . ولولا ما ذهب إليه أهل الروية والاجتهاد فى معنى الآيتين ، ولولا أن ذلك يسر السبيل إلى فهمها ، لكان علينا أن نجتاز هذا الموضع بغير وقوف عنده ولا كلام عنده ، ذاهبين فى هذا الصدد مذهب سلفنا الصالح ، ومرددين قولهم المأثور كلما كان يستعصى عليهم فهم آية : آمنا بكتاب الله على مراد الله ـ تعالى ـ منه .

ومن أجل هذا نرى من الخير أن نورد ما اختاره فى معنى الآيتين أهل الرواية والنقل ، ثم نتتبع بعد ذلك ما قاله أهل الروية والاجتهاد ، فنقول ، وبالله التوفيق :

قال الشيخ القرطبى ـ رحمه الله ـ حول الآية الأولى :

لما ذكر الله ـ تعالى ـ فى هذه السورة الإحسان إلى النساء ، ذكر التغليظ عليهن أيضا فيما يأتين به من فاحشة ، لئلا تتوهم المرأة أنه يسوغ لها ترك التعفف . والفاحشة فى هذا الموضع هى الزنا ، والفاحشة هى الفعلة القبيحة ، وقد جعل الله ـ تعالى ـ الشهادة على الزنا خاصة أربعة عدول تغليظا على المدعى ، وسترا على العباد . وتعديد الشهود بالأربعة فى فاحشة الزنا حكم ثابت فى التوارة والإنجيل والقرآن .

وكان إمساك هؤلاء فى البيوت حكما شرعيا فى إبتداء الإسلام ، كما هو مذهب عبادة والحسن ومجاهد ، حتى نسخ بالإيذاء فى الآية التى تليها ، ثم نسخ ذلك بالجلد للبكرين فى آية النور وبالرجم للثيبين فى الحديث الشريف .

وقالت فرقة : بل كان الإيذاء هو الأول ، ثم نسخ بالإمساك فى البيوت ، ولكن التلاوة أخرت وقدمت ، كما ذكره ابن فَوْرك .

وهذا الإمساك والحبس فى البيوت كان فى صدر الإسلام قبل أن يكثر الجناة فلما كثروا وخشيت قوتهم ، أتخذ لهم سجن كما قاله ابن العربى .

وقد اختلف العلماء : هل كان السجن حدا أو توعدا بالحد ، على قولين : أحدهما ، أنه توعد بالحد . وثانيهما ، أنه حد . كما قال ابن عباس والحسن .

وزاد ابن زيد ، أنهم مُنعوا من النكاح حتى يموتوا عقوبة لهم على طلب النكاح من غير وجهه ، وهذا يدل على أن الحبس كان حدا بل كان أشد من الحد . غير أن ذلك الحكم كان محدودا إلى غاية ، وهو الأذى المذكور فى الآية الأخرى على اختلاف التأويلين فى أيهما قبل ، وكلاهما محدود إلى غاية ، وهى قوله ـ عليه الصلاة والسلام : « قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » .

قال بعض العلماء : إن الأذى والتعيير باق على الجلد لأنهما لا يتعارضان ، بل يحملان على شخص واحد ، وأما الحبس فمنسوخ بإجماع ، وإطلاق المتقدمين النسخ على مثل هذا التجوز . والله أعلم .

هذا ما قاله الشيخ القرطبى حول الآية الأولى .

ثم قال حول الآية الثانية ـ رحمة الله عليه ـ :

ذهب قتادة إلى أن الأذى هو التوبيخ والتعيير ، وذهب آخرون إلى أنه السبب والجفاء دون تعيير . وذكر ابن عباس أنه النيل باللسان والضرب بالنعال . وزعم النحاس أن قوما قالوا إنه منسوخ وهو رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد قال :

﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ ﴿ وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا ﴾ (سورة النساء ١٥ ـ ١٦)

كانا فى أول الأمر ، فنسختهما الآية التى فى النور .

واختلف العلماء فى تأويل قوله ـ تعالى ـ : « **واللاتى** » وتأويل قوله « واللذان » ، فقال مجاهد وغيره : الآية الأولى فى النساء عامة ، محصنات وغير محصنات .

والآية الثانية فى الرجال خاصة ، ولفظ التثنية بين صنفى الرجال من أحصن ومن لم يحصن . فعقوبة النساء الحبس وعقوبة الرجال الإيذاء . وهذا قول يقتضيه اللفظ ، ويستوفى نص الكلام أصناف الزناة . ويؤيده من جهة اللفظ قوله فى الأولى : « من نسائكم » ، وقوله فى الثانية : « منكم » ، وهذا هو اختيار النحاس راويا عن ابن عباس .

وقال السعدى وقتادة وغيرهما : الآية الأولى فى النساء المحصنات ، ودخل معهد من أحصن من الرجال بالمعنى ، والآية الثانية فى الرجل والمرأة البكرين ، قال ابن عطية : ومعنى هذا القول تام ، إلا أن لفظ الآية يقلق عنه . وقد رجحه الطبرى وأباه النحاس قائلا : إن تغليب المؤنث على المذكر بعيد ، لأنه لا يخرج الشىء إلى المجاز مع كون معناه صحيحا فى الحقيقة . هذا ، وقيل كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل ، فخصت المرأة بالذكر فى الإمساك ، ثم جمعا فى الإيذاء .

وقال قتادة : كانت المرأة تحبس ، ويؤذيان جميعا ، لأن الرجل يحتاج إلى السعى والإكتساب .

وقد ختم الشيخ القرطبى كلامه بقوله :

﴿ فَإِن تَابَا ﴾ يعنى من الفاحشة ، ﴿ وَأَصْلَحَا ﴾ (سورة النساء ١٦)

يعنى العمل فيما بعد ذلك ، فأعرضوا عنهما ، واتركوا أذاهما وتعييرهما ، وهذا إنما كان قبل نزول الحدود ، فلما نزلت الحدود ، نسخت هذه الآية .

هذا ما قاله أهل الرواية والنقل فى معنى الآيتين الكريمتين . وهو على ما يبدو للمتأمل كلام لا يستبين به غامض ، ولا يظفر الناظر فيه بطائل .

وكلام أهل الروية والإجتهاد فى هذا الباب أقوى حجة ، وأوضح محجة ، وأدنى إلى الاقناع والاقتناع .

ومن أجل ذلك لا نرى بدا من أن نسوق فى بيان معنى الآيتين ، رأى العالم الجليل أبى مسلم الأصفهانى ، فإن فيه من حسن الفهم ووضوح البيان ، والجرى على سنن تيسير فهم كتاب الله للمؤمنين ، مالا نرى معدى عن إيثاره على كل قول سواه .

فقد قسم ـ رحمه الله ـ الفاحشة التى تنحل بها المجتمعات ، وتتعرض بها الشعوب إلى أشد المحن ، أقساما ثلاثة : أولها ، السحاق . وثانيها ، اللواط . وثالثها ، الزنا .

فأما السحاق ، فإنه يكون بين المرأة والمرأة , وأما اللواط ، فإنه يكون بين الرجل والرجل . وأما الزنا ، فإنه يكون بين الرجل والمرأة .

وقبل أن نذكر قول أبى مسلم فى معنى الآيتين ، نرى من المفيد بيان معنى الفاحشة فى اللغة وفى القرآن :

فأما فى اللغة : فالفاحشة والفاحش والفحش ، كل قول أو فعل اشتد قبحه وتزايد . وفى هذا المعنى يقول طرفة بن العبد البكرى :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشـــدد

فالفاحش هنا ، هو الذى جاوز الحد فى البخل .

وفى الحديث الشريف يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله ـ تعالى ـ ليبغض الفاحش المتفحش » ، فالفاحش هو ذو الفحش والخنا ، قولا كان ذلك أو فعلا . والمتفحش الذى يتكلف سب الناس متعمدا له .

وأما فى القرآن : فقد جاءت على وجوه متعددة ، منها البخل كما فى الآية :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (سورة البقرة ٢٨٦)

يعنى بالبخل . ومنها تجاوز حدود الله كما فى الآية :

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ (سورة النحل ٩٠)

فالفحشاء هنا مجاوزة حدود الله . ومنها اللواط كما فى الآية :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

وكما فى الآية :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * ﴾ (سورة النحل)

ومنها الزنا كما فى الآية :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (سورة الاسراء)

ومنها البذاءة وسلاطة اللسان كما فى آية الطلاق :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ (سورة الطلاق ١)

فالفاحشة هنا على ما يقول الشافعى ، أن تكون المرأة بذيئة على أحمائها بذرابة لسانها حتى تؤذيهم بذلك ، وقد أخرج رسول الله ـ ﷺ ـ المعتدة إلى بيت ابن أم كلثوم ، لبذاءتها وسلاطة لسانها ، ولم يبطل سكناها لقول الله عز وجل :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ (سورة الطلاق ١)

ولا ريب أن إبقاء المعتدة فى بيت الزوجية ، يراها زوجها وترى هى زوجها ، من شأنه أن يعين على استرجاع الألفة التى كانت بين الزوجين ، فإذا كانت المرأة سليطة بذيئة اللسان ، فإن ذلك يحول بينها وبين الحكمة المقصودة من شرع الحكم .

وإذ قد استبان بذلك معنى الفاحشة فى اللغة وفى استعمالات القرآن الكريم ، فقد اختار أبو مسلم معنى للفاحشة فى الآية غير الزنا ، وذلك أن الجماعة الانسانية حين تنحرف عن الصراط المستقيم تعرض لآفات كثيرة ، تتهددها فى بقائها ونمائها ، منذرة إياها بالفناء الشامل .

ومن أخطر هذه الآفات ، الشذوذ الجنسى فى إختلاط المرأة بالمرأة ، طلبا لقضاء الشهوة ، واللغة تطلق على هذا الإختلاط كلمة « السحاق أو المساحقة » .

ومن أخطر هذه الآفات ـ كذلك ـ إختلاط الرجل بالرجل ، طلبا لقضاء الشهوة ، واللغة تطلق على هذا الإختلاط الشاذ كلمة « اللواط أو اللواطة » .

ومن هذه الآفات ـ أيضا ـ اختلاط الرجل بالمرأة من طريق غير مشروع ، واللغة تطلق عليه كلمة « الزنا » .

وهذه الأدوات الثلاثة إذا تفشت فى جماعة أو شعب أو أمة ، عجلت بها إلى الفناء .

ومن أجل ذلك نهى القرآن عنها ، ووضع العقوبات الزاجرة لكل من يقترفها ، والآيتان اللتان نحن بصدد الحديث عنهما ، قد اشتملتا على عقوبة المساحقة واللواطة ؛ وأما عقوبة الزنا فقد نصت عليها الآية فى سورة « النور » ، والصحاح من أحاديث رسول الله ﷺ .

وعلى هذا ، فالآيتان فى رأى أبى مسلم محكمتان غير منسوختين .

وكما نقلنا نص أهل الرواية والنقل صدر هذا الحديث فى بيان معنى الآيتين ، ننقل نص أهل الرواية والاجتهاد فى هذا الصدد ، وفى مقدمة هؤلاء الإمام أبو مسلم الأصفهانى ، فنقول :

قال ـ رحمه الله ـ : إن المراد بقوله ـ تعالى ـ : « **واللاتى يأتين الفاحشة** » ، هن السحاقات وعقوبتهن الحبس إلى الموت ؛ وأن المراد بقوله : « **واللذان يأتيانها منكم** » ، هم أهل اللواط ، وعقوبتهم الإيذاء بالقول والفعل ، وأن المراد بآية النور ، هم الزناة وعقوبتهم فى البكر الجلد وفى الثيب الرجم .

وقد احتج أبو مسلم لرأيه هذا بوجوه :

أولها : أن قول الله : ﴿ وَٱلَّتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾ (سورة النساء ١٥)

مخصوص بالنسوان ، وأن قوله : « **واللذان** » مخصوص بالذكرين . لأن قوله واللذان هو تثنية الذى ، ولا يقال لما لا يجوز أن يكون المراد بقوله « **اللذان** » الذكر والأنثى على سبيل التغليب ، لأنا نقول : لو كان ذلك كذلك ما أفرد ذكر النساء من قبل ، فإذ قد أفرد ذكرهن ، ثم ذكر بعد ذلك « **واللذان يأتيانها منكم** » فقد سقط الاحتمال المشار إليه .

وثانيها : أنه على هذا التقدير لا حاجة إلى إلتزام النسخ فى شىء من الآيات ، بل يكون حكم كل واحدة منها باقيا مقررا .

وعلى التقدير الذى ذكره أهل الرواية والنقل لا يكون مناص من إلتزام النسخ ، فكان هذا القول أولى .

وثالثها : أن على الوجه الذى ذكره أهل الرواية يكون قوله :

﴿ وَٱلَّتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾ (سورة النساء ١٥)

واردا فى الزنا ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا ﴾ (سورة النساء ١٦)
واردا أيضا فى الزنا ، وذلك يفضى إلى التكرار ، والتكرار ينبغى صيانة كتاب الله ـ تعالى ـ عنه ، وهذا التكرار لا يلزم على الوجه الذى يحمل الآية على السحاق .

ورابعها : أن القائلين بأن هذه الآية نزلت فى الزنا ، فسروا قوله :

﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (سورة النساء)

بالجلد والرجم والتغريب . وهذا غير سائغ ، لأن هذه الأشياء عليهن لا لهن ، كما يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (سورة البقرة)

وهذا المحظور لا يلزم أهل النظر والروية ، لأنهم يفسرون السبيل فى الآية بتسهيل قضاء شهوتهن عن طريق الزواج المشروع .

ويمضى الامام أبو مسلم ـ نضر الله وجهه ـ فيقول :

وما يدل على صحة ما ذهبنا إليه قوله ـ ﷺ ـ : « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » .

على أن داعية الحرص على الجدل وطلب الغلب فى باب النقاش ، حملت بعض العلماء على أن يعترضوا رأى أبى مسلم بقولهم : إن رأى أبى مسلم لم يقله أحد من قبل ، فهو من أجل ذلك باطل . واحتجوا ثانيا بالحديث الذى رووه عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « قد جعل الله لهن سبيلا ، الثيب ترجم والبكر تجلد » ، وهذا فيما قالوا يدل على أن الآية نازلة فى حق الزناة . ثم احتجوا ثالثا بأن أصحاب النبى قد اختلفوا فى أحكام اللواط ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية . وعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى معنى يدل على عقوبة اللواط ، دليل على أن هذه الآية ليست فى اللواط .

غير أن صاحب « مفاتيح الغيب » رحمه الله ، دفع عن أبى مسلم صولة هذه الاعتراضات فقال :

أما الاعتراض الأول : القائم على أن أحدا من الأقدمين لم يقل ما قاله

أبو مسلم ، فإنه اعتراض ساقط ، لأن مجاهدا ذهب إلى هذا الذى قاله أبو مسلم ، ومجاهد من أكابر المفسرين . ثم إن استنباط تأويل جديد فى آية من كتاب الله ـ مع أنه أمر جائز ـ هو خير يحسن المصير إليه ـ ولو لم يطرقه المتقدمون .

وأما الاعتراض الثانى : القائم على تفسير السبيل بالجلد أو الرجم ، ففيه تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد ، وهو غير مسلم .

وأما الاعتراض الثالث : القائم على أن الصحابة لم يعتمدوا هذه الآية فى عقوبة أهل اللواط ، فإننا ندفع ذلك بما قرره ابن عباس ـ وهو ترجمان القرآن ـ بأن الإيذاء الوارد فى الآية يشتمل على أمرين : أحدهما التعيير باللسان . وثانيهما ، الضرب بالنعال . . وليس يعرف الناس أقسى على النفس من تعيير الجانى بعمله الخسيس على رؤوس الأشهاد ، ولا أحط فى باب التأديب من الضرب بالنعال ، فإنه أشد إيلاما لنفس الإنسان من الضرب ، بالسيوف .

وبهذا التفصيل لمعنى الآيتين ، يتضح الأمر فيهما أكمل اتضاح ، ولا يجد المنصف بدا من الأخذ برأى أبى مسلم والتسليم بقوله والرضا عن مذهبه ، فى تنحيته أبدا معنى النسخ عن كتاب الله الكريم .

زواج المتعة

والآية السابعة :

﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة النساء)

فقد اختلف أهل العلم فى المراد بهذه الآية . فقال قوم : المراد بها الزواج الدائم . وقال آخرون : بل المراد بها الزواج المؤقت ، وهو زواج المتعة .

ومن الذين قالوا بالأول ابن خويز منداد ، فقد قال ـ رحمه الله ـ : لا يجوز حمل الآية على جواز المتعة ، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن نكاح المتعة وحرمه ، بيانا لقول الله تعالى : ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ (سورة النساء ٢٥) ومعلوم أن النكاح بإذن الأهلين ، هو النكاح الشرعى المعروف بولّى وشاهدين ، وليس كذلك نكاح المتعة .

وجمهور أهل العلم على أن المراد فى الآية هو نكاح المتعة ، الذى كان فى صدر الإسلام ، لأن ابن عباس وأبىّ وابن جبير ، كانوا يقرءون الآية : ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

قالوا : ثم نهى النبى ـ ﷺ ـ عن هذا النكاح .

وذهب سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ إلى أن الآية منسوخة ، نسختها آية الميراث ، من حيث كان نكاح المتعة لا ميراث فيه .

وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ ترى تحريم نكاح المتعة ، وترى نسخها فى

القرآن بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ ﴾ (سورة المؤمنون)

لأن زوجة المتعة ـ عند عائشة ـ لا هى زوجة ولا هى مملوكة .

وكان ابن مسعود يقول : المتعة منسوخة ، نسخها الطلاق والعدة والميراث . وكان عطاء يروى عن ابن عباس : أن المتعة كانت رحمة من الله ـ تعالى ـ رحم بها عباده ، ولولا نهى عمر عنها ما زنى إلا شقى ..

ونحن نلخص ما قاله العلماء حولها ، فنقول :

الاستمتاع فى اللغة : الانتفاع . يقال : استمتع الرجل بولده .

ويقولون : إنه لم يستمتع بشبابه . وفى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ (سورة الأنعام ١٨٢)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (سورة الأحقاف ٢٠)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ (سورة التوبة ٦٩)

ثم إن فى الآية قولين :

أحدهما ، ما ذهب إليه أكثر العلماء ، وهو أن كلمة « ما » فى قوله صدر الآية :

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ ﴾ (سورة النساء ٢٤)

إنما يراد بها ابتغاء النساء بالأموال على طريق النكاح . فإذا ابتغى المسلمون بأموالهم النساء واستمتعوا بهن ، وجب إعطاؤهن أجورهن ، يعنى مهورهن تامة عند الدخول بهن ، أو نصف المهر عند العقد عليهن .

وثانيهما : أن المراد بهذه الآية نكاح المتعة ، والمتعة هى أن يستأجر الرجل المرأة بمال معلوم إلى أجل معلوم ليستمتع بها .

واتفاق أهل العلم قائم على أن هذه الصورة من الزواج ، كانت مباحة فى إبتداء

الاسلام . وآية ذلك أن النبى ـ ﷺ ـ لما قدم مكة فى عمرته ، تزين نساء مكة ، فشكا أصحابه إليه العُزّبة ، فقال ـ صلوات الله عليه ـ : « استمتعوا من هذه التساء» .

وبعد اتفاق أهل العلم على إبتداء مشروعية المتعة ، إختلفوا فى بقائها ؛ فذهب السواد الأعظم إلى أنها نسخت ، وقال السواد من أهل العلم إنها باقية مباحة كما كانت ، وهذا القول روى عن ابن عباس وعمران ابن الحصين .

والرواة يروون عن ابن عباس ثلاث روايات :

الرواية الأولى ، الإباحة المطلقة . فيقول عمارة : سألت ابن عباس عن المتعة ، أسفاح هى أم نكاح ؟ . فقال : لا سفاح ولا نكاح . فقلت : فما تكون ؟ . فقال : هى متعة كما قال الله ـ تعالى ـ فقلت : هل لها عدة ؟ فقال : نعم ، حيضة . فقلت : هل يتوارثان ؟ . فقال : لا .

الرواية الثانية ، أنها حلال للمضطر ، حل الميتة والدم ولحم الخنزير ولكن العامة ـ كشأنهم دائما ـ يترخصون فى تناول كلام الأئمة بما هو أرضى للهوى وأدنى إلى الشهوات ، حتى لقد قال شاعرهم :

أقول للركب إذ طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس
فى بضة رخصة الأطراف ناعمة ... تكون مثواك حتى مرجع الناس

وقد شاع هذا الشعر على ألسنة العامة ، وأسرفوا فى ترداده ، حتى قال معمر عن الزهرى : إن الناس ازدادوا مقتا للمتعة بسماعهم هذا الشعر ، وحتى كان ابن عباس يقول ـ كلما انتهى إليه ذلك ـ : قاتلهم الله ، إننى ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق ، ولكنى قلت إنها تحل للمضطر كما يحل له أن يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

الرواية الثالثة ، أنها منسوخة . وفى هذا يقول عطاء الخرسانى عن ابن عباس : إن الآية منسوخة بقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ (سورة الطلاق ١)

وربما زاد بعض أهل العلم أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : عند موته : اللهم إنى أتوب إليك من قولى فى المتعة وفى الصرف .

يعنى رأيه فى الربا .

هذا ما يتعلق بابن عباس فى هذه الآية .

وأما ما يتعلق بعمران بن الحصين ، فإنه قال : نزلت آية المتعة ولم تنزل بعدها آية تنسخها ، فأمرنا بها رسول الله ـ ﷺ ـ فتمتعنا ، ثم مات ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم ينهنا . ثم قال رجل برأيه ما شاء ، « يعنى عمر » .

قال صاحب المفاتيح : وأما أمير المؤمنين على ـ رضى الله عنه ـ فإن الشيعة يروون عنه إباحة المتعة . وقد روى محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره ، أن عليا قال : لولا أن عمر نهى الناس عن المتعة ، ما زنى إلا شقى . وكذلك روى محمد بن على بن الحنفية ، أن عليا مر بابن عباس وهو يفتى بجواز المتعة ، فقال له : لقد نهى النبى عنها وعن لحوم الحمر الأهلية .

فأما الجمهور فقد احتجوا على حرمة المتعة بوجوه :

منها : أن الوطء لا يحل إلا فى الزوجة أو المملوكة ، لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ (سورة المؤمنون ٦)

والمستمتع بها لاهى زوجة ولا هى مملوكة ، بدليل أنها لو كانت زوجة لحصل بينهما التوارث ، ولا توارث ، ولو كانت زوجة لثبت النسب ، وبالإتفاق لا يثبت النسب ، ولو كانت زوجة لوجبت عليها العدة ، لقوله ـ تعالى ـ : « **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا** » .

ومنها : ما روى عن عمر : متعتان كانتا على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة الحج ، ومتعة النساء .

ومنها : ما رواه مالك أن النبى ـ عليه السلام ـ نهى عن متعة النساء وعن أكل لحوم الحمر الانسية . وكذلك ما رواه الربيع بن سيرة الجهنى عن أبيه ، قال : غدوت على رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو قائم بين الركن والمقام مسندا ظهره إلى الكعبة ، يقول : « أيها الناس إنى أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا وإن الله قد حرمها عليكم إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيلها ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » .

والقائلون بحل نكاح المتعة لم يستسلموا لمنطق الجمهور ، بل مضوا يؤيدون وجهة نظرهم وهم يقولون : إن التمسك بالآية :

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ (سورة النساء ٢٤)

يؤدى إلى حل نكاح المتعة . وفى الاستدلال بهذه الآية طريقان :

أولاهما : أن نكاح المتعة داخل فى هذه الآية ، لأن قوله :

﴿ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم ﴾ (سورة النساء ٢٤)

يتناول من ابتغى بماله الإستمتاع بالمرأة ، على سبيل التأييد ، كما يتناول من إبتغى الإستمتاع بها على سبيل التأقيت .

وإذا كان كل واحد من القسمين داخلا فى حكم الآية ، كان قوله :

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (سورة النساء ٢٤)

مقتضيا حل القسمين جميعا . والمتعة أحد القسمين .

والطريقة الثانية : أن هذه الآية مقصورة على بيان نكاح المتعة ، بدليل ما روى من أن أبّى بن كعب وعبد الله بن مسعود ، كانا يقرآن الآية :

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (سورة النساء)

وكذلك كان يقرأ ابن عباس ، بغير منكر لهذه القراءة ، فكانت قراءة صحيحة ، وإذ قد ثبتت صحة القراءة ، فقد ثبت المطلوب ، وهو حل نكاح المتعة .

وحجة أخرى للقائلين بحل نكاح المتعة ، خلاصتها أن حمل الآية على حكم النكاح المؤبد ، يلزم منه تكرار بيان حكم هذا النكاح فى السورة الواحدة ، لأن الله - تعالى - قال فى أول هذه السورة :

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ (سورة النساء ٣)

ثم قال : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ (سورة النساء ٤)

فأما حملها على بيان نكاح المتعة فلا يلزم عليه تكرار ، وإنما يلزم بيان حكم جديد . وبيان الحكم الجديد أولى بالإعتبار من بيان حكم تبين من قبل ، وبهذا يكون حمل الآية على بيان نكاح المتعة ، أولى من حملها على نكاح التأبيد .

تلك خلاصة موجزة لما قاله العلماء حول هذه الآية ، فيما تدل عليه من نكاح المتعة أو نكاح التأبيد .

والذى يتأمل هذا الموطن فيما قاله علماء الإسلام ، وفيما يتصل به من شئون الناس فى مختلف المجتمعات على إختلاف الأمكنة والأزمنة ؛ لا يجد بدا من مزيد نظر ، وطول تأمل . وأخلق المواطن بطول التأمل ، هذا الخلاف الطويل حول نكاح المتعة بين فقهاء الإسلام وعلمائه ، بحيث بلغ الأمر غاية يصعب معها تلقى أى قول من أقوال الفقهاء بغير بحث وتمحيص ، لاختلاط الأقوال فيها ، وتعدد الآراء حولها ؛ حتى لقد روى عن أسلافنا أن بعضهم جمع طرق الأحاديث فيها ، فإذا هى تقتضى التحليل والتحريم سبع مرات ، فروى ابن أبى عمرة أنها كانت فى صدر الإسلام . وروى سلمة ابن الأكوع أنها كانت عام أوطاس . ومن رواية على ـ كرم الله وجهه ـ تحريمها يوم خيبر . ومن رواية الربيع بن سبرة : إباحتها يوم الفتح ، وقال الشيخ القرطبى : وهذه الطرق كلها فى صحيح مسلم ، وفى غير هذا الصحيح عن علّى نهيه عنها فى غزوة تبوك ، وفى مصنف أبى داود عن سبرة النهى عنها فى حجة الوداع .

وقال عمرو عن الحسن : ما حلت المتعة قط إلا ثلاثا فى عمرة القضاء ، ما حلت قبلها ولا بعدها . وروى هذا عن سبرة أيضا .

فهذه سبعة مواطن أحلت فيها المتعة وحرمت .

وما من شك فى أن هذه الروايات المختلفة تجعل الأخذ بإحداها من الصعوبة بمكان ، وبخاصة حين يصادف الباحث رأيا لعالم مقدور يصعب تصور صدوره عنه ، كذلك الذى ينسب إلى النحاس فى قوله : وإنما المتعة (هكذا بالحصر) أن يقول لها : أتزوجك يوما أو ما أشبه ذلك ، على أنه لا عدة عليك ، ولا ميراث بيننا ، ولا طلاق ، ولا شاهد يشهد على ذلك .

فهذا هو الزنا بعينه ، ولا يتصور مسلم أن الإسلام يبيح مثل هذا الإنحلال ، ولعل هذه الصورة هى التى قال فيها عمر : لا أُوتَى برجل تزوج متعة إلا غيبته تحت الحجارة .

والسؤال هنا : هل هذا الرأى ذكره النحاس أو ذكر عنه فى معنى المتعة ؟ . هو ما كان يدور حوله إختلاف فقهاء المسلمين ، حتى حرمها بعضهم وحللها آخرون ؟ .

والذى لا نشك فيه ، ونعتقد أن منصفا لا يشك فيه ، هو أن التعصب المذهبى فى المجتمع الإسلامى ، دفع حمقى المتعصبة إلى أن يركبوا متن الغلو ، فيصوروا خصوم مذهبهم بصورة مقيتة فى أعينهم وأعين الناس ، وإلا فكيف يسيغ مسلم أن يصور نكاحا شرعه الإسلام وارتضاه رسول الله للمسلمين بهذه الصورة القبيحة التى هى سفاح بحت وزنا خالص ، فيتزوج الرجل المرأة ليوم دون عدة ودون إرث ودون طلاق ودون شهود ؟ .

ومن المواطن التى تستوقف النظر ، نهى عمر عن متعة الحج ومتعة النساء ، قارنا بينهما ، ثم انصراف الناس عن الاهتمام بمتعة الحج وسكوتهم عنها ، إلى الاهتمام بمتعة النساء ، إهتماما أطلق ألسنتهم بالجدل ، وأقلامهم بالتدوين . فلماذا نهى عمر عن المتعتين ؟ . وما الذى سوغ له النهى عنهما ؟ .

ثم لماذا أقبل المسلمون ـ مع مضى الزمن ـ على متعة الحج بغير جدال ، وامتلأت كتب الفقهاء بالطعن والتجريح لمتعة النساء . فأما أن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ نهى عن المتعتين ، فلا نشك فى أن داعيا قويا من الرعاية لمصلحة الأمة وابتغاء خيرها دعاه إلى ذلك .

ولعل داعية إلى النهى عن المتعة فى الحج ، ما رآه من مظاهر الترف فى التحلل من العمرة إلى الحج ، بما يستلزمه ذلك من لبس الثياب اللينة ومس الطيب الغالى ، وإشباع الشهوات ، وما إلى ذلك من الأمور التى قد تضعف الروحانية فى المستمتع ، والتى قد تثير نفوس الذين لا يجدون السبيل إلى ما ينعم به رفقاؤهم من الحجيج .

وأما متعة النساء ، فلعل داعية إلى النهى عنها ، ما كان يراه من إتساع الناس فيها ، وإسرافهم فى الإقبال عليها ، وعدم إقتصارهم على موضع الحاجة منها ، وذلك من شأنه أن يدعو إلى إلتزام المتارف والوقوع فى المهالك ، على نحو ما حدث بعد ذلك فى المجتمع الإسلامى ، نتيجة للإستغراق فى الشهوات .

وقد كان لعمر ـ رحمه الله ـ فى هذا الباب من الفقه وبعد النظر والأخذ

بالاحتياط ما يرضى الله عنه ورسوله والمؤمنون ؛ وقد أضاف عمر النهى عن المتعتين إلى نفسه بضرب من الرأى . ولو كان قد انتهى إليه أن النبى نسخهما ، ما أضاف النهى إلى نفسه ، فإن قد فعل وأضاف النهى إلى نفسه ، فقد دل ذلك على أن هذا من عنده وأنه رأى له . وليس هذا مما تضيق به شريعة الإسلام ، فإن للحاكم أن يقيد المباح إذا رأى فى ذلك مصلحة للأمة .

وعلماء الإسلام يضعون فى الإعتبار أبدا المصلحة المرسلة للمحافظة على مقصود الشارع بدفع المفاسد عن الخلق . وقد اشتهر القول بالمصلحة المرسلة عند مالك ، بحجة أن الله ـ تعالى ـ إنما بعث الرسل عليهم السلام لتحصيل منفعة العباد عملا بالإستقراء ، فمهما وجدت مصلحة فقد غلب على الظن أنها مطلوبة للشرع .

على أن اعتبار المصلحة المرسلة ليس خاصا بمذهب مالك ، فقد قال الامام القرافى : إن المصلحة المرسلة هى رأى جميع المذاهب عند التحقيق .

ولا نجد بدا من وقفات حول الآية الشريفة قبل ختام الحديث ، نستجلى غامضا ، أو نبين مبهما ، أو نشق طريقا يمضى فيه باحث أو ينتفع به منتفع ، وأول ذلك أن الناس أقبلوا على متعة الحج ولا يزالون يقبلون عليها إلى ما شاء الله ، فى الوقت الذى كرهوا فيه متعة النساء وتنكروا لها ، وحاولوا التشهير بالذين يرونها ويقولون بها ، مع أن أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ أنذر المستمتع استمتاع حج أو إستمتاع نساء .

وليس يسهل عن الناظر أن يجاوز هذا الموطن دون أن يستشرف إلى معنى يبرر مخالفة المسلمين عمر فى نهيه عن متعة الحج ، فيتمتعون على إختلاف مذاهبهم ثم يختلفون فى متعة النساء إختلافا شديدا ، فمنهم من يقف عند نهى أمير المؤمنين فينتهى ، ومنهم من لا يبالى نهيه فيظل آخذا بها داعيا إليها ، بل إن منهم من رد على عمر نهيه عنها ردا تجاوز فيه ما ينبغى أن يكون لأمير المؤمنين من التجلة والتوقير ، فذلك حيث يقول عمران بن الحصين : نزلت آية المتعة ولم تنزل بعدها آية تنسخها ، فأمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ فتمتعنا ، ثم مات ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم ينهنا ، ثم قال رجل برأيه ما شاء . (يعنى عمر) .

ومما يدعو إلى العجب فى هذا الباب ، أن كثيرا من علماء المذهب المالكى يمقتون المتعة ويتحاملون على القائلين بها ، مع أن فى كتب مذهبهم ما لو تأملوه

لكان لهم فيه صارف عن التحامل الشديد . ففى كتاب (المنتقى) للباجى الأندلسى من أعيان الطبقة العاشرة من علماء السادة المالكية ، يقول ـ رحمه الله ـ : ومن تزوج امرأة لا يريد إمساكها ، وإنما يريد أن يستمتع بها مدة ثم يفارقها ، فقد روى محمد عن مالك : أن ذلك جائز ، وإن لم يكن من الجميل ولا من أخلاق الناس ؛ وقد قال ابن حبيب ـ من أئمة المذهب ـ فى هذه الصورة : إن النكاح وقع على وجهه لعدم إشتراط شىء فى العقد ، وإنما نكاح المتعة ما شرطت فيه الفرقة بعد إنقضاء المدة .

وربما اتجه إعتراض يصعب التخلص منه على ما يقرره المالكية : من أن زواج المتعة صحيح ، ما دام لم ينص فى العقد على الأجل ، ولو عرفت المرأة من حال من يريد تزوجها أنه إنما يريد ذلك إلى أجل .

ووجه الصعوبة فى التخلص من هذا الإعتراض ، ما يرويه الامام ابن القيم من أن أهل المدينة وأهل الحديث وفقهاءهم ، لا فرق عندهم فى الشروط بين القول وبين التواطؤ والقصد .

فإن المقصود عندهم فى العقود معتبرة ، والأعمال بالنيات ، والشرط المتواطأ عليه الذى دخل عليه المتعاقدان كالملفوظ عندهم ، فإن الألفاظ لا تراد لعينها ، بل تراد للدلالة على المعانى . فإذا ظهرت المعانى والمقاصد فلا عبرة بالألفاظ لأنها وسائل ، وقد تحققت غايتها ، وترتب عليها أحكامها .

ونزيد على هذا ، أن المالكية يقدمون ـ فى الاستدلال على الحكم ـ عمل أهل المدينة على الحديث لاحتمال نسخة .

وفى نكاح المتعة يقول ابن القيم :

وأما نكاح المتعة ، فثبت عنه ـ ﷺ ـ أنه أحلها عام الفتح وثبت عنه أنه نهى عنها عام الفتح ، وقد اختلفوا فى نهيه عنها يوم خيبر على قولين ، والصحيح أن النهى إنما كان عام الفتح ، وأن النهى يوم خيبر ، إنما كان من الحمر الأهلية .

ثم يقول ـ رحمه الله ـ :

وظاهر كلام ابن مسعود إباحتها ، فإن فى الصحيحين عنه : كنا نغزو مع رسول الله ـ ﷺ ـ وليس معنا نساء ، فقلنا : يا رسول الله ، ألا نختصى ؟ . فنهانا ، ثم رخص لنا بعد فيها ، ثم قرأ عبد الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (سورة المائدة ٨٧)

ثم يتساءل ابن القيم :

هل هو تحريم بات ، أو تحريم مثل تحريم الميتة والدم ، فيباح عند الضرورة وخوف العنت ؟ .

هذا هو الذى لحظة ابن عباس ، وأفتى بحلها للضرورة ، فلما توسع الناس فيها ، ولم يقتصروا على موضع الضرورة ، أمسك عن فتياه ورجع عنها .

والحاصل أن ها هنا مذاهب ثلاثة : مذهب المالكية ، ومذهب ابن القيم تلميذ ابن تيمية ، وقد ذكرناهما آنفا ، وبقى ثالث هو مذهب فقهاء آل بيت النبى ـ صلى الله عليه وآله وعلى الصفوة من أصحابه ـ وفيه يقول الشيخ الأجل المحقق أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلى من أعيان القرن السابع الهجرى : وأركان نكاح المتعة أربعة :

الأول : الصيغة بأحد الألفاظ الثلاثة : زوجت ، أو نكحت ، أو متعت .

الثانى : الزوجة بشرط كونها مسلمة أو كتابية ، دون المشركة والناصبة ، ويستحب اختيار المؤمنة العفيفة .

الثالث : المهر وذكره شرط ، ويكفى فيه المشاهدة ، ويقدر بالتراخى ولو بكف من برّ .

الرابع : الأجل ، وهو شرط فى العقد ، ويقدر بتراخيهما كاليوم والسنة والشهر ، ولابد من تعيينه .

وعدم ذكر المهر مع ذكر الأجل يبطل العقد . وذكر المهر من دون الأجل يجعله زواجا دائما . ولا حكم للشروط قبل العقد ، ويلزم لو ذكرت فيه . والعزل من دون إذنها جائز . ويلحق الولد بالزوج وإن عزل ، لكن لو نفاه لم يحتج إلى اللعان .

ولا يقع بالمتعة طلاق إجماعا ، ولا يثبت بالمتعة ميراث بين الزوجين إلا أن يشترط الميراث . وإذا انقضى أجلها فالعدة حيضتان على الأشهر ، وإن كانت ممن

تحيض ولم تحض فخمسة وأربعون يوما ، ولو مات عنها فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام .

وإذا كان لنا أن نختار من هذه الآراء رأيا ، تقوم الحجة به وتتوافر الدلائل عليه ، فهو أن نكاح المتعة مباح إذا دعت إليه ضرورة ، ومستندنا فى هذا أمران :

أحدهما ، إباحة رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه هذا النكاح وقد شكوا إليه الغربة .

وثانيهما ، إعتبار السلف الصالح هذا النكاح رحمة رحم الله بها عباده ، ولولا إسراف الناس فيه ، ما نهى عنه عمر وتوعد الذين يواقعونه .

والذى يزيدنا اطمئنانا إلى هذا الرأى ، واحتراما لوجهة نظر القائلين به ، ما نرى عليه شباب أمتنا فى البلاد الأجنبية ، ومن حولهم الفتن تلاحقهم فى كل مكان ، والشهوات تترصدهم بكل سبيل ، فهم بين أمور ثلاثة لا ندهة لهم عن واحد منها . فإما أن يجترئوا على حدود الله ، فيقارفوا الفاحشة ، وإما أن يصارعوا شهواتهم فيتعرضوا لأذى بالغ وعنت شديد ، وإما أن يتزوجوا على طريقة شرعها الله رحمة لعباده المؤمنين .

فأما مقارنة الفاحشة ، فما ترى مسلما حريصا على شباب الأمة ، يرضى لهم أن يقارفوها وأن يعيشوا فيها ، لأن ذلك ـ بلا ريب ـ يقوض فى صدورهم هيبة الدين .

وأما مصارعة الشهوات ، فما نظن منصفا يتصور قدرة شباب يحيا بين سمع الفتنة وبصرها على الخلاص منها والتغلب عليها .

وأما الزواج فإنه يكون على ضربين : أحدهما الزواج الدائم ، وثانيهما زواج المتعة .

آراء السلف عن العزل

والزواج الدائم يستلزم حقوقا تقتضى الرعاية وتستوجب الأداء ، وأهمها أن من حق الزوجة فيه طلب الولد ، فلا يجوز للزوج فيه أن يعزل عنها إلا بإذنها ورضاها فإذا لم تأذن ، فليس له ذلك دينا . فإذا ولدت ، نشأ الولد فى رعاية أم غير مسلمة ، بعيدا عن دار الإسلام ، فكان رقيق الدين بتأثير الأم ، ضعيف الوطنية بتأثير البيئة ، وفى هذا من المحذور مالا يخفى على ذى دين مستبصر .

وأما زواج المتعة ، فمع أنه قضاء للوطر ومسايرة للفطرة وصيانة للدين ، هو مع ذلك لا يستلزم حقوقا للزوجة تستوجب الأداء ، فإن للزوج فيه أن يعزل عن زوجته ولو بغير إذنها ، فلا يكون له منها ولد ينشأ رقيق الدين ضعيف الوطنية .

وبهذا النظر تخيرنا القول بإباحة هذا النوع من الزواج ، وارتأينا ما يراه فقهاء آل البيت من مشروعيته مشروعية دائمة غير منسوخة ، فهم فى هذا ـ رضى الله عنهم ـ كانوا من سعة الأفق وبعد النظر ، بحيث لا يملك المسلم المنصف إلا أن يسلك طريقهم ويأخذ برأيهم ، إيثارا للحق وابتغاء لصالح المسلمين .

وإن كنا لا نستطيع أن نجاوز هذا الموطن دون أن نقف وقفتين :

إحداهما : حيال الشروط التى أشار إليها الحلى غفر الله له . فقد اشترط فى الزوجة أن تكون مسلمة أو كتابية ، دون أن تكون مشركة أو ناصبة ، فقرن بين المسلمة والمسيحية فى الإباحة ، وقرن بين المشركة والناصبة فى التحريم ، والناصبة فيما يعرف الناس ، هى غير المتشيعة أو التى تناصب آل البيت العداء . وأيا ما كان الأمر ، فإن قرنها وهى مسلمة إلى المشركة ، فيه تعصب شديد ، لعله هو أشد العقبات التى تعترض طريق التقريب بين مذاهب المسلمين .

والوقفة الثانية : حيال عدة زوجة المتعة ، فهى إما حيضة أو حيضتان ، وهى بهذا دون الحرة ، ومن شأن ذلك أن يحط من قيمة هذه الزوجة ، وأن يلحقها بمرتبة الإماء ، وهو ما أشار إليه أئمة المالكية من قولهم : إن هذا النكاح جائز مع كونه لا هو من الجميل ولا هو من أخلاق الرجال .

ومما يتصل بهذا الباب إتصال تكملة أو معونة أو إيضاح ، أن نذكر حكم العزل ورأى المسلمين فيه . وأولى الآراء بالذكر فى هذا الباب ، ما ذكره الإمام الجليل الحافظ ابن القيم ، فقد عقد فى كتابه (زاد المعاد) فصلا يقول فيه .

ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد قال : وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ؟ . ثم قال : ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة .

وفى السنن عنه : أن رجلا قال : يا رسول الله إن لى جارية ، وأنا أعزل عنها وأنا أكره أن تحمل ، وأنا أريد ما يريد الرجال . وإن اليهود تحدث : أن العزل هو الموءودة الصغرى . قال ﷺ : « كذبت يهود ، لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه » .

وفى الصحيحين عن جابر قال : كنا نعزل على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ والقرآن ينزل .

وفى صحيح مسلم عن جابر : كنا نعزل على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فبلغ ذلك رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ فلم ينهنا .

وفى مسند أحمد وسنن ابن ماجه من حديث عمر بن الخطاب : نهى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يعزل عن الحرة الا بإذنها .

قال ابن القيم : فهذه الأحاديث صريحة فى جواز العزل ، فهو رخصة ، رويت عن عشرة من أصحاب رسول الله : على وسعد بن أبى وقاص وأبى أيوب ، وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن على وخباب بن الأرت وأبى سعيد الخدرى وابن مسعود .

ومما يزيد هذا المقام وضوحا ما يرويه القاضى أبو يعلى وغيره عن عبيد بن رفاعة عن أبيه قال : جلس إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ على والزبير وسعد فى نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فتذاكروا العزل ، فقالوا ؛ لا بأس به . فقال رجل : إنهم يزعمون أنها الموءودة الصغرى . فقال على : لا تكون موءودة حتى تمر عليها التارات السبع ، حتى تكون مضغة ، ثم تكون عظاما ، ثم تكون لحما ، ثم تكون خلقا آخر ، فقال عمر رضى الله عنه : صدقت يا أبا الحسن ، أطال الله بقاءك .

وإنما أطلنا القول فى حكم العزل ، نبتغى بذلك أن ننبه المغتربين إلى أن

العزل جائز شرعا ، بل ربما كان أكثر من جائز فكان واجبا أو كالواجب ، حرصا على عدم نشوء الولد من أم غير مسلمة وفى بيئة غير مسلمة . وبهذا النظر تتحقق للمسلم أمور ثلاثة ، كل منها مطلوب لصاحب المروءة وصاحب الدين :

أولاها : أن يجنب نفسه الحرج .

وثانيها : أن يتقى محارم الله بالبعد عن الفاحشة .

وثالثها : ألا يخرج من صلبه عدو لدينه ووطنه .

والآية الثامنة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

فالتحريض فى اللغة ، أن تحث الإنسان حثا يعلم معه أنه حارض ـ أى مقارب للهلاك ـ إن تخلف عن حثك اياه . والتحريض ـ كما يقول اللحيانى ـ عطى معنى المداومة ، فهم يقولون : حارض فلان على العمل وواكب عليه وواظب وواصب أيضا بمعنى داوم ، فمعنى حرض المؤمنين على القتال ، حثهم على أن يحارضوا أى يداوموا على القتال حتى يثخنوا أداءهم .

وفى هذا إشارة إلى أن المؤمنين لو تخلفوا عن القتال بعد حث النبى ـ ﷺ ـ عليه كانوا حارضين أى هالكين . وربما بدا لأول وهلة أن المراد الخبر وليس الأمر من قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

غير أن هذا الذى يفهم لأول وهلة غير صحيح ، فهو أمر وإن ورد فى صيغة الخبر ، وذلك مثل قول الله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة :

﴿ * وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ (سورة البقرة ٢٣٣)

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ (سورة البقرة ٢٢٨)

فإن الكلام فى الآيتين الكريمتين وارد فى صيغة الخبر والمراد الأمر .

فكذلك فى هذه الآية الكلام وارد مورد الخبر وهو فى الحقيقة أمر ، وللإمام السهيلى فى هذا المقام كلام فيه دقة وعمق ، وهو خليق بأن نسجله ونرويه ، فقد قال رضى الله عنه : إن للآية ظهرا وبطنا ، فظاهرها خبر ووعد من الله ـ تعالى ـ أن تغلب العشرة المائة ، وباطنها وجوب ثبوت العشرة للمائة . ويدل على هذا الحكم قوله سبحانه : ﴿ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ (سورة الأنفال ٦٥)

فالنسخ متعلق بهذا الحكم الباطن فأما الخبر فإنه باق على أنه وعد حق من الله ـ عز وجل ـ وقد أبصره المؤمنون عيانا فى زمن عمر بن الخطاب وفى بقية خلافة أبى بكر فى محاربة الروم وفارس بالعراق والشام ، ففى تلك الملاحم هزم المؤمنون الألوف من المشركين . ثم إن خالد بن الوليد هزم مائة ألف حين إقباله من العراق إلى الشام ولم يبلغ عسكره خمسة آلاف ، بل قد رأيت فى بعض فتوح الشام أنه كان يومئذ فى ألف فارس ، وكان قد أقبل من العراق مددا للمسلمين الذين بالشام ، وكان الروم فى أربعمائة ألف ، فلقى منهم خالد مائة ألف ففض جمعهم وهزمهم ، وقد هزم أهل القادسية جيوش رستم وقتلوه ، وكان رستم فى أكثر من مائتى ألف ولم يكن المسلمون فى عشر ذلك العدد ، وجاءوا معهم بالفيلة أمثال الحصون عليها الرجال ، ففرت الفيلة وأطاحت ما عليها ولم يروها شىء دون البلد الذى خرجت منه ، والأمر على هذا فيما ظهر من فتح الله ونصره على يد موسى بن نصير فى أفريقية والأندلس ، فقد كان فى ذلك أعجب العجب ، فكان وعد الله مفعولا ، ونصره للمسلمين ناجزا .

هذا ما كتبه الإمام السهيلى أنقله بنصه للحرصاء على فهم كتاب الله وما يتعلق به من آراء العلماء وأقوالهم ، وكأنى بالشيخ ـ رحمه الله ورضى عنه ـ أحب أن يظل متبعا لا مبتدعا ، وكيف يبتدع فيقول بعدم النسخ ، مع أنه هو نفسه يروى عن الحبر بن عباس أن فى الآية نسخا ، بدليل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾
(سورة الأنفال)

وإلا فإن ماساقه من الأمثلة دليل على أن المؤمنين الذين تمكن الايمان من قلوبهم ، كانوا وهم يجاهدون فى سبيل الله يحرصون على الموت حرصهم على الحياة ، فلم يفروا مع قلة عددهم من عدو أكثر منهم عددا وأقوى عدة ، وكان النصر حليفهم فى كل المعارك التى خاضوها ، وليس من شك فى أن نصر الله المؤمنين فى هذه الأمثلة التى ساقها الإمام وفى غيرها مما يطالعه العلماء ويرويه الأسلاف للأخلاف ، إنما كان قائما على سببين :

أحدهما : الصبر فى مواقف الجهاد صبرا جعل المؤمنين يواجهون الكثرة الكاثرة من الأعداء ثم ينتصرون عليهم .

والأمر الثانى : مضى وعد الله لهؤلاء بالظفر والإنتصار ، لا فرق فى ذلك بين الذين كانوا فى عصر النبوة والذين جاءوا من بعدهم ، ماضين على سنتهم مرتسمين فى مرضاة الله خطاهم ، ولقد أنكر الإمام أبو مسلم الأصفهانى هذا النسخ فى صراحة ووضوح ، مخالفا بذلك رأى من سبقه من العلماء الذين يقولون بالنسخ فى هذه الآية ، ومنهم حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه .

وخلاصة ما قاله أبو مسلم فى هذا المقام ، أن الله ـ تعالى ـ قال فى الآية الأولى :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ ﴾ (سورة الأنفال ٦٥)

فمهما كانت هذه الآية محمولة على الأمر لا على الخبر ، فقد كان ذلك مشروطا بكون العشرين قادرين على الصبر فى مقابلة المائتين . ولكن قوله :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ ﴾ (سورة الأنفال ٦٦)

يدل على أن الشرط غير حاصل فى حق هؤلاء ، فصار حاصل الكلام أن الآية الأولى على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، وهذه الآية دلت على أن ذلك الشرط مفقود فى حق هذه الجماعة ، فلا جرم ثبت ذلك الحكم ، وعلى هذا التقدير لم يحصل نسخ البقية .

وربما اعترض معترض على أبى مسلم ، فقال : إن لفظ التخفيف فى الآية :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ (سورة الأنفال ٦٦)

يشعر بأن هذا التكليف كان متوجها عليهم قبل هذا التخفيف ، ومن الممكن أن يقول الآخذون بنظر أبى مسلم ، ان لفظ التخفيف لا يدل على حصول الثقيل قبله ، لأن من عادة العرب أن يترخصوا بمثل هذا الكلام ، وفى القرآن ما يدل على ذلك من قوله ـ تعالى ـ عند الرخصة للحر فى نكاح الأمة :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ (سورة النساء ٢٨)

وليس هناك نسخ ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر ، فما يقال هناك هاهنا ، فلا نسخ فى الموضعين : المقيس والمقيس عليه .

ويمر بخاطرى فى هذه اللحظة ـ حول معنى الضعف الذى أقتضى التخفيف ـ كلام سمعته منذ أكثر من ثلاثين عاما ، من عالم جليل مجاهد هو الأستاذ حسن البنا رحمه الله ، وخلاصة ذلك الكلام أن الأمر بثبوت الواحد للعشرة والعشرة للمائة والمائة للألف ، أمر لا تنكره الفطرة السليمة حين يعرض لها ، وسنة الله فى خلقه تقتضيه وتدل عليه . وذلك أن المؤمنين حين يكونون قلة قليلة ، فإنهم يكونون أبعد شىء من التواكل ، ويجد كل واحد فى نفسه الشعور الواثق بأنه مسئول عن قضية الإيمان ، بل ربما شعر بأنه المسئول الفارد بالمسئولية عن هذه القضية ، وكلما كثر العدد جاء التواكل نتيجة للإطمئنان إلى الكثرة ، وهذا هو معنى الضعف الذى أقتضى التخفيف فى الآية الشريفة ، وهو معنى خليق بالنظر والتأمل والاعتبار .

ومما هو عسى أن يكون موضع تساؤ ل فى هذا المقام ، ما روينا ، عن الامام السهيلى فى الآية الشريفة من أن لها ظاهرا وباطنا .

وموضع التساؤ ل يقوم على أن اعتبار الباطن فى القرآن كان بابا نفذ منه أعداء الإسلام إلى تأويل آياته تأويلا يخرجه عن أن يكون دستورا صالحا لاقامة مجتمع إسلامى ثابت الأسس واضح المعالم ، لا تصرفه الشهوات ، ولا تلعب به الأهواء .

ومن أمثلة ذلك ، تفسير الباطنية الصيام بأنه الإمساك عن كشف السر ، وتفسير التيمم بالأخذ عن المأذون إلى أن يشاهد الداعى أو الامام ، وتفسير الكعبة بأنها النبى ـ ﷺ ـ وتفسير نار ابراهيم بأنها غضب النمروذ عليه .

فهذه التفسيرات يجب ردها لسببين : أولهما : عدم جريانها على مقتضى

الظاهر فى المقرر فى لسان العرب . وثانيهما : عدم وجود شاهد فى موضع آخر يشهد لصحتها .

وهذان السببان قائمان فيما ذهب اليه الإمام السهيلى ، ولهذا وجب قبول ما ذهب إليه . ولا نشك أنه ـ رحمه الله ـ لم يكن فى هذا الباب مبتدعا ، ولكنه كان متبعا ، ومثله لا يخفى عليه ماروى عن ابن عباس فى تأويله سورة « النصر » ، وماروى عن عمر فى تأويله قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة ٣)

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان عمر يدخلنى مع أصحاب النبى ﷺ ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أندخله ولنا بنون مثله ؟ . فقال له عمر : أنه من حيث تعلم . ثم سألنى عمرعن هذه الآية :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾ (سورة النصر ١)

فقلت : إنما هو أجل رسول الله ـ ﷺ ـ أعلمه الله اياه ، ثم قرأ ابن عباس السورة إلى آخرها . فقال عمر : والله ما أعلم الا ما تعلم ، فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يسبح بحمد ربه ويستغفره إذا نصره الله وفتح عليه ، وأما باطنها فهو أن الله نعى إلى نبيه نفسه .

ولما نزل قول الله تعالى ـ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (سورة المائدة ٣) فرح أصحاب النبى وبكى عمر قائلا : ما بعد الكمال إلا النقصان . فاستشعر نعيه عليه الصلاة والسلام . فما عاش رسول الله ـ ﷺ ـ بعدها الا أحدا وثمانين يوما .

والآية التاسعة : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ ﴾ (سورة النحل)

فكلمة التبديل وما يتضمن مادتها ويجرى مجراها ، وردت فى القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة ، وهى فى استعمال القرآن تتردد بين صور ثلاث :

الصورة الأولى : أن تأتى مقترنة بحرف الباء ، كما فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة البقرة)

وكما فى قوله سبحانه :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ (سورة البقرة ٦١)

والباء فى هذا الاستعمال تدخل على ما يزهد فيه وليس على ما يحرص عليه ، وهذا موطن يزل فيه كثير من الكتاب ، فيفوتهم إلحاق حرف الباء بالمتروك ، فيستعصى عند ذلك الفهم والإفهام .

والصورة الثانية : أن تجىء مقارنة كلمة « مكان » ، كما فى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

فقد قارنت كلمة « مكان » كلمة « بدلنا » فى هذه الآية ، يعنى أنه جلت قدرته أعطى هؤلاء القوم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ، الرخاء والصحة والسعة ، ليبلوهم فيما آتاهم على ما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (سورة الأعراف ١٦٨)

وبعدما أعطاهم الله ـ تعالى ـ ذلك ، كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم ، وهو معنى قوله سبحانه « حتى عفَوْا » والعرب تقول : عفا النبات وعفا الشحم وعفا الوبر ، إذا كثرت ، ومن ذلك قوله ﷺ : « أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى » .

ومنه قول الشاعر :

ولكنا نُعِض السيف منها ... بأسوق عافيات الشحم كرم

يريد الشاعر أن يقول إن قومه كرام ، يضربون بالسيوف سيقان النوق العافيات يعنى السمان كثيرات الشحم ، تكرمة لمن يفد عليهم من الضيوف .

ومثال آخر تقارن فيه كلمة « مكان » كلمة « الاستبدال » ، وذلك قول الله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة النساء)

وذلك أن الرجل كان إذا طمحت عينه إلى استطراف امرأة ، بهت التى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها إلى الإفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها ، والبهتان فيما يقول جار الله ، أن تستقبل الانسان بأمر قبيح تقذفه به وهو برىء منه ، لأنه يبهت عند ذلك ويتحير ، كما يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ (سورة البقرة ٢٥٨)

والصورة الثالثة : أن تجىء الكلمة غير مقترنة بحرف « الباء » ، ولا مقارنة كلمة « مكان » ، وذلك فى القرآن الكريم كثير ، ومنه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ (سورة البقرة ١٨٠)

وقوله ـ جل ـ شأنه : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الفرقان)

هذا ما يتعلق بكلمة « بدل » فى الآية الشريفة ، فأما ما يتعلق بمعنى الآية من حيث هى منسوخة أو غير منسوخة ، فهاهنا مذهبان :

ـ مذهب يرى أصحابه أن المراد بالآية هنا ، الآية من القرآن ، على ما يروى القرطبى عن مجاهد وعن الجمهور ، وعلى ذلك يكون المعنى : وإذا رفعنا آية من القرآن وجعلنا موضعها غيرها .

ـ ومذهب آخر يرى أصحابه أن المراد بالآية هنا ، الشريعة ، وعلى هذا يكون معناها : وإذا بدلنا شريعة مستأنفة بشريعة متقدمة ، أو آية فى شريعة متأخرة بآية فى شريعة متقدمة ، قال الكفار : إن محمدا يفترى ويزعم كاذبا أنه مبلغ عن الله ، والله تعالى أعلم أى الأحكام أصلح للزمان وللمكان .

رأى أبي مسلم
فـــى عـــدم القول بالنسخ فى
آيـــات القـــرآن

وهذا المذهب فى عدم القول بالنسخ فى آيات القرآن ، يراه ويقيم الدليل عليه الإمام الجليل أبو مسلم الأصفهانى ، فيقول - رحمه الله - إن النسخ غير واقع فى هذه الشريعة ، والمراد : وإذا بدلنا آية فى الكتب المتقدمة ، مثل أنه حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، قال المشركون أنت مغتر فى هذا التبديل .

ومقتضى الجرى على ما ذهب إليه أبو مسلم فى هذه الآية ، يحملنا على ذكر مثال آخر يتضح به نسخ الآية فى الشرائع المتقدمة بالآية فى شريعة الإسلام ، وقد أشار إلى هذا المثال الإمام ابن القيم فى كتابه (اعلام الموقعين) حول قصة أيوب - عليه السلام - فى قول الله - تعالى - فى سورة « ص » :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة ص)

وخلاصة قصة أيوب - عليه السلام - أنه كان قد أصيب بالضر فى البدن وبالعذاب فى ذهاب الأهل والمال ، فلما علم الله منه حسن الصبر على البلاء ، منحه نعمته فعافاه فى بدنه ، فى التخفيف عنه فى زوجه ، فأباح له - سبحانه - أنه يأخذ بيده

ضغثا فيضرب به زوجه ، وقد كان حلف فى مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ ، فحلل الله يمينه بأهون شىء عليه وأهون شىء عليها أيضا ، لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وكان السبب فى يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة فى حاجة ، فحرج صدره فأقسم ليضربنها مائة ، فرخص الله له فى جمع المائة فى ضغث ، يعنى فى حزمة من ريحان أو حشيش ، ثم يضرب بها زوجه مرة واحدة حتى لا يحنث فى يمينه ، وذلك لأن شريعة أيوب لم تكن فيها لليمين كفارة ، وكان على الحالف أن يبر فى يمينه ولا يحنث ، لأن كفارة الإيمان لم تكن شريعة لأيوب ـ عليه السلام ـ وكانت الشرائع قبل الشريعة الإسلامية ، إما البر وإما الحنث ، فلما أرسل الله محمدا ـ ﷺ ـ كان رسالته رحمة للعالمين ، فإذا حلف مسلم فإما أن يبر فى يمينه وإما أن يحنث ، وفى الحنث كفارة يمحو الله ـ تعالى ـ بها الذنوب ويستر العيوب ، على ما تشير اليه الآية الكريمة فى سورة « المائدة » :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (سورة المائدة)

فهذه الآية فى شريعتنا نسخت بكفارة اليمين فى الحنث الآية السابقة فى شرائع من قبلنا التى لا تسمح بالحنث ولا تجعل له كفارة ، كما أشار إلى هذا المعنى آنفا الامام أبو مسلم الأصفهانى رحمه الله .

ولعل هذا الذى نرويه عن الامام ابن القيم فى قصة أيوب وزوجته ، يعين على توضيح الآية الكريمة :

﴿ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (سورة البقرة ١٠٦)

فإن الخيرية فى هذا المقام تتمثل فى التكفير عن اليمين ، حتى لا يتعرض المؤمن لسخط الله بالحنث .

هذا . والمفسر الفاضل جمال الدين القاسمى ـ فيما يظهر من عبارته ـ يميل إلى تأييد رأى أبى مسلم فى هذه الآية ، ونحن نورد نص عبارته نقلا عن كتابه (محاسن التأويل) .

فقد قال رحمه الله :

التبديل رفع الشىء مع وضع غيره مكانه ، فتبديل الآية رفعها بآية أخرى ، والأكثرون على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظا أو حكما بآية أخرى غيرها محكمة ، أشير اليها بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ (سورة النحل ١٠١) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به .

ومضى الشيخ ـ رحمه الله تعالى : يقول :

وذهب قوم إلى أن المعنى هو تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين كآية موسى وعيسى وغيرها من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهو كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا ثنية لها وجرى على نظام الفطرة ، وذلك لإستعداد الإنسان ـ وقتئذ ـ لأن يخاطب عقله ، ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف ، فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبى أمى لم يقرأ ولم يكتب .

هذا كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ وقد سبق أن قلنا فى هذا المعنى كلاما ، ربما كان أبين وأوضح وأكثر تفصيلا .

(٩)

تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة المجادلة)

فكلمة « **النجوى** » مصدر بمعنى التناجى ، وهو تناول الحديث سرا بحيث لا يدركه غير المتناجين ، والعرب تقول : فلان نجى فلان ، يعنون أنه مناجيه دون أصحابه ، وتقول : انتجيت فلانا ، اختصصته بمناجاتى وجعلته نجيّ ، وقد توسعوا فى إستعمال هذه المادة فقالوا : إن الهموم تتنجىّ فى صدر فلان وتناجى ، وبات الهم يناجيه ، قال شاعرهم :

أجدك ما تزال نجيَّ هم تبيت الليل أنت له ضجيع

وربما قال قائلهم : باتت فى صدر فلان نجيه قد أسهرته ، وهى ما يناجيه من الهم ، وأصابته النجَّواء ، يعنون حديث النفس .

قال الزجاج : النجوى مشتقة من النجوة ، والنجوة ما ارتفع ، ونجا ، قال : فالكلام المذكور سرا لما خلىٌ عن إستماع الغير صار كالأرض المرتفعة ، فإنها من أجل ارتفاعها خلت عن إتصال الغير . ويجوز جعل النجوى وصفا ، فيقال : قوم نجوى ، يعنى أنهم ذو نجوى ، فحذف المضاف من أجل المبالغة ، كقولك : رجل

عدل ، تعنى أنه ذو عدل ، فإذا حذفت كلمة « ذو » وقلت : رجل عدل ، فقد بالغت فى نسبته إلى العدل حتى جعلته كأنه العدل نفسه ، فكذلك قولك : هم نجوى ، تعنى المبالغة حتى كأنهم النجوى نفسها ، وذلك لأنهم بالغوا فى كتمان أمرهم كتمانا شديدا ، وحرصوا على سرهم حرصا بالغاً ، حتى لا يفتضح أمرهم ويتعرضوا للعقوبة أو للانكشاف ، ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ يصف أعداء رسول الله ﷺ من المنافقين :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (سورة الاسراء)

وفى الآية التى نحن فى صدد الحديث عنها ، أدب رفيع من أدب الله لعباده المؤمنين ، وقد اشتملت على أنواع من الفوائد :

أولها : إعظام رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وإعظام مناجاته ، وذلك أن الانسان إذا وجد الشىء مع المشقة ، فإنه يستعظمه ولا يسرف فى الأخذ به .

ثانيها : التخفيف على النبى ـ ﷺ ـ لأن أرباب الحاجات كانوا يلحون عليه ويشغلون أوقاته .

وثالثها : نفع الفقراء بالصدقة المقدمة قبل المناجاة ، تمشيا مع نظرة القرآن الكريم إلى قيمة بذل المال فى تحسين أحوال المجتمع ، ودفع طغيان الغنى عن الأغنياء ، وتخفيف وطأة الفقر على الفقراء .

ورابعها : ما أشار اليه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من أن المسلمين كانوا قد أكثروا المسائل على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شق ذلك عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة .

وهذا الذى أشار اليه حبر القرآن ابن عباس ، إنما هو من الأمور الموصولة بالفطرة الإنسانية ، فإن كل انسان يسعده أن يشعر الآخرين بأنه قريب من سيد القوم ، والمناجاة تقوم دليلا على شدة القرب وقوة الصلة ، وهى على قدر ما تكون مسعدة للمناجِى تكون متعبة للمناجَى ومشقة عليه ، ورسول الله ـ ﷺ ـ بأرفع المنازل عند المؤمنين وغيرهم ، فكان يطيب لكثير منهم ـ مخلصين فى إيمانهم أو غير مخلصين ـ أن يقدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ يناجونه على رؤوس الأشهاد ، لإيهام الناس أنهم مقربون اليه وأصحاب أثرة لديه عليه السلام .

وقد رأينا نحن فى زماننا هذا صورا تؤكد هذا المعنى وتزكيه ، فإذا أراد أى انسان أن يدل على مكانته الرفيعة واختصاصه بكبير من كبراء الدولة أو رئيس من رؤسائها ، فإن أيسر السبل إلى ذلك أن يتظاهر بمناجاته ، ليدل الناس على أنه ذو جاه عنده وذو أثرة لديه . والإنسان هو الإنسان ، لا تختلف طبيعته بإختلاف الأزمنة والأمكنة .

والعلماء بكتاب الله ـ تعالى ـ يذهبون حيال هذه الآية مذهبين :

فبعضهم يقول أنها منسوخة ، نسخ آخرها أولها ، وليس لقائل أن يقول : كيف ينسخ آخر الآية أولها ، وآخرها متصل بأولها ، فإن العلماء لا يرون مانعا من ذلك ، لأنه لا يلزم من كون الآيتين متصلتين فى التلاوة أنهما متصلتان فى النزول ، وهذا كما فى الآية الدالة على وجوب الاعتداد بأربعة أشهر وعشر ، من حيث كانت ناسخة للاعتداد بحول ، وان كان الناسخ متقدما فى التلاوة على المنسوخ .

وربما بالغ بعض القائلين بالنسخ ، فقالوا : إن تكليف المؤمنين تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ، لم يستمر إلا ساعة من النهار ثم نسخ ، كما هو قول الكلبى ، وقال مقاتل : إن ذلك التكليف بقى عشرة أيام ثم نسخ .

وقد روى عن على ـ عليه السلام ـ أنه قال : إن فى كتاب الله الآية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى . . كان لى دينار فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت رسول الله ـ ﷺ ـ قدمت بين يدى نجواى درهما ، ثم نسخت الآية فلم يعمل بها أحد .

وفى ضوء هذه الروايات عن الكلبى ومقاتل وعلى ـ عليه السلام ـ حيال هذه الآية ، لابد من وقفة نسأل فيها القائلين بالنسخ فى القرآن : إنكم بررتم النسخ بأن

الخالق تعالى قد ربى هذه الأمة العربية فى ثلاث وعشرين سنة ، تربية تدريجية لاتتم لغيرها بواسطة الفواعل الاجتماعية فى قرون عديدة ، وبهذا كانت تنزل عليها الأحكام بحسب قابليتها ، ومتى ارتقت قابليتها بدل الله ذلك الحكم ، فهل يستقيم مع منطقكم هذا أن يأمر الله هذه الأمة بحكم ثم ينسخه بعد ساعة أو بعد عشرة أيام ، أو لا يعمل به إلا فرد واحد ثم ينسخ ؟ .

هذا . والإمام الجليل أبو مسلم الأصفهانى ـ رحمه الله ـ ينكر النسخ فى الآية جريا على مذهبه فى إنكار النسخ فى القرآن ، ويقول فى هذه الآية : إن المنافقين كانوا يمتنعون عن بذل الصدقات ، وإن قوما من المنافقين تخلوا عن نفاقهم وأخلصوا ايمانهم لله ظاهرا وباطنا ، فكانوا مؤمنين إيمانا خالصا ، وأراد الله ـ تعالى وعز ـ أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليتميز هؤلاء الذين آمنوا ايمانا حقيقيا عمن بقى على نفاقه الأصلى . قال ـ رحمه الله ـ : وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

وقد أراد صاحب « مفاتيح الغيب » أن يزيد كلام الإمام أبى مسلم وضوحا ، فقال : وحاصل قول أبى مسلم ذلك التكليف كان مقدرا بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء من الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخا .

قال صاحب المفاتيح : وهذا الكلام حسن ليس به بأس .

ولا يرتاب منصف لنفسه مكرم لها عن البقاء فى مواطن التقليد فى أن نسخ آيات من القرآن ما لم تدع إليه الضرورة الملحة إنما هو خلاف الأصل ، وأن الأصل هو عدم النسخ ، فإذا استطاع عالم جليل أو علماء أجلاء من أمثال الإمام أبى مسلم الأصفهانى أن يحملوا الآيات الموسومة بالنسخ على أنها غير منسوخة ، فلا شك فى أن هذا أدنى إلى الخير وأشبه بالحق وأقرب إلى الاعتقاد . ولا شك أيضا فى أن حمل معنى آيات النسخ على نسخ الشرائع السابقة بشريعة الإسلام ، أشد وفاقا لكون هذه الشريعة خاتمة الشرائع ، وكون محمد رسول الله ـ ﷺ ـ خاتم النبيين والمرسلين .

ذلك هو ما يصح للانسان أن يعتقده فى نفسه وأن يدعو الآخرين إلى إعتقاده ، فذلك أحكم وأسلم ، وهو الطريق السوى إن شاء الله .

والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١٠)

تفسير قوله جل ثناؤه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فأول ما ينبغى أن يبدأ به الحديث حول هذه الآية ، هو أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، كان بغير شك مؤمنا بقدرة الله على إحياء الموتى ، إيمانا لا يرقى إلى سمائه غبار الشكوك والأوهام . وقد أراد بسؤاله هذا أمرا يزيد إيمانه ويضاعف يقينه ، فأعطاه الله ـ تبارك وتعالى ـ مثالا من الحس ، تتضح به صورة إحياء الموتى والمعانى المجردة حين توضح فى صور تدركها الحواس ، تكون أبين جلاء وأتم وضوحا .

والذين يتأملون كتاب الله يرونه فى مجال إقامة الحجة ، يضع المعانى المجردة فى صور حسية ، يزداد بها إيمان المؤمن ، وتتضح بها لغير المؤمن سبل الإيمان . وهذه الصور الحسية منبثة فى القرآن الكريم إنبثاثا لا يستعصى على رائديه . فمن ذلك قول الله ـ عز وجل ـ فى سورة « الرعد » :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ ﴾ (سورة الرعد ١٤)

فالمعنى المجرد الذى أشارت اليه هذه الآية ، هو أن الذين اتخذهم الكافرون أولياء

من دون الله يفزعون إليهم ، لا يقدرون على جلب النفع لهم ، ولا دفع الضر عنهم . والصورة الحسية لهذه الصورة المعنوية هى أن هؤلاء الكفار فى دعائهم آلهتهم هذه ، مثلهم كمثل من يبسط كفيه إلى الماء ويريده أن يبلغ فاه ، والماء لا يشعر بمن يبسط إليه كفه طلبا للرى ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه فيبلغ فاه .

ذلك هو الفرق بين المعنى يذكر مجردا ، والمعنى يذكر فى صورة تدركها الحواس .

فابراهيم ـ عليه السلام ـ كان يطلب صورة حسية تنطوى على المعنى المجرد للإيمان بقدرة الله على إحياء الموتى ، وقد اعطاه الله ـ تعالى ـ هذه الصورة ، لا لتغرس الإيمان فى نفسه ، فان إيمانه موجود لا شك فيه ، ولكن لتزيده قوة واستمساكا من حيث كانت الصورة الحسية فى مجتلى الأعين تظاهر الصورة المعنوية فى أعماق النفوس . ومن أجل هذا أجاب الله ـ تعالى ـ إبراهيم على دعائه قائلا : « **أو لم تؤمن** » فقال عليه السلام : « **بلى** » يعنى آمنت ولكننى أطلب ذلك ليطمئن قلبى ، يعنى ليزيد سكونا وطمأنينة بمظاهرة المحسوس للمعقول .

فتفضل الله ـ تعالى ـ عليه بإعطائه الدليل القائم على الحس والعيان ، لمظاهرة الدليل القائم على الحجة والبرهان . وقال ـ جل ثناؤه ـ :

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ (سورة البقرة ٢٦٠)

وفى هذا يقول صاحب « مفاتيح الغيب » :

أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن ، وعلى أن ابراهيم قطع أعضاءها وروى أنه ـ عليه السلام ـ أمر بذبحها ونتف ريشها وتقطيعها جزءا جزءا ، وخلط دماءها ولحومها وأن يمسك رؤوسها ، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال ، على كل جبل ربعا من كل طائر ، ثم يصيح بها : « تعالين بإذن الله » .

قال الراوى : فأخذ كل جزء يطير إلى الآخر حتى تكاملت الجثث ، ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها ، وأنضم كل رأس إلى جثته ، وصار الكل أحياء باذن الله تعالى .

كذلك قال صاحب « مفاتيح الغيب » ، مدعيا الإجماع على هذا الذى قاله .

وليس يستطيع منصف أن يقبل القول بالإجماع على هذه الصورة ، ولا هو يستطيع أن يتصور إجماعا بغير أن يكون فيه مثل أبى مسلم الأصفهانى ، فكيف وأبو مسلم ينكر هذا الذى قيل ، فيقول : إن ابراهيم ـ عليه السلام ـ لما طلب إحياء الميت من الله ـ تعالى ـ أراد الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه ، وعلينا أن نفهم من الكلمة القرآنية : « صرهن اليك » الإمالة والتمرين على الإجابة ، يعنى ـ جل ثناؤه ـ : خذ أربعة من الطير فمرنها تمرينا تعتاد به إن أنت دعوتها أن تأتيك ، فإذا صارت كذلك واعتادته وقبلت التمرين ، فاجعل على كل جبل من هذه الطيور الأربعة واحدا حال حياته ، ثم ادع الجميع يأتينك سعيا .

قال أبو مسلم : والفرض ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة ، وأنكر ـ رحمه الله ـ أن يكون المراد من كلمة « صرهن » قطعهن ، ومضى يحتج لرأيه هذا بوجوه :

أولها : أن كلمة « صر » معناها فى اللغة : الإمالة ، وأما التقطيع والذبح فليس فى الآية ما يدل عليه ، فكان إدراجه فى الآية إلحاقا وزيادة بغير دليل ، وهذا لا يجوز .

وثانى الوجوه : أنه لو كان المراد بكلمة « صرهن » قطعهن ، لم يقل إليك ، فإن الكلمة عندئذ لا تتعدى بحرف « إلى » ، وإنما يتعدى الفعل بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة . فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن يعنى فقطعهن ، قلنا لهذا القائل : إن التزام التقديم والتأخير من غير دليل ملجىء إلى ذلك التزام بغير ملزم ، وهو خلاف الظاهر .

وثالث الوجوه : أن الضمير فى كلمة « ثم ادعهن » عائد إلى الأربعة من الطير لا إلى الأجزاء . وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة ، وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء ، فإنه يلزم أن يكون الضمير عائدا إلى تلك الأجزاء لا إليها ، وهو خلاف الظاهر . وأيضا الضمير فى كلمة « يأتينك سعيا » عائدا إليها لا إلى أجزائها .

ذلك رأى أبى مسلم وتلك حججه ، ومهما يكن من أمر فإن رأيه ـ رحمه الله ـ أدنى إلى القبول بأيسر كلفة ، من حيث كان غير محوج إلى تقدير محذوف لفهم الآية ، ثم من حيث كانت اللغة نصيرا له أى نصير . فإن هذه المادة تعطى معنى

الميل ، كما تقول : إنى إليكم لأصور أى مشتاق مائل ، ومنه قول الشاعر :

الله أعلم أنا فى تلفتنـــا يوم الفراق إلى جيراننا صـــور

فصور جمع أصور وصوراء ، مثل أسود وسوداء .

ومن ذلك قول الطِّرِمَّاح :

عفائف إلا ذاك أو أن يصورها هوى ، والهوى للعاشقين صروع

فمعنى أو أن يصورها هوى : يميلها هوى . وعلى هذا فمعنى قوله ـ سبحانه ـ : فصرهن إليك ، أملهن إليك ووجههن نحوك ، كما يقال : صر وجهك إلى ، أى أقبل به على . وهذا البيت مذكور فى جملة أبيات رواها عالم فى تعليقه على تفسير شيخ المفسرين ابن جرير ، وهى :

إذا ذكـرت سلمى لـه فكـأنمـا تغلغـل طفـل فى الفؤاد وجيـع
وإذ دهـرنـا فيـه اغتـرار وطيـرنـا ســواكـن فـى أوكـارهـن وقـوع
قضت من عياف والطريدة حاجة فهن إلى لهـو الحـديث خضـوع
عفـائف إلا ذاك أو أن يصـورهـا هـوى والهـوى للعـاشقين صـروع

ومعنى الأبيات ، أن عيافا والطريدة لعبتان من لعب صبيان الأعراب ، فالشاعر يقول إن سلمى وأترابها قد أدركن وكبرن فترفعن عن لعب الصغار والأحداث ، وحبب إليهن الغزل والحديث فهن يخضعن له ويملن إليه ، ولكنهن عفيفات مسلمات ، ليس لهن من نزوات الصبا إلا الأحاديث والغزل ، وإلا أن يعطف قلوبهن ويميلها العشق والهوى ، والهوى صروع قتّال .

(١١)

تفسير قوله جل ثناؤه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ (سورة النساء)

هذه ثالث آية من سورة النساء ، وهى السورة التى اشتملت على أحكام أنصفت المرأة ، وجعلت لها فى المجتمع الإسلامى منزلة رفيعة ، بعد أن كانت - قبل الاسلام - فى الطفولة موءودة ، وبعد الطفولة محقورة .

والآية الأولى - مفتتح السورة الكريمة - تدعو الناس إلى التراحم والتعاطف فيما بينهم ، لأنهم جميعا أولاد لأب واحد وأم واحدة ، ثم تقرن اتقاء الله - تعالى - إلى اتقاء الأرحام .

والآية الثانية تحث المؤمنين على إعطاء اليتامى أموالهم ، غير مقارفين الإثم ، ولا مستبدلين الخبيث بالطيب ، وذلك مضيا مع واجب التقوى لله بعدم المعصية ، وواجب التقوى للرحم بعدم القطيعة .

ثم تجىء الثالثة التى نحن بصددها ، وفيها يتجه خطاب الله - عز وجل - للمؤمنين حول شريعة تعدد الزوجات .

وحاصل المعنى فيما رواه عروة بن الزبير عن خالته عائشة أم المؤمنين ، أنه قال :

يا أم المؤمنين ، أرأيت قول الله - تعالى - :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾

(سورة النساء ٣)

قالت عائشة : يا ابن أختى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سُنَّة صداق نسائها[1] فنهوا عن ذلك ، وأمروا أن يتركوهن وأن يتزوجوا سواهن من النساء . . ثم قال عروة : قالت عائشة : إن الناس إستفتوا رسول الله ـ ﷺ ـ بعد هذه الآية فيهن ، فأنزل الله من سورة « النساء » :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ (سورة النساء)

ثم قالت عائشة : والذى ذكر الله أن يتلى عليكم فى الكتاب هو الآية التى قال فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (سورة النساء ١٢٧)

وروى على بن طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال فى تفسير الآية : كان الرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة ، فيلقى عليها ثوبه ، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها ، فإن كانت جميلة وهويها ، تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها ، فحرم الله ـ تعالى ـ ذلك ونهى عنه .

ذلك معنى الآية فيما روى عن ابن عباس ، والمعنى فيما ذهبت إليه عائشة : وإن خفتم يا أولياء اليتامى إذا تزوجتموهن ألا تعدلوا فيهن بنقص الصداق أو بإساءة العشرة ، فاتركوهن وتزوجوا غيرهن من الغريبات ، والله ـ تعالى ـ لم يضيق عليكم فى ذلك ، بل جعل لكم متسعا إلى الأربع ما وجدتم إلى العدل بينهن سبيلا ، فإن خاف أحدكم ألا يعدل فى أربع فثلاث ، وإن خاف ألا يعدل فى ثلاث فثنتان ، وإن خاف ألا يعدل فى ثنتين فواحدة ، وإن خاف الجور فى أمر الواحدة ، بألا يقدر على إنصافها وتوفية حقوقها ، فليس له أن يتزوج الحرائر والمهائر ، وله أن يتخذ سُرِيَّة فإن ذلك أحرى أن يجنبه الجور ، وإن يباعد بينه وبين الإثم .

(١) المعنى باقل من مهر المثل .

وقد أوضح الزبير بن بكار معنى الإقساط فى الواحدة ، حيث قال ـ رحمه الله ـ : حدثنى إبراهيم الجزامى عن محمد بن معن الغفارى : أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقالت : يا أمير المؤمنين ، إن زوجى يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل . فقال لها عمر : نعم الزوج زوجك .

ثم جاءته للمرة الثانية فقالت مثل ما قالت أولا ، وقال لها ـ رضى الله عنه ـ مثل ما قال . وجعلت المرأة تكرر عليه القول ويكرر عليها الجواب ، وكأنه ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ فهم أن المرأة إنما أرادت الثناء على زوجها عنده . وكان بحضرته كعب الأسدى فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن هذه المرأة تشكو زوجها فى مباعدته إياها عن فراشه . فقال لها عمر : يا كعب ، أما وقد فهمت ما أرادت ، فاقض بينها وبين زوجها . وأمر به فدعى إليه ، فلما مثل قال له كعب : إن امرأة هذه تشكوك . قال الزوج : أفى طعام أو شراب ؟ . قال كعب : لا فى طعام ولا فى شراب . فقالت الزوجة تخاطب كعبا وقد خلعت عليه صفة القاضى :

يا أيها القاضى الحكيم رشَده ألهى حليلى عن فراشى مسجده
نهاره وليله ما يرقده فلست فى أمر النساء أحمده

فقال كعب :

إن لها عليك حقا يا رجل نصيبها فى أربع لمن عقل
فأعطها الحق ودع عنك العلل

وتابع كعب حديثه فقال :

إن الله ـ عز وجل ـ قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وليس لك سوى هذه الزوجة ، فلك ثلاثة أيام بلياليهن تعبد ربك فيهن ، ولها ليلتها ويومها .

ولما سمع عمر هذا الحديث من كعب ، التفت إليه يقول له : والله ما أدرى من أى أمر بك أعجب ؟ . أمن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينهما ؟ . إذهب يا كعب فقد وليتك قضاء البصرة .

وقضاء كعب هذا ، ينظر إلى قضاء رسول الله ـ ﷺ ـ فى مثل هذه الحال ، فعن

أنس بن مالك قال : أتت النبى ـ ﷺ ـ تستعدى على زوجها فقالت : يا رسول الله ، ليس لى ما للنساء ، فإن زوجى يصوم الدهر ، فقال ـ عليه السلام ـ : « لك يوم وله يوم ، للعبادة يوم وللمرأة يوم » .

بهذا الحديث الشريف ، وبتلك القصة ، يتبين المعنى فى عدم الإقساط إلى الواحدة وفى أن من لا يستطيع القيام بحقها من المطعم والمشرب والمنكح ، فليس له أن يتزوج .

هذا . ومع أن أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ كانت من الفقه بالشريعة بالمنزلة الرفيعة لقربها من رسول الله ـ ﷺ ـ فإن إمام المفسرين ابن جرير الطبرى أخذ برأى ابن عباس وابن جبير وقتادة دون رأيها ، وتأويل الآية عندهم : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فتحرجتم عن أكل أموالهم ، فكذلك فخافوا فى النساء فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن ، من واحدة إلى أربع ، فإن خفتم الجور فى الواحدة أيضا فلا تنكحوها ، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم ، فإنه أحرى ألا تجوروا .

قال ابن جرير : وإنما قلنا إن ذلك أولى بتأويل الآية ، لأن الله ـ جل ثناؤه ـ افتتح الآية قبلها بالنهى عن أكل أموال اليتامى بغير حقها ، وخلطها بغيرها من الأموال فقال ـ تعالى ذكره ـ : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (سورة النساء ٢)

ثم أعلم ـ سبحانه ـ المؤمنين أنهم إن اتقوا الله فى ذلك فتحرجوا فيه ، فالواجب عليهم من إتقاء الله والتحرج فى أمر النساء ، مثل الذى عليهم من التحرج فى أمر اليتامى . ثم أعلمهم ـ جل ثناؤه ـ كيف المخلص لهم من الجور فيهن ، كما عرفهم المخلص من الجور فى أموال اليتامى ، فقال : إنكحوا إن أمنتم الجور فى النساء على أنفسكم فى أمر الواحدة ، فإلا تقدروا على إيفائها حقها ، فلا تنكحوها ، ولكن تسروا من المماليك ، فإن ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور .

ومخالفة الإمام الطبرى أم المؤمنين على علمها وفقهها فى إختياره رأيا غير رأيها ليست أول مخالفة لها ، فقد خالفها كثيرون نذكر منهم مجاهدا ـ رحمه الله ـ وذلك فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (سورة النور ٣١)

فقد كانت ـ رضى الله عنها ـ ترى أن السوار فى يد المرأة من الزينة الظاهرة التى يجوز إبداؤها ، على حين كان مجاهد يخالفها فيرى السوار من الزينة الباطنة التى لا يجوز إبداؤها .

وهذه المخالفات من الأمور الجليلة الموصولة بحرية الرأى فى الإسلام ، فلا ضير على المسلم أن يخالف غيره ، ولو كان ذلك الغير عائشة أم المؤمنين ، ما دام فى حدود اللغة ومقاصد الشريعة .

تلك خلاصة موجزة لما أثر عن الأسلاف ـ رضى الله عنهم ـ حول تفسير هذه الآية الكريمة من كتاب الله .

المدافعـــــون
عـن شريعة التعــدد

وقد تعرض تعدد الزوجات الذى تضمنته الآية الشريفة لحملات عنيفة ، أثارها خصوم الإسلام ، وتأثر بها كثير من المسلمين ، ودافع عنها الغيارى على شريعة الله ، والحرصاء على شرعة الإنصاف ، وهم من الكثرة ونباهة الذكر ، بحيث لا يخفون على من يريد التعرف عليهم .

ولعل الذين تولوا الدفاع عن شريعة التعدد من غير المسلمين ، أحق بالذكر فى هذا المقام ، من حيث كان يظن بالمسلم الذهاب مع داعية التعصب للدين ، ولكن مثل هذا الظن ينتفى إذا كان المدافع من غير المسلمين .

وفى ذروة المدافعين عن هذا التشريع ، العالم الفرنسى الأستاذ جوستاف لوبون فقد دافع عن وجهة النظر الإسلامية دفاعا يتسم بالإنصاف ، على مقدار ما يتسم بقوة الحجة ، وذلك حيث يقول :

لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذى كان موجودا قبل ظهوره ، بل كان ذا تأثير عظيم فى حال المرأة فى الشرق ، وقد رفع الإسلام منزلة المرأة الاجتماعية وشأنها رفعا عظيما ، بدلا من خفضها ، خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى . فالقرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية أحسن مما كان فى أكثر قوانيننا الأوربية . نعم ، أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوربا التى قالت به ، ولكنه أشترط أن يكون للمطلقات متاع بالمعروف وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام فى أحوال النساء ، هو أن نبحث فى حالهن قبل القرآن وبعده .

لقد كان الرجال قبل ظهور محمد يرون منزلة النساء وسطا بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه ، أعنى يرون المرأة أداة للاستيلاد والخدمة ، وكانوا يعدون ولادة البنات مصيبة . وشاعت عادة الوأد وصار لا يجادل فيها ، كما لو كانت البنات جراء[1] يقذف بها فى الماء

---

(١) جمع جرو وهو الكلب الصغير .

وإذا أردنا أن نعرف درجة تأثير القرآن فى أمر النساء ، وجب علينا أن ننظر إليهن أيام إزدهار حضارة العرب ، فقد كان لهن فى ذلك الزمان من الشأن ما أتفق لأخواتهن حديثا فى أوربا ، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم . فالإسلام - إذن - لا النصرانية هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، وذلك خلافا للاعتقاد الشائع .

وإن أنت تصفحت كتب تاريخ نصارى الدور الأول من القرون الوسطى ، رأيتهم لا يرعون للنساء حرمة ، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظا نحو النساء قبل أن يتعلموا من العرب احترام المرأة ومعاملتها بالحسنى . ومن ذلك ما جاء فى تاريخ غاران عن سوء معاملة النساء فى عصر شارلمان ، وعن سوء معاملة شارلمان نفسه لهن ، فقد أنقض القيصر شارلمان على أخته فى أثناء جدال ، ممسكا بشعرها وراح يضربها ضربا مبرحا ، حتى كسر بقفازه الحديدى ثلاثا من أسنانها ، ولو أن مثل هذا الجدال حدث مع سائق عربة فى الوقت الحاضر ، لبدا هذا السابق أرق من القيصر بلا ريب .

ومن الأدلة على أهمية النساء أيام نضارة الحضارة العربية ، كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية ، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن فى العصر العباسى فى الشرق ، والعصر الأموى فى أسبانيا .

ومن هنا نستطيع أن نكرر قولنا : إن الإسلام الذى رفع المرأة كثيرا ، بعيد من أن يخفض شأنها ويحط منزلتها . ولسنا أول من دافع عن هذا الرأى ، فقد سبقنا إلى مثله : « كوسان دى برسفال » ثم مسيو « بارتلى سانت هيلير » .

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة ، بل إنه أول دين فعل ذلك . ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التى جاءت قبل العرب ، أساءت إلى المرأة . فقد كان الأغارقة على العموم يعدون المرأة من المخلوقات المنحطة ، التى لا تنفع لغير النسل وتدبير المنزل ، وكانت إذا وضعت ولدا دميما قضوا عليها . وكانت المرأة سيئة الحظ هى التى لا تضع فى أسبارطة ولدا قويا صالحا للجندية ، فكانت عند ذلك تقتل ، وكانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها بطريق العارية لكى تلد للوطن أولادا من رجل آخر . ولم ينل حظوة من نساء الإغريق فى دور إزدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى . وكان جميع قدماء المشترعين يظهرون مثل تلك القسوة

على المرأة ، ومن ذلك ما تقوله شرائع الهندوس : ليس المصير المقدر ولا الريح ولا الموت ولا الجحيم ولا السم ولا الأفاعى ولا النار أسوأ من المرأة .

ولم تكن التوراة أرحم بالمرأة من شرائع الهند ، فمن ذلك قول سفر الجامعة : « إن المرأة أمرّ من الموت . وإن الصالح أمام الله ينجو منها . . . رجلا واحدا بين ألف وجدتُ ، أما إمرأة فبين كل أولئك لم أجد » .

والأمثال التى تضرب للمرأة عند مختلف الأمم ليست أقرب إلى الاعتدال ، فالمثل الصينى يقول : « أنصت لزوجتك ولا تصدقها » ، والمثل الروسى يقول : « لا تجد فى عشر نسوة غير روح واحدة » ، والمثل الإيطالى يقول : « المهماز للفرس الجواد والفرس الجموح ، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة » ، والمثل الأسبانى يقول : « إحذر المرأة الفاسدة ولا تركن إلى المرأة الصالحة » .

وتعد جميع الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأة من فصيلة الإماء أو الصبيان . . . فمن ذلك قول شريعة منو : « المرأة تخضع فى طفولتها لأبيها وفى شبابها لزوجها وفى تأيمها لأبنائها إذا كان لها أبناء ، وإلا فإنها تخضع لأقرباء بعلها ، وفى كل الأحوال لا يجوز ترك أمرها لها » . ويقرب من هذا ما ورد فى شرائع اليونان والرومان ، فقد كان سلطان الرجل فى روما على زوجته مطلقا ، وكانت تعد أمة لا قيمة لها فى المجتمع ، ولم يكن لها قاض سوى زوجها الذى كان له حق حياتها وموتها . والشريعة اليونانية لم تعامل المرأة بأحسن من هذا ، فهى لم تعترف لها بأى حق ولا بحق الميراث .

ومن غير أن نذهب بعيدا إلى أحكام القوانين والديانات القديمة فى نقص المرأة عقلا وأخلاقا ، أذكر أن بعض العلماء المعاصرين أثبتوا ذلك النقص مستندين إلى عوامل تشريحية ونفسية كثيرة ، فقد حاولوا إقامة الدليل على أن الحضارات كلما تقدمت ، تخلفت المرأة ذكاء عن الرجل .

هذا ما قاله الأستاذ الفرنسى جوستاف لوبون حول المرأة فى نفسها ، فأما حول نظام تعدد الزوجات ففيما يلى كلامه فيه ، قال :

لا يدرك المرء نظم أمة أجنبية إلا إذا تناسى قليلا مبادىء البيئة التى يعيش فيها ، وفرض نفسه من أبناء تلك الأمة ، ولا سيما إذا كانت تلك النظم من نوع نظام تعدد الزوجات ، الذى لما تُعلم حقيقة أمره إلا قليلا ، فأسىء الحكم فيه .

ولا نذكر نظاما أنحى الأوربيون عليه باللائمة كنظام تعدد الزوجات ، كما أننا لا نذكر نظاما أخطأ الأوربيون فى إدراكه كما أخطأوا فى إدراك هذا النظام ، وذلك أن أكثر مؤرخى أوربة إتزانا يرى أن مبدأ تعدد الزوجات هو حجر الزاوية فى الإسلام . ويقرر أنه سبب إنتشار القرآن ، وأنه علة إنحطاط الشرقيين . وقد نشأت عن هذه المزاعم الغربية على العموم أصوات سخط ، رحمة بأولئك البائسات المكدسات فى دوائر الحريم ، واللائى يراقبهن خصيان غلاظ يقتلونهن عندما يكرههن سادتهن . فذلك الوصف بغير شك مخالف للحقيقة ، بل متنكر للحق ، وإنى لأرجو أن يثبت عند القارىء أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقى نظام طيب ، يرفع المستوى الخلقى فى الأمم التى تقول به ، ويزيد الأسرة ارتباطا ، ويمنح المرأة إحتراما وسعادة ، لا تراها فى أوربة .

وأقول قبل إثبات ذلك ، إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصا بالإسلام ، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور « محمد » ، فالأمم التى اعتنقت الإسلام لم تجد غنما جديدا فى هذا التشريع ، ونحن لا نعتقد ـ مع ذلك ـ وجود ديانة قوية تستطيع أن تحول الطبائع ، فتبتدع أو تمنع مثل ذلك المبدأ الذى هو وليد جو الشرقيين وعروقهم وطرق حياتهم ، ولا شك فى أن تأثير الجو والعرق واضح وضوحا لا يحتاج إلى مزيد بيان .

وبما أن تركيب المرأة الجثمانى ، وأمومتها ، وأمراضها ، مما يكرهها على أن تبتعد عن زوجها فى الغالب ، وبما أن التأيم المؤقت مما يتعذر فى جو الشرق ، ولا يلائم مزاج الشرقيين ، كان مبدأ تعدد الزوجات لذلك ضربة ، لابد منها ولا محيض عنها .

وفى الغرب حيث الجو والمزاج أقل هيمنة ، لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة ، ماثلا فى غير القوانين ، فأما فى الطبائع وفى واقع الحياة فإن ذلك من الأمور النادرة . ولست أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعى عند الشرقيين ، أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السرى عند الأوربيين ، بل إننى لأبصر العكس ، فأرى تعدد الزوجات الشرعى خير وأسمى .

وبعد أن مضى الأستاذ جوستاف لوبون فى حديثه عن المرأة وعن تعدد الزوجات ، ختم حديثه الممتع المنصف بقوله :

إننى أطمع أن يعتقد القارىء ـ بعد وقوفه على ما ذكرت مما قدمته له ـ أن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب ، وأن حب الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع ، أكثر نموا فى الأمم القائلة به مما فى غيرها على العموم ، وأن الإسلام حسّن حال المرأة كثيرا ، وأنه أول دين رفع شأنها ، وأن المرأة فى الشرق أكثر إحتراما وثقافة وسعادة منها فى أوربة على وجه العموم .

وبعد أن سقنا حول هذه الآية الشريفة رأى أسلافنا الصالحين ، وذكرنا رأى عالم فرنسى منصف فى شريعة تعدد الزوجات ، لا أرانى قادرا على أن أتجاوز الإمام المصلح العظيم محمد عبده فى هذا المجال ، دون أن أذكر رأيه ، حتى يجتمع للناظر فى هذا البحث ما يستطيع به أن يكون ميزانا فيما بينه وبين الذين يهاجمون شريعة التعدد عن جهالة بروح الإسلام أو افتتان برأى المتعصبين لحضارة الغربيين .

قال ـ رحمه الله ـ :

جاء ذكر تعدد الزوجات فى سياق الكلام عن اليتامى ، والنهى عن أكل أموالهم ولو بواسطة الزواج ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ (سورة النساء)

يعنى ـ جل ثناؤه ـ إن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة ، فعليكم ألا تتزوجوا بها ، فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ، ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلزموا واحدة فقط ، والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر ، هو الذى يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فى ذلك ولو على سبيل الظن أو الشك .

ولما قال ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ ﴾ (سورة النساء ٣)

علله بقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (سورة النساء ٣)

أى أنه أقرب من عدم الجور ، فجعل البعد من الجور سببا فى التشريع ، وهذا مؤكد لإشتراط العدل ووجوب تحريه ، وفيه تنبيه إلى أن العدل عزيز . وقد قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى من هذه السورة :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (سورة النساء ١٢٩)

وقد يحمل هذا على العدل فى ميل القلب ، ولولا ذلك لكان مجموع الآيات منتجا عدم جواز تعدد الزوجات بحال ، وما كان يظهر وجه لقوله بعد ما تقدم من الآية :

﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ (سورة النساء ١٢٩)

والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه ، وقد كان النبى ـ عليه السلام ـ يميل فى آخر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نسائه ، ولكنه لم يكن يخصها بشىء دونهن بغير رضاهن وأذنهن وكان يقول ـ صلوات الله عليه ـ : « اللهم هذا قَسْمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك » . فمن تأمل الآيتين ، علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام ، أمر مضيق فيه أشد التضييق ، كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح عند الحاجة ، بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور . وإذا تأمل المتأمل ـ مع هذا التضييق ـ ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد ، جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات ، فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد ، لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت ، كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يجىء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ، ثم من البيوت إلى الأمة ، لأن الأمة ليست إلا مجموعة من الأسر والبيوت .

وقد كان للتعدد فى صدر الإسلام فوائده ، أهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ، ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ، لأن الدين كان متمكنا فى

نفوس النساء والرجال على سواء ، وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها ، أما اليوم فإن الضرر يتنقل من كل ضرة إلى ولدها ، ثم إلى والده ، ثم إلى سائر أقاربه ، فهى تغرى بينهم العداوة والبغضاء ، تغرى ولدها بعداوة إخوته ، وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو بحماقته يطيع أحب نسائه اليه ، فيدب الفساد فى العائلة كلها .

أما قوله - تعالى - : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ ﴾ (سورة النساء ٣)

فهو معطوف على قوله فواحدة ، يعنى فالزموا زوجة واحدة مع العدل ، وهذا بالنسبة لمن هو متزوج زوجات كثيرات ، أو الزموا ما ملكت أيمانكم واكتفوا بالتسرى بغير شرط ، فذلك أقرب إلى عدم العدل وهو الجور ، لأن العدل بين الإماء غير واجب ، وإنما لهن الحق فى الكفاية بالمعروف ، وهذا لا يفيد حل ماجرى عليه المسلمون منذ قرون كثيرة من الأسلاف فى التمتع بالجوارى المملوكات بحق أو بغير حق ، مهما ترتب على ذلك من المفاسد ، كما شوهد ولا يزال يشاهد فى بعض البلاد الآن .

هذا ما رواه عن الإمام محمد عبده الشيخ رشيد رضا ، ثم قال : واتذكر أننى سمعت منه أنه يرى عدم الزيادة فى الإماء على أربع ، ولكننى ما وجدت ذلك مكتوبا عندى .

وبعد أن ساق الشيخ رشيد هذا الكلام منسوبا إلى الأستاذ الإمام ، ذكر لنفسه هو رأيا فى تعدد الزوجات فى عبارة طيبة ومعان قوية ، لعلنى لا أبالغ إذا قلت إن ما ذكره الشيخ رشيد فى مبدأ التعدد ونسبه إلى نفسه ، أجمل أسلوبا وأبين شمولا وأوضح معنى مما نسبه إلى الأستاذ الامام .

وأشهد ، لقد وقفت مع فاضل زاملنى فى هذا البحث موقف الحائر المتردد فى الأخذ بهذا الكلام أو بنسبته إلى قائليه ، ولولا أننا مأمورون بحسن الظن ، لكان لنا أن نقول فى هذا الموطن شيئا نستغفر الله من مجرد خطورة بالبال . غير أننى لا أحب أن أجاوز هذه التخوم دون أن أقرر أن الأمر كان قد التبس على الشيخ رشيد أو على الناسخ ، فاضطرب الأمر واختلفت النسبة ، ولم يجىء الكلام على ما عهدناه للأستاذ الإمام فى الموضوعات الاجتماعية والفلسفية والعقائدية والتشريعية ، قوة عارضة وشدة بيان ودقة نظم وجمال أسلوب .

تلك خلاصة لآراء الباحثين من العلماء حول الآية الكريمة ، لم نر بدا من اثباتها ، وقد بدأنا فيها برأى أم المؤمنين عائشة ، ثم بما روى عن ابن عباس وابن جبير وقتادة ـ رحمهم الله ورضى عنهم ـ ثم ذكرنا غير مجانبين للصواب رأيا فى رفع الإسلام منزلة المرأة وفى شريعة تعدد الزوجات لباحث لا يدين بالإسلام ، ولم يكن بعد ذلك بد من التلفت فى هذا المقام إلى الإمام المصلح محمد عبده ، فنقلنا رأيه من رواية الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله .

العناية باليتامى

وبعد أن استعرضنا الآراء التى ذكرناها ، واستعرضنا غيرها مما أُثر عن المعنيين بدراسة القرآن قديما وحديثا فى مختلف الجوانب اللغوية والبيانية والاجتماعية لم يتيسر لنا وضوح الترابط بين الشرط وجوابه فى الآية الشريفة ، أعنى بين قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ (سورة النساء ٣)

وبين قوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (سورة النساء ٣)

وكأنى بعروة بن الزبير ، قد قصد إلى مزيد من الأطمئنان إلى ترتب الجواب على الشرط ، وهو يسأل خالته أم المؤمنين - رضى الله عنها : أرأيت إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ (سورة النساء ٣)

فتجيبه وهى العليمة بكتاب الله لغة وبيانا ومقصدا : يا ابن أختى ، هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيرغب فى جمالها ومالها ، ويريد أن يتزوجها بأدنى من سُنة صداق نسائها ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا أن يتزوجوا سواهن . . وفى عبارة أخرى تريد رضى الله عنها أن تقول : إن خفتم الجور فى اليتامى اللواتى فى جحوركم بعدم إعطائهن صداق المثل ، فلا تتزوجوهن وتزوجوا غيرهن ، وقد أباح الله لكم من واحدة إلى أربع .

ومع التسليم برأيها - رضى الله عنها - وتلقيه بأحسن القبول ، وقع فى نفس معنى يزداد به وضوحا ترتب الجواب على الشرط ، وتتسع به دائرة الشرط إتساعا تناصره آيات كثيرة من كتاب الله الكريم ، فهو من أجل ذلك معنى لا تأباه اللغة ، ولا تضيق به مقاصد الشريعة ، ولا يجافى روح القرآن ، ثم هو بعد ذلك معنى ترشد إليه وتدل عليه شدة العناية فى القرآن الكريم باليتامى فى أنفسهم وفى أموالهم ، فقد ذكر الله - تعالى - اليتامى فى أكثر من عشرين آية من كتابه الكريم ، بعضها داع إلى العناية بهم فى أنفسهم وبعضها داع إلى العناية بهم فى أموالهم .

فأما الآيات الداعية إلى العناية باليتامى فى أنفسهم ، فمنها :

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ (سورة البقرة ٨٣)

وقوله : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ (سورة البقرة ١٧٧)

وقوله : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ (سورة البقرة ٢١٥)

والمتدبر لكتاب الله ـ تعالى ـ لا يفوته أن يلاحظ ذلك الإقتران فى نظم الآيات بين ذوى القربى واليتامى . ولهذا الإقتران دلالة عظيمة ، وكأنما يراد بذلك أن الإنسان ، كما هو مدين لقرابته بحقوق ، هو مدين لليتامى بحقوق هى أشبه ما تكون بحقوق القرابات .

وكذلك لا يخفى على من يتدبر القرآن ما تنطوى عليه من العناية باليتامى الآية الكريمة فى سورة « النساء » :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾ (سورة النساء)

ولعل أحدا من الفقهاء بكتاب الله لم يتناول هذه الآية بحقها ، كما تناولها أمير المؤمنين عمر ، فقد كان ـ رضى الله عنه ـ إذا جاءه ولى اليتيمة نظر ، فإن كانت جميلة وغنية قال له : زوّجها غيرك ، وإلتمس لها من هو خير منك . وإن كانت دميمة ولا مال لها ، قال له : تزوجها أنت فأنت أحق بها .

وكذلك لا يخفى على من يتدبر القرآن العناية بأمر اليتيم فيما انطوت عليه الآيات الكريمة من سورة « الفجر » :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾

(سورة الفجر ١٧)

فإن المعنى الذى يلوح للمتدبر فى هذا النظم على هذه الصورة ، هو أن هذا القول الذى يقوله الإنسان فى حالى ابتلائه بالغنى والفقر ، هو قول غير لائق بالإنسان أن يقوله ، ولهذا قيل له « كلا » يعنى إرتدع عن هذا القول ، وكأن الله ـ جل ثناؤه ـ يقول : ان هذا القول من عبادى شر ينبغى أن يرتدعوا عنه ، وإن هناك ما هو شر منه ، وهو أن الله تعالى يكرم الناس بكثرة المال ، فلا يؤدون ما يلزمهم فى ذلك من أكرام اليتيم بالتفقد والميزة ، بل يأكلونه أكل الآنعام ويحبونه أشد الحب فيشحون به كما فى الآيتين بعد :

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الفجر)

ومن أجل مظاهر العناية الالهية باليتيم فى القرآن ، قول الله ـ تعالى ـ :

« فأما اليتيم فلا تقهر » ، (سورة الضحى ٩)

فقد نهى الله نبيه والمؤمنين معه عن أن يعبسوا فى وجه اليتيم . كما جعل دفعه بجفوة وأذى ، ورده بزجر وخشونة ، علامة على الإلحاد فى دين الله والتكذيب بالبعث والحساب والجزاء ، وهو قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الماعون)

تلك دعوة القرآن إلى العناية باليتامى فى أنفسهم .

فأما دعوته إلى العناية بهم فى أموالهم ، فآية ذلك أن القرآن جعل غبن اليتيم فى ماله ، عملا خبيثا وإثما عظيما لا يحل للمسلم أن يسلك سبيلا اليه :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (سورة النساء)

وكذلك أمر الله ـ تعالى ـ أولياء اليتامى أن يتعففوا عن الأكل من أموالهم ما لم تدعهم إلى ذلك ضرورة ملحة ، فإن فعلوا فليأكلوا بالمعروف :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (سورة النساء ٦)

قال أهل البصر بكتاب الله : يعنى ـ جل ثناؤه ـ : اعطوهم أموالهم إذا آنستم منهم الرشد ، ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم فتفرطوا فى إنفاقها وتقولوا : ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا .

ثم إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قسم الأمر بين أن يكون الوصى غنيا وبين أن يكون فقيرا ، فالغنى يستعف من أكلها ولا يطمع ، ويقتنع بما رزقه الله من الغنى اشفاقا على اليتيم وإبقاء على ماله ، والفقير يأكل قوتا مقدرا محتاطا فى تقديره على وجه الاجارة أو الإستقراض ، على ما فى ذلك من الاختلاف بين العلماء . ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف مما يدل على أن للوصى حقا فى الأموال لقيامه عليها .

وعن النبى ـ ﷺ ـ أن رجلا قال له : إن فى حجرى يتيما أفآكل من ماله ؟ . قال ـ صلوات الله عليه ـ : « بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله » . قال الرجل : أفأضربه ؟ . قال ـ عليه السلام ـ : « مما كنت ضاربا منه ولدك » . وعن ابن عباس أن ولى اليتيم قال له : أفأشرب من لبن إبله ؟ . ـ فقال رضى الله عنه ـ : إن كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم ورودها ، فأشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى حلب . وعن محمد بن كعب فقال : يتقرم ولى اليتيم تقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لابد منه . والتقرم الذى ذكره ، هو أن يأكل الصغير أكلا ضعيفا عندما يتعلم الأكل إبان العظام . وعن سعيد بن جبير : أن للولى أن يشرب فضل اللبن ويركب الظهر ويلبس ما يستره من الثياب ويأخذ القوت ، لا يجاوز ذلك ،

فان أيسر بعد قضى ، وإن أعسر فهو فى حل . وعن مجاهد قال : يستلف من مال اليتيم فإذا أيسر أدّى .

ومن الرائع المعجب فى هذا الصدد ، أن نذكر ما كان عمر يأخذ به نفسه وهو أمير المؤمنين . فقد كان يقول ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ : إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت .

وهذا التورع الشديد فى قربان مال اليتيم وتحرى وجوه الحل فيه ، لا جرم يرجع إلى الوعيد الشديد فى الآية الشريفة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ (سورة النساء)

ومن المعانى العظيمة التى تناولها كتاب الله الكريم ، برا باليتامى ، فبلغ بها أبعد أعماق النفس الإنسانية ، قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ (سورة النساء)

ووجه القوة فى هذا المعنى لا يحتجب دون رائديه ، من حيث كان أمرا موصولا بالفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وبالحياة التى تتماثل طرائقها فى كل عصر وكل جيل . وليس فى وسع الإنسان أن يرى ضمانا لأولاده أن يظلوا آخر الدهر فى أمن سابغ وعيش رغيد ، لا يعتدى على ما لهم معتد ، ولا يتنكر لهم متنكر . وإذا كانت الأيام دُولا والدهر يوم للمرء ويوم عليه ، وكان الإنسان اليوم كافلا يتيم غيره ، فربما كان غيره فى غد كافلا يتيمه ، فعلى المسلم أن يتمثل هذا المعنى بتوجيه من هذه الآية ، وأن يعلم أن الضمان الوحيد هو أن يرعى يتامى غيره ، وكما يصنع هو معهم ، سيصنع غيره غدا بيتاماه . وفى هذا يقول الامام جار الله الزمخشرى : لقد أمر الله الأوصياء ـ فى هذه الآية ـ بأن يخشوا الله تعالى فيخافوا على من فى جحورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، خوفهم وشفقتهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافا ، وأن يقدروا ذلك فى أنفسهم ويتمثلوه ، حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة ،

قال : والقول السديد الذى أمر الله تعالى به الأوصياء ، هو ألا يؤذوا اليتامى ، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ، وأن يدعوهم : يا بنى ، يا ولدى .

وعن هذا الأدب الرفيع فى كتاب الله ـ تعالى ـ كان يصدر رسول الله ـ ﷺ ـ فى رفقه باليتامى ، ولفته إلى الاحسان اليهم ، فمن ذلك قوله ـ عليه السلام : « من قبض يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يكون قد عمل ذنبا لا يغفر » . وقوله أيضا ـ صلوات الله عليه ـ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » مشيرا باصبعيه ومفرقا بينهما .

وبتدبر الآيات الشريفة التى عنيت بأمر اليتامى ، وبالنظر السديد فى ما قالة العلماء حول معانى هذه الآيات ، وبما يتراءاه الدارسون من حرص المسلمين على القيام بأمر الله فى معاملة اليتامى ، نستطيع أن نقرر أن الغاية التى تغياها القرآن الكريم من أوامره ووصاياه ، هى ألا يشعر اليتيم بمرارة فقد أبيه ، وألا يحس الذل فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وهو ما كان يراه الشاعر الاسلامى فيتألم له ، ويضيق به ، ويزداد تشبثا بالحياة من أجله ، فيقول :

لقد زاد الحياة إلى حبا ... بناتى إنهن من الضعاف
أحاذر أن يَرِيْنَ الذل بعدى ... وأن يشربن رَنْقا بَعْدَ صاف

ومازال الصالحون فى هذه الأمة من السلف والخلف يرفقون باليتامى ، ويرون البر بهم والإحسان إليهم وحفظهم فى أنفسهم وأموالهم ، من أعظم القربات إلى الله ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه .

ولقد أدركنا نحن بقايا من تلك العادات الجليلة فى إكرام اليتيم والبر به ، فكان الناس فى أيام المواسم والأعياد يلتمسون اليتامى ، يمسحون رؤوسهم ويخلطونهم بأولادهم ولو لم يكونوا من ذوى قرباهم . وإذا كانت أيامنا الحاضرة قد خلت من هذه المعانى الكريمة ، فمرد ذلك إلى الهوة الواسعة العميقة التى أحدثها جهلنا بتاريخ الأسلاف ، وضعف إعتزازنا بتقاليد المسلمين .

هذا ، وربما كان من أيسر السبل إلى البر باليتامى ، الزواج من أمهاتهم ، فى أمتنا الإسلامية التى لا قيام لها بغير الجهاد فى سبيل الله ، بما يترتب عليه من قتال

وقتل ، وتأيم للنساء ، وتيتم للأولاد . فإذا تزوجت أم اليتيم بعد أبيه ، جمعت لولدها عصبية إلى عصبيته ، تمنعه وتحميه وتحفظه فى ماله ونفسه .

وبهذا النظر الفاقة المتأمل ، لا نرى ما يمنع من التوسع فى المعنى الذى ذكرته عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ حيث قالت : هى اليتيمة تكون فى حجر وليها ، فيرغب فى جمالها ومالها ، ويريد أن يتزوجها بأدنى من سُنّة صداق نسائها .

والتوسع الذى نريد ، يظهر فى أمرين :

أحدهما : فى توجيه الخطاب ، فهو فى رأى أم المؤمنين متجه إلى ولى اليتيمة ، وهو فى الرأى الذى نؤثره متجه إلى الجماعة الإسلامية .

وثانيهما : فى القصد من كلمة « يتيم » فالقصد منها فى رأى أم المؤمنين ، اليتيمة فى حجر وليها ، والقصد عنها فى الرأى الذى نؤثره ، كل من فقد أباه فاستحق كلمة « يتيم » ذكرا كان أو أنثى .

فيكون المعنى على هذا ، أن الجماعة الاسلامية مسئولة عن حماية اليتامى من الضياع ، فإذا خشى المجتمع عليهم ذلك ، فإن للمسلم الذى يريد التقرب إلى الله ، أن يتزوج من الأيامى أربعا وأو ثلاثا أو اثنتين أو واحدة ، ما وجد إلى العدل سبيلا ممهودة .

وبهذا تجتمع للمسلم فضيلتان : أولاهما ، كفالة اليتامى ، والثانية ، الرفق بالأيامى .

ولا شك فى أن المرأة ذات اليتيم ، إذا تزوجت وَقَت أولادها وحفظتهم ، لأن زوجها ـ فى هذه الحال ـ يعتبر أولاد زوجته أولادا له ، فيقوم على تربيتهم ورعايتهم ، كما يقوم على تربية أولاده ورعايتهم . وقد عرف المجتمع الإسلامى بنين وبنات كانوا أبر ما يكونون بأزواج أمهاتهم ، وكان أزواج أمهاتهم لايقلون برا بهم عنهم فى برهم أولادهم لأصلابهم .

ومن أجل هذا المعنى ، تكون شريعة تعدد الزوجات وسيلة طيعة إلى الإقساط فى اليتامى بحفظهم من التشرد والضياع . وليس يرى المنصف بأسا فى أن يجتمع بهذه الشريعة زواج تقوم فيه المتعة إلى جانب منفعة إجتماعية جليلة القدر فى موازين الإنسانية وموازين الإسلام . فإن هذا التشريع ـ عندئذ ـ ينطوى على البر باليتامى والبر

بالأيامى ، من حيث كان اليتيم يجد فى ظله رعاية تحفظه من الضياع ، وكانت الأيم تجد فى ظله نعمة السكون إلى زوج يرعاها فيسعدها فى نفسها ويسعدها فى أولادها ، تأدبا بأدب الله ـ تعالى ـ فى خطابه للمسلمين :

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ
وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ
يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولا يظن أحد أننا نقصد الحكمة من شريعة تعدد الزوجات على الزواج من الثيبات ذوات الأولاد ، فإن هذا يناقض واقع المسلمين ، ويخالف عمل الرسول ـ ﷺ ـ ووصيته لبعض أصحابه . ثم إن كلمة « أيِّم » فى لغة العرب تطلق على المرأة التى لا زوج لها ، بكرا كانت أو ثيبا ، وتطلق كذلك على الرجل الذى لا زوجة له .

وإنما قصدنا بما قلنا أن شريعة تعدد الزوجات ، سبيل ميسرة إلى أعظم أعمال البر لمن أراده وتوخاه ، فإن المسلم يتمكن بها من كفالة اليتامى والرفق بالأيامى .

أما بعد ، فإن تعديد الزوجات لم يقل أحد بوجوبه ، ولا بالندب إليه ، وإنما حكمه الأصلى على الإباحة ، فللمسلم أن يفعله إذا أراد ، وله أن يتركه حين يشاء ، شأنه فى ذلك شأن سائر المباحات فى عرف شريعة الاسلام .

(١٢)

تفسير قوله جل ثناؤه : ﴿ * وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (سورة المائدة)

فهذه الآيات الشريفة يحتاج طالب الإنتفاع بها إلى نوعين من البيان :

أحدهما : بيان يتضح به ما قصدت إليه وانطوت عليه من غاية ومعنى .

وثانيهما : بيان يتضح به اقترانها مع آيات أخرَ فى كتاب الله ـ تعالى ـ فتنكشف بهذا البيان العلاقة بين هذا الفريق من آيات المائدة وذلك الفريق من آيات الصافات .

وبتوضيح هذا الارتباط والكشف عن هذه العلاقة ، يظهر للضحية معنى لا نعرف أحدا من أهل العلم وقف عنده أو أشار إليه ، وإن يكن الوقوف عنده

وتوضيحه مما تتضح به نعمة الله على الإنسانية التى جرت إليها على يد أبى الأنبياء ابراهيم وزادها وثاقة محمد رسول الله ورحمته للعالمين .

وهذا هو داعينا إلى تخير هذه الآيات ، نختصها بمزيد من الوقوف عندها ، محاولين تباين معانيها فى دائرة طاقتنا ، وحدود قدرتنا ، مما لا يجوز القعود عنه ولا المطل فيه .

ومجمل معنى هذه الآيات ـ على ما يقول أهل العلم ـ هو أن آدم عليه السلام ، كان يولد له فى كل بطن غلام وغلامه ، وكان يزوج البنت من بطن ذكرا من بطن آخر ، فولد له قابيل مع توأمته ، ثم هابيل مع توأمته ، وكانت توأمة قابيل أحسن الناس وجها ، فأراد آدم أن يزوجها من هابيل ، فأبى ذلك قابيل وكرهه . ثم قال : أنا أحق بها ، وهو أحق بأخته ؛ ووجد آدم نفسه فى حرج بين ولديه ، فقال : يقرب كل واحد منكما قربانا ، فأيكما قبل قربانه زوجته منها .

وكان قابيل صاحب حرث وزرع ، فقرب شر ما عنده من حنطة غير طيبة بها نفسه ، وقرب هابيل وكان صاحب غنم أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها ، طيبة به نفسه . وكانت النار تنزل فتأكل القربان المقبول وتدع غيره .

ولا يخفى على أهل العلم أن أكل النار للقربان مما جرت به السنة الالهية على ما يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ (سورة آل عمران)

ولما تقبل الله قربان هابيل ، وكان من حقه أن يتزوج توأمة قابيل ، قال له هذا : لأقتلنك . فقال هابيل : إنما يتقبل الله من المتقين . . لآخر الآيات .

ولم يكف قابيل أن قتل أخاه ، حتى تركه ملقى على الأرض دون مواراة ، فبعث الله غرابا حفر بمنقاره ورجله حفرة ألقى فيها غرابا ميتا ، فنبه صنيع الغراب قابيل فتحسر وهو يقول :

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (سورة المائدة)

وإنما كان ندبه من أجل أنه ترك أخاه بالعراء استخفافا به بعد قتله ، فلما رأى الغرابين دفن أحدهما صاحبه ، ندم على قساوة قلبه ، وقال هذا الذى قال ، مما يدل على شدة ندمه ، ولم يكن ندمه هذا نابعا من خوف الله ولا من خشيته ، وإنما كان نابعا من الأمور التى تدور حول الاعتداد بالنفس ، فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم .

ومما يتساءل عنه طالب المعرفة فى هذه الآية أمور :

أولها : ما حكمة تلاوة هذه القصة ؟ . والجواب أن اليهود لما كفروا برسالة محمد ـ ﷺ ـ كفرا ناشئا عن الحسد ، أخبر الله ـ تعالى ـ نبيه خبر ابنى آدم ، تسلية له ، من حيث كان الحسد أمرا قديما فى بنى آدم .

والحسد فى اليهود طبيعة أصيلة ، لم يتخلوا عنه فى طول تاريخهم ، ولن يتخلوا عنه ما بقى لهم فى دنيا الناس وجود ، ومرجع ذلك إلى اعتبارهم أنفسهم فوق العالمين عرقا وعنصرا ، فكل خير فى الدنيا فهم أحق به ، وكل شرف فهم أهله دون سواهم من سائر الناس .

وكثيرا ما ذكر القرآن الكريم هذا المعنى منسوبا إليهم كما يقول ـ تعالى ـ :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ* لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (سورة البقرة ١٠٩)

وكما فى قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة النساء)

والتساؤل الثانى : لم لم يدفع هابيل عن نفسه وقد غلب على ظنه أنه مقتول ، مع أن الدفاع عن النفس واجب ، بل قال :

---

* يعنى اليهود

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة المائدة)

وجواب هذا السؤال ، أن الدفاع عن النفس أمر يختلف بإختلاف الشرائع ، وقد قال مجاهد : إن الدفاع عن النفس لم يكن مباحا فى ذلك الوقت . وأقرب إلى النفس جوابا عن هذا السؤال ، ما ذكره صاحب المفاتيح ، حيث قال ـ رحمه الله ـ : إن هذا الكلام إنما دار بين الأخوين ، عندما غلب على ظن المقتول أن أخاه يريد قتله ، وقد كان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به ، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له ـ فيما قال ـ : إن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة ، فلا بد أنك تترصد قتلى فى وقت أكون فيه غافلا عنك ، فأكون فى هذه الحال عاجزا عن دفعك ، وحينئذ لا يمكننى أن أدفعك عن قتلى إلا إذا قتلتك ابتداء ، فإننى لا أعرف على وجه اليقين متى تقتلنى فأدافع عن نفسى .

وإذن فالوسيلة الفاردة بالوقاية منك هى أن أقتلك ، وهذا القتل قائم على الظن والحسبان ، وهو فى هذه الحال كبيرة من الكبائر ومعصية لله عز وجل ، وإذ قد دار الأمر بين أن أكون أنا مقترفا كبيرة وبين أن تكون أنت الذى يقترفها ، فإننى أوثر لنفسى تجنب الكبائر ، تاركا ذلك لك ، لأننى أخاف الله رب العالمين .

والتساؤل الثالث : ماذا يعنى التعبير القرآنى الشريف بقوله :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ (سورة المائدة ٣٠)

وجوابه ، ما يقوله أهل الذوق فى البيان العربى ، وهو أن الإنسان إذا تصور القتل العمد على ما ينبغى ، فيراه كبيرة من أعظم الكبائر ، وهذا التصور ـ لا ريب ـ يصرفه عن فعله فيكون هذا الفعل كأنه عاص له متمرد عليه ، فهو يأبى أن يطيعه بوجه من الوجوه فإذا أوردت النفس أنواع الوساوس على صاحبها ، صار هذا الفعل سهلا عليه ، فكأن النفس بوساوسها هذه جعلت الفعل مطيعا له بعد أن كان عاصيا متمردا عليه .

والتساؤل الرابع : ماذا تعنى كلمة « قربان » فى عرف اللغة وفى سائر الأعراف ؟ .

فأما القربان فى اللغة : فهو كل ما يدل على القرب والدنو ، ومنه تقول العرب : قرب منه وإليه وتقاربوا واقتربوا ، كما يقولون : بينهم قربة وقربى وقرابة ، ومع فلان ألف درهم أو قراب ذلك ، وأقربت الحامل : قرب ولادها .

والقربان جليس الملك وخاصته ، لقربه منه ، تقول : فلان من قربان الأمير أو من بُعدانه ، وقرابين الملك : وزراؤه وجلساؤه وخاصته .

والقربان فى عرف الشرائع ، ما يتقرب به المؤمن إلى الله ـ تعالى ـ من الذبائح وغيرها ، والجمع القرابين ، وغلب فى عرف الشريعة الاسلامية على النسكية والعقيقة والهدى والضحية ، وكل ذبيحة يطعم منها الفقراء المحتاجون .

وكانت القرابين عند اليهود على أنواع : فمنها المحرقات للتكفير عن الخطايا وهى ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب ، ومنها الذبائح عن الخطايا الخاصة والخطايا العامة ومنها ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى ، ومنها تقدمة الترديد من باكورة الأرض .

والقربان عند النصارى هو ما يقدمه الكاهن من الخبز والخمر ، فيتحول فى اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه ، على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز .

والغاية من القربان إما الابتلاء والاختبار ليظهر شكر الإنسان أو كفره ، وهو ما يسميه علماء الديانات أمرا تعبديا لا علة له ، وإما أن تكون الغاية منه تقوية العزائم وتربية الإرادات ، وذلك بأن يحرم نفسه من أثير عنده عزيز عليه فيجعله طعاما للنار ؛ وإما أن تكون الغاية الإيثار بأن يحرم الإنسان نفسه من شهى عنده ليختص به آخرين من أبناء جنسه ، وذلك كالنسائك والذبائح وما يتصل بها .

وعندنا أن الدين مذ كان الانسان ؛ كان زميلا له ومرافقا إياه فى رحلة الحياة ، ومستند رأينا هذا أمران :

أحدهما : يراه الناظرون فى التاريخ .

وثانيهما : يراه المتدبرون للقرآن .

فأما الناظرون فى التاريخ ، فإنهم يرون البشرية بدأت خطواتها الأولى بأبى البشر آدم ، وهو نبى يدعو ذريته إلى الطريق المستقيم ، ولما جاء الطوفان بدأت

البشرية خطوتها من جديد بنوح ـ عليه السلام ـ يدعو من نجا معه إلى الطريق المستقيم .

وأما الأمر الثانى : وهو ما يتصل بكتاب الله ـ تعالى ـ ، فقوله ـ جل ثناؤه ـ

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (سورة البقرة)

فمعنى الآية : أن الناس كانوا أمة واحدة متفقين على دين الإسلام ، ثم اختلفوا اختلافا ناشئا عن تغير بيئة أو إيثار مصلحة أو تسلط نزوة ، فبعث الله النبيين رحمة بعباده ، يجددون ما ورس ويقوّمون ما اعوج ويعدلون ما انحرف ويهدون إلى صراط مستقيم .

والقربان الذى أمر به آدم ابنيه امتثالا لأمر الله ، مضت به سنة الحياة ، تستقيم وتعوج ، وتنحرف ذات اليمين وذات الشمال ، حتى بلغت به أسوأ الغايات ، فإذا الناس فى العصور الوثنية يذبحون أو يحرقون بالنار أبناءهم وإخوتهم ، استرضاء للآلهة التى ابتدعتها أوهامهم وتصورتها خيالاتهم .

وفى هذا يقول الأستاذ (ول ديورانت) فى كتابه (قصة الحضارة) :

والظاهر أن التضحية بإراقة دم الإنسان قد أخذ بها الناس فى كل الشعوب تقريبا . فقد وجدنا فى جزيرة « كارولينا » بالمكسيك تمثالا كبيرا من المعدن لإله قديم خلا جوفه إلا من رفات كائنات بشرية ، لا شك أنها ماتت بالحرق قربانا للإله .

ويقول الأستاذ (جيمس برستد) فى كتابه (انتصار الحضارة) :

والظاهر أن التضحية بالإنسان أخذت بها كل الشعوب ، فالفينيقيون والقرطاجنيون كانوا يقدمون القرابين من بين الإنسان للإله « ملخ » ، وربما كان منشأ هذه العادة إلف البدائيين أكل لحوم البشر ، ثم ظنهم أن الآلهة تستمرىء - أيضا - ما يستمرئون هم من طعام ، ومع مضى الزمن إمتنع الإنسان عن أكل اللحم البشرى ، وبقى هذا التقليد بالنسبة للآلهة .

ويمضى الأستاذ يقول :

و« ميشا » ملك مؤاب ضحى بابنه الأكبر تحريقا بالنار ليفك الحصار عن مدينته ، ولما أجاب الرب دعاءه وتقبل تضحيته بإبنه ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكرا لله على نعمائه .

ويقول الأستاذ (ويلز) فى كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) :

إن لدينا أسبابا قوية تحمل على الظن بأن بعض الناس كانوا يقتلون الرجال والنساء والأطفال كلما ألمت بهم بعض محن الدهر ، ظانين أن الآلهة فى ظمأ شديد إلى دم الضحايا البشرية .

ويقول هؤلاء المؤرخون :

لما كان الإنسان الوثنى يؤمن بأن قوة ما يأكله تنتقل إليه ، كان من الطبيعى أن ترد إلى خاطره فكرة أكل الإلاه ، طمعا فى أن تنتقل إليه قوته ، ومن أجل هذا كان كثيرا ما يأكل لحم الإلاه البشرى ويشرب دمه . وربما استبدل بالضحية الإلهية رموزا على هيئتها واقتنع بأكلها . فقد كانوا فى المكسيك القديمة يصنعون للإلاه تمثالا من الغلال والحبوب والخضر ، تعجن جميعا بدماء صبيان يضحى بهم لهذه الغاية ، ثم يأكلون هذا التمثال على أنه بديل دينى لأكل الإلاه نفسه . وقد وجدنا أشباه هذه الاحتفالات الدينية فى القبائل البدائية ، وكانت العادة عندهم أن يطلب إلى الناس الصوم عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس .

وعن هذا الإنحراف الوثنى الأليم نشأت العادة المصرية القديمة التى لا تقل بشاعة فى هذا الباب عما ذكرناه ، عادة إلقاء الأبكار فى النيل ، طلبا لمرضاته وابتغاء لجريانه وفيضانه . فقد روى صاحب النجوم الزاهرة أنه لما ولى عمرو بن العاص -

رحمه الله ـ مصر من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ جاءه أهلها حين دخل بؤونه من أشهر القبط ، فقالوا له : إن لنيلنا عادة لا يجرى إلا بها . فقال لهم عمرو : وما ذلك ؟ قالوا : إذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر (بؤونة) عمدنا إلى جارية بكر فأرضينا أبويها ثم أخذناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقينا بها إلى النيل ، فيجرى . ولكن عمرا ـ رحمه الله ـ قال لهم : إن هذا لا يكون فى الإسلام .

وقد صور أمير الشعراء شوقى هذا المعنى فى قصيدته التى يخاطب بها النيل ، فيقول :

فى كل عام درة تلقى بلا ثمن إليك وحرةٌ لا تُصْدَق
زُفَّت إلى ملك الملوك يحثها دِين ويدفعها هَوى وتشوُّق
خلعت عليك حياءها وحياتها أأعزّ من هذين شىءٌ يُنفق
وإذا تناهى الود واتفق الفدى فالرُّوح فى باب الضَّحيةِ أليقُ

كذلك كانت الإنسانية مسخرة لخيالات مريضة وإدراكات خاطئة ، تقودها من حيث تدرى أو لا تدرى إلى شر مواطن الوبال ، حتى إذا تهيأ لها أن تدنو إلى كمال رشدها شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ لأبى الأنبياء ابراهيم ـ عليه السلام ـ أن يحمل عبء الدعوة إلى إبطال هذه العادة البالغة أبعد منازل القباحة ، عادة التقرب إلى المعبود بدماء البشر ، شدخا بحجر أو ذبحا بمدية ، أو حرقا بنار ، كما شاءت له إرادة الله أن يستبدل بهذه العادة القبيحة ، عادة أجمل وأنفع وأكرم ، فيجعل من دم الحيوان سلما إلى فداء دم الإنسان .

وقارىء القرآن واجد فيه ، ما يشير إلى هذا المعنى فى قول الله ـ تعالى وعز ـ من سورة « الصافات » حكاية عن ابراهيم فى خطاب ولده اسماعيل ـ عليهما السلام ـ :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ
قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ
أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (سورة الصافات)

فهذه الآيات الكريمة تقرر أن الله ـ تعالى ـ أمر نبيه بذبح ولده ، والله ـ تعالى ـ قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، وذلك فى باب الابتلاء والاختبار ، أعنى إبتلاء الصدق والإخلاص فيما يشق على النفس تحمله ، فلما علم سبحانه الصدق من ابراهيم ، فدى ولده بذبح ، ولا شك أنه ـ عليه السلام ـ فرح بهذا الفداء ، فرحا يعدل أو يفضل الحزن الذى كان يجده فى صدره وهو يحاول تنفيذ أمر الله فى ذبح ابنه وأعز الناس عليه . . ثم لا شك فى أن إنطلاق ابراهيم يدعو البشرية إلى إكرام نفسها والامتناع عن القربان البشرى ، والإستغناء عنه بالقربان الحيوانى ، إنما كان إنطلاقا مستبسلا لا تتكامده حدود ولا تقيده قيود ، ولا يبالى فيه أبو الأنبياء عقبة تعترض ولا تلفا يتوقع .

ومع ذلك تعثرت دعوة الإصلاح هذه ، ولاحت معالم الوثنية مرة أخرى فى قومه وذريته ، فقد نذر عبد المطلب ـ وهو من ذرية اسماعيل بن ابراهيم ـ أن يذبح ولده عبد الله والد سيدنا محمد عبد الله ورسوله ، لولا أنه أكره إكراها على أن يفديه بمائة من الإبل ، ولولا أنه فداه فسلم بهذا الفداء من الذبح ، ما جاء من هذا الصلب الكريم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه أكرم الصلاة وأزكى التسليم .

واليوم الذى فدى الله ـ تعالى ـ فيه اسماعيل بذبح عظيم هو العيد الأكبر الذى اتخذه المسلمون عيدا بشريعة رسول الله ـ ﷺ ـ وإرشاده ، يحضون فيه على ذبح الضحايا ، عالمين أو غير عالمين أن هذا الذبح فى هذا اليوم ، إنما هو تجديد لذكرى التضحية ، التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها على البشرية بصيانة دم الإنسان عن طريق بذل دم الحيوان . ونعمة الله هذه لا يقدرها حق قدرها إلا من ألم بتاريخ البشرية ، وعلم ما كانت تقاسيه من عنت وألم وشقاء بذبح الإنسان أو تحريقه بالنار إلتماسا لمرضاة الآلهة .

والإسلام يأمر أهله بالحرص على التضحية إستذكارا للنعمة ، وقد ضحى رسول الله ـ ﷺ ـ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده ، وقال عن أحدهما : اللهم إن هذا عن محمد وآل محمد ، وقال عن الآخر : اللهم إن هذا عن محمد وأمة محمد .

والإسلام يوصى ألا تكون الضحية هزيلة ، وهم فى ذلك يروون عن رسول الله ﷺ قوله : « عظموا ضحاياكم ، فإنها على الصراط مطاياكم » . ولم يكتف المسلمون الغيارى على دين الله بالوقوف عند القدر المجزى منها وهو كبش عن كل بيت ، فكان رب الأسرة يضحى عن نفسه وعن زوجه كبشين أحدهما عنه والآخر عن زوجته . وفى هذا يروى الزبير بن بكار أن محمد بن إسحاق المؤرخ الجليل سأله ذات يوم : منذ كم زوجتك معك ؟ . فقال له الزبير : لا تسألن ، ليس يرد القيامة أكثر كباشا منها ، لقد ضحيت عنها سبعين خروفا .

ماذا للعيد علينا نحن المسلمين من حـــق

فالعيد مهما تكن صورته فى آثار الأقلام وألسن الخطباء ، لا يعدو فى جملته أن يكون عاطفة ودوده تجيش بها الصدور ، أو تحايا طيبة تتراءها الأفواه ، أو تفاؤ لا مرحا يرتسم على الشفاه ابتساما وعلى الوجوه استنارة وإشراقا . فالناس حين يستقبلون العيد الأكبر ويفرحون بمقدمه ، يتناولونه من جوانب شتى فى صور مختلفة ، فمنهم من يراه خروفا يملأ البيت حركة والجو مأمأة ، ومنهم من يراه ثوبا جديدا ولقيا حسنة ، ومنهم من يراه سعيا إلى القبور وبكاء على الموتى ، ومنهم من يراه فرحة سانحة بمعونة قريب قسا عليه الزمن أو غريب تقطعت به أسباب الحياة . وهكذا تختلف بالناس الطرق فى استقبال العيد وفهمه ، إختلافا ناشئا عن إختلاف الطبائع وإختلاف ظروف الناس وملابسات حياتهم . وكل هذه الصور التى ذكرنا حسن جميل ، وأجمل منها وأخلق بفقه المسلمين وفهمهم لأسرار الدين ، أن يعرفوا أن هذا اليوم هو اليوم الذى بدت فيه طلائع الرحمة الإلاهية للعالمين ، على يد أبى الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنه اليوم الذى تمت فيه نعمة الله على الإنسانية بإنقاذها من أوهام الوثنية على يد محمد رسول الله خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وبهذا البيان يتضح الربط بين آيات الصافات هذه وآيات المائدة .

وإذا كانت المعانى يدعو بعضها بعضا فيستجيب النسيب لنسيبه ، فإن الحديث

عن العبد يتمثل لنا فيه معنى يقتضينا حقه من الإيضاح غير مجحود ولا ممطول . وهذا المعنى هو : ماذا لهذا العيد ولكل عيد ، علينا نحن المسلمين ، من حق ؟ .

أهو هذه المواكب الحزينة ساعية إلى القبور ، أو هو شيء آخر تنبسط به النفوس وتنشرح له الصدور ، وهل لرسول الله ـ صلوات الله عليه ـ قضاء غفل عنه الناس ؟ . أو خفى عنهم وجه الصواب فيه ؟ . وقبل أن نأخذ فى بيان ذلك ، لا نرى بدا من أن نلم بشيء من العادات والتقاليد فى الأعياد عند بعض الشعوب .

فعند الفرس عيد « النيروز » ، يزعمون له أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه بالدَوران ، ومدته ستة أيام ، وسادس الأيام الستة هذه هو النوروز الكبير ، فكان الأكاسرة يقضون فى الأيام الخمسة حوائج الناس على طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم .

وقد ذكر ابن المقفع ـ من أعيان الفرس ومن أدباء العربية ـ أن الاحتفال بالنوروز له صورتان ، صورة عند رؤوس الأمة وخاصة القوم ، وصورة عند العامة . فأما الخاصة فقد كان من عادتهم أن يقف شاب مليح الوجه على باب الملك حتى الصباح ، فإذا أصبح دخل عليه بغير استئذان ، ثم وقف حيث يراه ، فيقول الملك له : من أنت ؟ . ومن أين أقبلت ؟ . أين تريد ؟ . ما اسمك ؟ . لأى شيء وردت ؟ . ماذا معك ؟ . فيجيب : أنا المنصور إسمى المبارك ، من قبل الله أقبلت ، الملك السعيد أردت ، وبالهناء والسلامة وردت ، ومعى السنة الجديدة . ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة عليه حنطة وشعير وحمص وسمسم وأرز فى كل واحد سبع سنبلات وسبع حبات وقطعة سكر ودينار ودرهم جديدان . فيضع الطبق بين يدى الملك ، ثم تدخل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل وزيره ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة ، ثم الناس على طبقاتهم ، ثم يقدمون للملك رغيفا كبيرا من تلك الحبوب موضوعا فى سلة ، فيأكل منه ويطعم من حضر فى مجلسه ، ثم يقول : هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد يحتاج أن يتجدد فيه ما أخلق من الزمان ، وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس ، لأنه أفضل من سائر الأعضاء . ثم يخلع الملك الخلع السنية على وجوه دولته ، ويفرق عليهم ما وصل إليه من الهدايا والتحف .

وأما عوام الناس ، فكانت عادة لهم فيه رفع النار فى ليلته ، ورش الماء فى

صبيحته ، يزعمون بذلك أن إيقاد النيران فيه ، لتحليل العفونات التى خلفها الشتاء فى الهواء ، وأن رش الماء فى صبيحته إنما هو لتطهير الأبدان مما انضاف إليها من دخان النار الموقدة فى ليلته .

وليس يخفى أن بعض عادات الفرس فى أعيادهم ، إنتقلت إلى الأمة العربية عن طريق الحكام ، وأول من فتح لها الطريق من حكام المسلمين الحجاج بن يوسف الثقفى وإلى العراق من قبل عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى العربى ، فقد رسم الحجاج هدايا النيروز والمهرجان فى الدولة الأموية ، حتى إذا جاء الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ منع ذلك وألغاه ، وظل المنع قائما حتى فتح باب التهاوى فى أعياد الفرس من جديد أحمد بن يوسف الكاتب ، فقد أهدى إلى المأمون فى ذلك العيد سفطا من ذهب فيه قطعة عود هندى فى طول السفط وعرضه ، ومع الهدية رقعة كتب فيها : هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف العبيد السادة .

وعند القبط فى مصر عيد النيروز ـ أيضا ـ وهو على ما يقول ثقات المؤرخين ، أول يوم من السنة القبطية ، وكأن القبط اتخذوا طريقة الفرس طريقة لهم كما إستعاروا اسم العيد منهم ، فهم يظهرون فيه من الفرح والسرور وإيقاد النيران وصب المياه أضعاف ما يفعله الفرس ، ويشاركهم فى ذلك العوام من المسلمين ، ويزيدون على ذلك التصافع بالأنطاع[1] فى غير إحتشام ، وربما حملهم ترك الاحتشام على التجرأ على الرجل المطاع ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم عن ذلك لمنعوا الطريق من السالك ، وهم ـ مع ذلك ـ لا يتركون من ظفروا به إلا إذا أرضاهم بما يريدون منه ، وقد ظل هذا التقليد معمولا به إلى أواخر القرن الثامن الهجرى ، ثم اقتصروا بعد ذلك على رش المياه والتصافع بالأنطاع وترك الاحتشام ، دون إيقاد النيران .

ومن عجب أن تلتقى الأفكار وتجتمع الأعراف فى مختلف الشعوب على هذه الصورة من الرش بالماء فى الأعياد ، كما رأينا ذلك ونحن فى الطريق إلى المؤتمر السياسى العالمى الذى انعقد فى مدينة باندونج ، وذلك أننا حططنا رحالنا ليوم وليلة فى مدينة (رانجون) عاصمة بورما ، وصادف ذلك احتفال أهل البلاد بعيد من أعيادهم يتراشون فيه الماء . وقبل أن استقل السيارة من المطار إلى مدينة (رانجون) ، تقدم إلى شاب مسلم من أهل (بورما) وأخبرنى فى أدب رفيع أن أهل

(١) الأنطاع : جمع نطع ، وهى القطعة من الجلد . ومعنى العبارة : يتضاربون بقطع من الجلد إظهاراً للفرح .

هذا البلد فى عيدهم اليوم لا يحتشمون أحدا مهما كانت منزلته ومهما كان ضيفا أو غير ضيف ، ثم نصحنا بأن نحترس من رش الماء بإغلاق نوافذ السيارة ، وكنت كعادتى أرتدى الزى الأزهرى الذى لم أتخل عنه فى أية رحلة قمت بها ، فاتجه إلى بنصيحة خاصة أن أقى عمامتى فى ذلك اليوم ، فإنها ستكون هدفا للذين يرشون الماء . وكنا فى هذا اليوم بين أحد أمرين : فإما أن نغلق نوافذ السيارة فنختنق من حر لا يطاق ، وإما أن نفتحها فنغرق بالماء الذى يقذفه علينا أهل هذا البلد فرحا بعيدهم ذلك . ولست أنسى ما حييت أن رؤساء الدول المشتركة فى مؤتمر (باندونج) ومعهم الرئيس جمال عبد الناصر ، كانوا يجاملون أهل (بورما) فيتراشون بالماء بعضهم مع بعض ، وجميعهم مع سائر الناس .

الأعياد فـــى مصر

ولا يسعنا ونحن نتحدث عن الأعياد أن نتجاوز مصر القديمة ، من حيث كانت أول مشرق لحضارات العالم ، فقد كان لها خمسة أيام تتخذها عيدا ، وذلك أن المصريين القدامى تنبهوا - فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد - إلى أن السنة الشمسية تتكون من خمسة وستين وثلاثمائة يوم ، فبدأوا تاريخهم بالسنة التى ظهر فيها نجم الشعرى اليمانية مقترنا بشروق الشمس ، وقسموا سنتهم إلى إثنى عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، ثم أكملوا السنة بخمسة أيام جعلوها كلها أعيادا لهم ، يستمتعون فيها بحياة كلها لهو ولعب ورقص وغناء .

وأصل إقامة الأعياد فى مصر راجع إلى الاحتفال بمرور فصول معينة ، أو بحوادث مهمة تتضمن معانى دينية ، وتتلخص صورة هذه الأحفال فى تقديم القربان للمعبود من خيرات الأرض ، ومن الهبات الملكية كالقمح والشعير والزيت والعسل ، وفى إقامة أحفال للطرب والموسيقى والرقص والغناء ، وكان النساء يتطوعن لخدمة المعابد أيضا ، راهبات مؤديات واجباتهن الدينية فى سائر الأعياد ، راقصات ممسكات الصوالجة أمام الآلهة[1] .

---

(١) راجع « تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسى » .

تلك لوافت سريعة إلى بعض الصور للاحتفال بالأعياد عند بعض الأمم ، وكلها يجتمع على أن العيد هو يوم تخفف من أثقال الجد ، وتطلق من قيود العمل إلى آفاق البهجة والمرح والموسيقى والرقص والغناء .

وعلى هذه السنة نفسها ، كان للعرب فى الجاهلية أعياد يمرحون فيها ويلهون ، وفى هذا المعنى يروى الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى ، فيقول - رحمه الله - : وأعلم أن الذى وردت به الشريعة وجاءت به السنة ، عيدان : عيد الفطر وعيد الأضحى ، والسبب فى إتخاذهما ما رواه أبو داود فى سننه عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما . فقال : ما هذا اليومان ؟ . فقالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال رسول الله - ﷺ - : « إن الله - عز وجل - قد بدلكم خيرا منهما » (يوم الأضحى ويوم الفطر) . فأول ما بدىء به من العيدين عيد الفطر وذلك فى سنة اثنتين من الهجرة . وروى ابن باطيش أن أول عيد ضحى فيه رسول الله - ﷺ - سنة اثنتين من الهجرة ، وحينئذ يكون العيدان قد شرعا فى سنة واحدة .

ومما يقتضى التوضيح والبيان قوله - ﷺ - فى هذا الحديث : « بدلكم الله خيرا منهما » ، فما وجه الخيرية فى شرعهما عيدين للمسلمين ؟ .

ومع العياذ بالله من أن نقول على رسول الله ما لم يقل ، لا نجد بدا من أن نلتمس لهذه الخيرية سببا يتضح به معنى العيدين فى أذهان المسلمين . فأما عيد الأضحى ، فهو - كما أشرنا من قبل - اليوم الذى فدى الله - تعالى - فيه الانسان بالحيوان ، ومن حق هذا المعنى الجليل أن يحتفل الناس فيه وأن يتخذوه عيدا ، لما جرى فيه من الخير العميم للبشرية جمعاء . وأما عيد الفطر ، فوجه الخير فيه - فيما نرى - أنه اليوم الذى يرجع فيه المسلم إلى نفسه وقد انتصر عليها بالصوم فقهر شهواتها ونزواتها شهرا كاملا ، فهو عيد يفرح المسلم فيه بإنتصاره على نفسه ، ويتوج انتصاره بشكر ربه الذى أعانه ويسر له سبيل الانتصار .

وبهذا الفهم لا نشك فى أن هذين اليومين ، بما احتويا من معان جليلة ، هما خير من يومى اللهو واللعب فى الجاهلية ، كما أنهما أحق باسم العيد وأخلق .

حكمة النبى فى سماعه غناء الجاريتين

غير أننا لا نرى بدا من توجيه سؤال فى هذا المقام ، هو : هل ينبغى أن يكون العيد جدا خالصا ، وعزيمة محضا ؟ . أو لابد فيه من التمتع بشىء من اللهو واللعب ؟ . وهل لرسول الله فى هذا الأمر قضاء ، كما أشرنا آنفا ؟ .

وندع جواب هذا السؤال إلى أم المؤمنين عائشة ـ فيما يروى البخارى ـ فقد قالت رضى الله عنها : دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ وعندى جاريتان تغنيان يوم بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، ودخل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فانتهرنى وقال : أمزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ ؟ . فأقبل عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « دعهما » ، فلم غفل غمزتهما فخرجتا . وفى رواية مسلم عن هشام : « يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا » .

ومما ينبغى تبيانه فى هذا المقام ، عدة أمور :

أولها : فى أى زمن وفى أى مكان حدثت تلك القصة ؟ . وجواب ذلك أنها حدثت فى يوم عيد فى منى كما يشير إلى ذلك الحديث ، وكما يقرره فى وضوح الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الإسلام فى شرحه لحديث عائشة .

وثانيها : ما معنى الغناء ، وما حقيقته ؟ .

يقول أهل اللغة : الغناء هو التطريب والترنم بالكلام الموزون وغيره . ومادته غنى وغنن ، ويقولون : ظبى أغن لأن فى ترنيمه غِنة ، وهى ترخيم فى صوته من نحو الخياشيم بعون من نفس الأنف . ويقولون : واد أغن ، وروضة غناء ، لحفيف الريح فى خلال ذلك .

وفى هذه المادة يروون عن رسول الله ـ ﷺ ـ حديثا أخرجه مسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » . وقد تأول ابن عيينه قول رسول الله ـ ﷺ : « تغنى » على أنه إستغنى ، ولما ذكر هذا التأويل للشافعى قال : نحن أعلم بهذا ، ولو أراد النبى ـ ﷺ ـ الاستغناء لقال : « من لم يستغن بالقرآن فليس منا » ، ولكنه ـ عليه السلام ـ لما قال : يتغن ، علمنا أنه أراد التغنى وليس الاستغناء . وقال شيخ

المفسرين الطبرى : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التغنى إنما هو الغناء ، وهو حسن الصوت بالترجيع . . وأما إدعاء الزاعم أن تغنيت بمنى استغنيت ، فإنه ليس فى كلام العرب ولا فى أشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قال ذلك .

ثالثها : ما مكان الغناء فى شريعة الإسلام من الحل والحرمة ؟ .

والجواب : على ما يقول شيخ الإسلام الشرقاوى ، أن الغناء مع التكسر والتمطيط بما فيه تعريض للفواحش أو تصريح بما يحرك الساكن ويبعث الكامن ، فإن هذا لا يختلف على تحريمه أحد .

ثم يقول : وهذا هو حقيقة الغناء ، وإطلاقه على الحداء تجوز . ومن أجمل وأصدق ما يذكر فى هذا المعنى قول الأستاذ العقاد ـ رحمه الله ـ : إن فن السماع أو فن الموسيقى من الفنون الجميلة التى لا غبار عليها ، ولا تحريم لشىء منها ، إلا ما كان ممتزجا بالخلاعة أو مثيرا للشهوات ، فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل ، بل يعم الخلاعة والشهوة ، وكل ما يمتزج بالمحظورات على إختلافها ، وقد يحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع ، فلا يقال إن هذا التحريم يمنع الكساء ، أو يمنع الكلام ، ولكنه يمنع ما هو ممنوع ويبيح ما عداه .

والمسلمون مأمورون بترتيل القرآن ، لا يرون فى قداسته ما ينهاهم أن يقرأوه ويسمعوه مرتلا فى المساجد والمحاريب ، بل يرون فى ذلك معوانا على بلاغ أثره وطمأنينة الإصغاء إليه وأمره أن يكون ذلك شأن ما يطرق الأسماع منغوما فى سائر الكلام .

ولو كان فى الكلام ما يكره أو يعاب ، لكان أولى الناس أن يمنعه رجل كعمر بن الخطاب ، فى صرامته وشدته على نفسه وعلى غيره فى رعاية أحكام دينه ، ولكنه ـ رضى الله عنه ـ كان يبيح الغناء ويدعو إليه . ومن أخباره فى ذلك ما رواه نائل مولى عثمان ابن عفان ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجت مع مولاى عثمان بن عفان فى سفرة سافرناها مع عمر فى حج أو عمرة ، وكان عمر وعثمان وابن عمر أيضا ، وكنت وابن عباس وابن الزبير فى شبان معنا ، ومعنا رباح الهرى ، فقلنا له ذات ليلة : أُحْدُ لنا[1] ، قال : ومع عمر ؟ . قلنا : أُحْدُ ، فإن نهاك فأنته . فحدا ، حتى إذا كان

---

(١) حدا بالإبل : غنى لها وهو يسوقها . والحداء : سوق الإبل والغناء لها .

السحر قال له عمر : كفى كف فإن الساعة ساعة ذكر . فلما كانت الليلة الثانية ، قلنا : يا رباح أنصب لنا نصب العرب[1] ، قال : مع عمر ؟ . فقلنا كما قلنا بالأمس : إن نهاك فانته . فنصب لنا نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر ما قاله أمس . فلما كانت الليلة الثالثة قلنا له : يا رباح غننا غناء القيان ، فقال : مع عمر ؟ . قلنا : إن نهاك فأنته . فغنى فوالله ما تركه أن قال له : كف ، فإن هذا ينفر القلوب .

وروى الثقات عنه ـ رضى الله عنه ـ أنه خرج للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ، فسأل القوم خواتا أن يغنيهم من شعر ضرار فقال عمر : دعوا أبا عبد الله فليغن من بُنيّات فؤاده . قال خوات : فما زلت أغنيهم حتى كان السَحَر ، فقال عمر : لقد أسحرنا . . . إرفع لسانك يا خوات .

ومضى الأستاذ العقاد ـ رحمه الله ـ يقول :

ومن قال إن ابن الخطاب كان أشد الخلفاء صرامة فى النهى عن المحظور ، لم يبالغ فى وصفه ، ولم يقل عنه ما يأباه أو يأباه له عارفوه ومحبوه ، وها هو ذا يستمع إلى الغناء بالشعر ، فيستمع إلى فَنَّين من أعم الفنون الجميلة بين الناس ، ولا ينكر الغناء لذاته ، ولا الشعر لذاته ، وإنما ينكرهما إذا إشتملا على لهو ينفر القلوب .

رابعها : ما سبب تحويل النبى ـ ﷺ ـ وجهه وهو مضطجع على الفراش فى بيت عائشة ، والجاريتان تغنيان وتدففان[2] ؟ .

وجواب ذلك ـ على ما ذكره شيخ الإسلام الشرقاوى ـ هو أنه عليه السلام أراد الإعراض عن الغناء ، لأن مقامه يجل عن الإصغاء له .

ونحن لا نستطيع قبول هذا التعليل ، فإن صوت الجاريتين وهما تغنيان وتضربان بالدف ، لابد أن يبلغ مسمعه الشريف ، سواء حول وجهه أم لم يحوله .

والأشبه بالحق ـ فيما نعتقد ـ أنه إنما حول وجهه لكى لا ينظر إلى الجاريتين وهما تغنيان وتدففان ، من حيث كانت الجاريتان إحداهما لحسان بن ثابت والأخرى لعبد الله بن سلام ، فهما أجنبيتان عنه ـ عليه السلام ـ فلا يحل له النظر إليهما ، وإتقاء النظر بتحويل الوجه أمر معقول ، على عكس إتقاء الغناء بتحويل الوجه ، فإنه عند التأمل لا معقول ولا مقبول .

---

(١) النصب : نوع من الغناء بعيد عن التخنث والتكسر . (٢) تضربان بالدف .

خامسها : ماذا تعنى أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ بالنص على أن الجاريتين كانتا تغنيان بغناء بُعاث ؟ .

وجواب هذا ـ على ما يقول الشيخ الشرقاوى ـ أن بعاث اسم لحصن كان للأوس ، وقعت عنده الحرب بين الأوس والخزرج ، وكانت به مقتلة عظيمة إنتصر فيها الأوس على الخزرج ، واستمرت العداوة بينهم حتى جاء الإسلام فألف الله بينهم ببركة النبى ـ ﷺ ـ ثم يقول ـ رحمه الله ـ : وغناء بعاث هو ما تقاولت به الأنصار فى ذلك اليوم ، يعنى ما قاله بعضهم لبعض من فخر أو هجاء .

وقد كنا نتمنى أن يتعرض الشيخ أو غيره ممن تناولوا شرح الحديث لذكر الشعر الذى كانت الجاريتان تتغنيان به ، ولكن أحدا من الشراح لم يتعرض لذلك ـ فيما نعلم ـ ولو قد فعلوا لكان فهم الحديث الشريف أعظم يسرا وأشد وضوحا .

سادسها : كيف يستسيغ المسلم صدور هذه الكلمة « أمزمارة الشيطان عند النبى » من أبى بكر الصديق وهو من صدق الإيمان ، وعلو الأدب مع رسول الله بالمنزلة الرفيعة والمكانة التى لا تخفى ؟ . هل يقصد الصديق ـ رحمه الله ـ بمزمارة الشيطان الغناء نفسه ، أو يقصد بها الشعر الذى كانت الجاريتان تغنيانه ؟ .

وجواب ذلك ـ فيما ذكره الشيخ ـ ان المراد بمزمارة الشيطان الدف والغناء ، لأن المزمارة والمزمار مشتق من الزمير ، والزمير الصوت الذى له صفير ، ويطلق المزمار على الصوت الحسن وعلى الغناء .

قال الشيخ رحمه الله : إنما أضيفت المزمارة إلى الشيطان ، لأنها تلهى القلب عن ذكر الله ـ تعالى ـ وهذا من الشيطان . وإنما أنكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ذلك اعتمادا على ما تقرر عنده من تحريم اللهو والغناء مطلقا ، ولم يعلم أنه ـ ﷺ ـ أقرهن على هذا لكونه دخل فوجده مضطجعا فظنه نائما .

والذى نؤثره ولا نرى حرجا فى تقريره حيال معنى الحديث الشريف ، هو أن شعر بعاث من أشد ألوان الشعر العربى إثارة للنفوس واهاجة للأحقاد ، حتى لقد كان اليهود فى مدينة رسول الله ـ بعد أن جمع الله قلوب الأوس والخزرج على الإسلام ـ يحاولون بإنشاد هذا الشعر تدمير الوحدة بين الأنصار .

وقد روى العلماء أن يهوديا شديد الحقد على المسلمين ، مر ذات يوم بمجلس

إلتقى فيه الأوس والخزرج على الحب والمودة وقد جمع الإسلام بينهم ، فاستأجر اليهودى الحقود غلاما من أغيلمة المدينة وأمره أن يمر بالمجلس المذكور وهو ينشد من شعر بعاث ، وما إن بلغ صوت الغلام بالشعر مسامع القوم ، حتى هاجوا وماجوا وتواثبوا على الركب ، وقال الأوسى للخزرجى : كذبتم . كما قال الخزرجى للأوسى : كذبتم . ونادى الأوسى : يا آل أوس ، ونادت الخزرج : يا آل خزرج . فلما بلغ الأمر رسول الله ـ ﷺ ـ جاء مغضبا يجر ثوبه وقد تواقف القوم للقتال ، وقال ـ صلوات الله عليه : « أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ » . فتساقطت السيوف من أيديهم وراحوا يتعانقون بعد أن كادوا يقتتلون . وفى هذا جاءت الآيات الشريفة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكى ندرك مدى ما يثيره شعر بعاث من الأحقاد ويبعث من الضغائن ، نذكر بعض ما قاله قيس بن الخطيم من شعر الأوس يفخر بقومه ويهجو الخزرج ، فذلك حيث يقول :

ويوم بعاث أسلمتنا سيوفنا ... إلى نَسب فى جِذْم غسان ثاقب
يجرون بيضا كل يوم كريهة ... ويغمدن حُمرا ناحلات المضارب
فلولا ذرى الآطام ما قد علمتم ... وترك الغضا شوركتم فى الكواعب
فلم تمنعوا منا مكانا نريده ... لكم محرزا إلا ظهور المشارب
ظأرناكم بالبيض حتى لأنتُم ... أذل من السقبان بين الحلائب

يقول قيس فى هذه الأبيات : لقد رفعنا سيوفنا فى يوم بعاث إلى حسب مضىء يصبر على الحرب ، لا إلى حسب لئيم لا صبر له عليها فهو خوار . فعادتنا حين نلقى أعداءنا أن نجرد هذه السيوف بيضا ، ثم نغمدها حمرا وقد رويت من دمائهم ، ولولا أن أعداءنا فى ذلك اليوم فروا إلى أعالى البنايات تاركين ميدان الحرب ، لشاركناهم

فى بناتهم الكواعب ، ولكنهم فروا بين أيدينا ، ولم يكتفوا بدخول البيوت ، بل صعدوا إلى ظهور العزف فقد أرغمناهم بسيوفنا هذه على ما نريد ، حتى كانوا من الذل أشبه شيء بالذكور من أولاد الإبل حين تطرد وتضرب لكى لا ترضع أمهاتها .

وهذا الشعر ـ على ما يرى الراءون ـ شعر مثير للأحقاد موقظ للضغائن .

ولعل ما كانت تغنيه الجاريتان فى بيت عائشة من شعر بعاث هو هذا الشعر ، أو شعر يجرى فى سبيله إلى إهاجة الضغائن وإيقاظ الأحقاد . وهو من هذا الجانب بلا ريب مزمار للشيطان كما أسماه أبو بكر الصديق .

ولا يمكن أن يكون الغناء على إطلاقه مزمارا للشيطان ، لأن النبى ـ ﷺ ـ قد سمع غناء الجاريتين . وإذ قد كان مثل هذا الشعر على ما وصفنا قد أهاج النفوس وكاد يؤدى إلى فتنة بين المسلمين فى المدينة لولا أن تداركها رسول الله فأطفأ نارها ؛ فكيف نعلل استماعه ـ ﷺ ـ لهذا الشعر مع نهيه أبا بكر عن التعرض للجاريتين بقوله : « دعهما يا أبابكر ، فإن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا » .

ومبلغ ظننا فى هذا الموطن ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان ينصت إلى هذا الشعر وهو يتمثل النعمة التى أمتن الله ـ تعالى ـ بها عليه فى الآية الشريفة :

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾

(سورة الأنفال ١)

فقد جمع الله صفهم ونظم شتاتهم ، وعقد على المحبة والمودة قلوبهم ، بعد ما كانوا أعداء يقاتل بعضهم بعضا ويتربص بعضهم ببعض . ويزيدنا أطمئنانا إلى هذا التعليل أن الغناء بهذا الشعر لم يكن يجاوز بيت النبى ، فكانت الفتنة به مأمونة ، والخطر من ترداده بمكان بعيد .

ونستغفر الله ـ تعالى ـ ونعوذ به من الإعجاب بما نحسن ، والتكلف لما لا نحسن ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١٣)

تفسير قوله جل ثناؤه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

فها هنا مواطن ، يجمل بمن يبغى الفقه بالقرآن أن يطيل الوقوف عندها والتأمل فيها .

أحدها : أننا لا نستطيع معرفة اليوم إلا بوجود الشمس ، سواء أريد من اليوم النهار أو النهار والليل معا . وقبل خلق السماوات والأرض ، لم تكن شمس فلم يكن يوم . فذكر الأيام الستة فى هذه الآيات وما أشبهها ، لابد فيه من توضيح معنى اليوم توضيحا يستقيم به فهم الآية على وجه معقول .

ومن أجل ذلك قال الامام أبو السعود : إن المراد بالأيام الستة ، ست نوبات ، أى ستة أزمنة لا يعلم مقدارها سواه جل ثناؤه .

وفى هذا أيضا قال الامام القُشَيْرى : إن المراد باليوم ، اليوم من أيام الآخرة وهو يساوى ألف سنة .

والموطن الثانى : أن تحديد مدة الخلق بستة أيام ، لابد أن يكون للنص عليه فى كتاب الله حكمة ، فما تلك الحكمة ؟ .

يقول القرطبى ـ رحمه الله ـ : وإنما ذكر الله ـ تعالى ـ هذه المدة ـ ولو أراد خلقها فى لحظة لفعل ، إذ هو القادر على أن يقول لها كونى فتكون لأنه أراد سبحانه أن يعلم عباده الرفق والتثبت فى الأمور ، ثم لأنه ـ تعالى ـ لا يعاجل العصاة بالعقاب

لأن لكل شيء عنده أجلا لا يتقدمه ولا يتأخر عنه . وهو ما يوحى به قوله ـ تعالى ـ فى سورة « ق » :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة ق)

وقد ذكر الله ـ جل ثناؤه ـ خلق السماوات والأرض مقترنة بالأيام الستة فى سبع آيات ، إحداها هذه الآية السابقة من سورة الأعراف .

والثانية : قوله ـ تعالى ـ فى سورة « يونس » :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة يونس)

والثالثة : قوله ـ تعالى ـ فى سورة « هود » :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة هود)

والرابعة : قوله ـ تعالى ـ فى سورة « الفرقان » :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (سورة الفرقان)

والخامسة : قوله ـ تعالى ـ فى سورة « السجدة » :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة السجدة)

والسادسة : قوله ـ تعالى ـ فى سورة « ق » :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (سورة ق)

والسابعة : قوله ـ تعالى ـ فى سورة « الحديد » :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الحديد)

ولا يستعصى على من يتدبر هذه الآيات تحصيل المعنى الذى أشار اليه الإمام القرطبى فى عدم تعجيل العقوبة للعصاة ، فإن الآيات التى ذكرناها سابقة أو مسبوقة بالحديث عن جاحدين يستحقون العقوبة ، ولكن الله ـ تعالى ـ معنيا مع سنته ، لا يعجل لهم ما يستحقون ، ويعين على المزيد من توضيح هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ فى سورة « المعارج » :

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ ﴾ (سورة المعارج)

فهكذا يأمر الله نبيه بالصبر الجميل على الكافرين الذين يجحدون نعمة الله عليهم فيكفرون به ويؤذون رسوله .

والموطن الثالث : أن استواء الله ـ تعالى ـ على العرش من الأمور التى أختلف علماء الاسلام حول المراد منه ، إختلافا يتنزه به ـ تعالى ـ عما لا يليق بذاته ولا يناقض ما ورد فى كتاب الله ولا ما روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ ولا ما أثر عن الصالحين مما يتصل بهذا المقام .

وأول ما ينبغى أن نبدأ به ذلك ، بيان معنى الاستواء فى كلام العرب ، وهو كما يقول شيخ المفسرين متصرف على وجوه :

١ ـ انتهاء شباب الرجل ، فيقول إذا صار كذلك : قد استوى الرجل .

٢ ـ إستقامة ما كان فيه أود من الأمور والأسباب ، وقد يقال : استوى لفلان أمره ، إذا استقام بعد أود .

٣ ـ الإقبال على الشىء ، ومنه يقال : إستوى فلان على فلان ، بما يكرهه ويسوؤه بعد الإحسان اليه .

٤ ـ الاستيلاء والاحتواء ، ومنه يقال : استوى فلان على المملكة ، بمعنى احتوى عليها وحازها .

٥ ـ العلو والارتفاع ، ومنه : إستوى فلان على سريره ، يعنون به علوه عليه .

هذا معنى الاستواء فى اللغة .

فأما استواء الله ـ تعالى ـ على العرش ، فإن أحدا من السلف الصالح لم ينكر أن الله استوى على عرشه حقيقة ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء ، لأن حقيقة ذلك فوق العقول . ولهذا قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

غير أن بعض العلماء لا يسايرون مالكا ، ولا يوافقونه على ما ذهب إليه من مذهب ولكنهم يفصلون الكلام فى ذلك تفصيلا يحاولون به الاقناع .

ومن أشهر الذين تكلموا فى هذا الأمر ، فأوسعوه بحثا وصرفوا القول فيه تصريفا صاحب مفاتيح الغيب ، فقد قال رحمه الله : لا يمكن أن يكون المراد من استوائه ـ تعالى ـ على العرش ، كونه مستقرا عليه ، فإن هذا المراد فاسد ، ودليل فساده العقل والنقل .

أما العقل : فانه لو كان مستقرا على العرش ، لكان متحيزا ، ولو كان متحيزا لكان محدثا ، وليس هو كذلك ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

أما النقل : فإن فى الآية الكريمة ثلاثة أمور ، كل واحد منها يدل على وجود الله ـ تعالى ـ وقدرته وحكمته ، وأول هذه الأمور قوله تعالى :

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ (سورة الأعراف ٥٤)

فهذا دليل على وجود الله وعلى قدرته وحكمته . وثانيها ، قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (سورة الأعراف ٥٤)

وهذا دليل على الوجود والقدرة والعلم ، وثالثها ، قوله آخر الآية : « **ألا له الخلق والأمر** » وهو أيضا إشارة إلى كمال قدرته وحكمته .

وإذا ثبت هذا ، فإن أول الآية إشارة إلى ما يدل على الوجود والقدرة والعلم ،

وآخرها يدل أيضا على هذا . وإذ قد كان ذلك كذلك ، فإن الإستواء على العرش يجب أن يكون دليلا على كمال القدرة والعلم ، لأنه لو لم يدل على هذا ، لكان كلاما أجنبيا عما قبله وعما بعده ، فإن كونه ـ تعالى ـ مستقرا على العرش ، لا يصلح دليلا على كمال القدرة والحكمة ، ولا هو أيضا من صفات المدح والثناء ، لأنه ـ تعالى ـ قادر على أن يجلس النمل والبعوض على العرش وعلى ما فوق العرش ، وهذا دليل على أن كونه جالسا على العرش ليس من دلائل إثبات صفات المدح والثناء ، فلو كان المراد من قوله : « **ثم استوى على العرش** » كونه جالسا على العرش ، لكان ذلك كلاما أجنبيا عما قبله وعما بعده . وهذا يستلزم الركاكة ، التى يتنزه عنها كلام رب العالمين . فثبت بذلك أن المراد من الإستواء ، ليس هو الإستقرار على العرش ، بل المراد منه كمال القدرة فى تدبير الملك والملكوت . وبهذا يصبح الاستواء على العرش مناسبا لما قبله وما بعده فى أثبات الوجود والقدرة والعلم لله جل ثناؤه .

وأمر ثان ، يجب التنبه له والتأمل فيه ، وهو الآية الكريمة من سورة « الانعام » :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ ﴾ (سورة الأنعام ١٢)

فلو كان الله ـ تعالى ـ مستقرا على عرشه فى السماوات لزم كونه ـ تعالى ـ ملكا لنفسه ، وهذا محال . فقد ثبت بمجموع ما يدل عليه العقل والنقل ، أنه لا يمكن حمل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (سورة الأعراف) على التمكن والإستقرار وشغل المكان والحيز .

والعلماء الراسخون فى العلم ، لهم حيال هذا المعنى مذهبان :

أحدهما : يقطع بكونه ـ تعالى ـ متعاليا عن المكان والجهة ، ويرفض الخوض فى تأويل الآية على التفصيل ، مع تفويض على ذلك إلى الله ، كما يقول الله ـ عز وجل ـ فى سورة « آل عمران » :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ۙ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

والمذهب الآخر : الخوض فى التأويل على التفصيل ، وفى هذا المذهب يقول القفال رحمه الله : العرش فى كلامهم هو السرير الذى يجلس عليه الملوك ، ومنه قول الله ـ تعالى ـ حكاية عن ملكة سبأ :

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

ثم جعل كناية عن الملك ، فيقول العرب : ثل عرش فلان ، يعنون : انتقض ملكه وفسد أمره ، فاذا استقام له الملك واطرد الأمر ونفذ الحكم ، قالوا استوى على عرشه ، واستقر على سرير ملكه ، ونظيره قولهم للرجل الطويل : أنه طويل النجاد[1] ، وللرجل كثير الضيوف : إنه كثير الرماد ، وللرجل الذى أدركته الشيخوخة : اشتعل رأسه شيبا . وهم حين يقولون ذلك ، لا يريدون فى شىء منه إجراء الألفاظ على ظواهرها ، ولكنهم يريدون تعريف المقصود منها على سبيل الكناية ، والأمر هنا هكذا . فذكر الاستقرار على العرش ، إنما يراد به جريان قدرته ونفاذ مشيئته وقضاء حكمه .

ولما وصف الله ـ تعالى ـ نفسه بما هو أصل له من الكمال فى ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم ، على الوجه الذى تعارفوا عليه وألفوه من الملوك والرؤساء ، إستقرت فى قلوبهم عظمة خالقهم ، نافين عنه ـ تعالى ـ التشبيه ، فإذا قال ـ سبحانه ـ إنه عالم فهموا من ذلك أنه لا يخفى عليه شىء ، مع فهمهم أنه لم يحصل له ذلك العلم بفكر ولا روية ولا استخدام حاسة ، وإذا قال إنه سبحانه ـ قادر ، علموا من ذلك أنه متمكن من إيجاد الكائنات وتكوين الممكنات ، مع علمهم عن طريق عقولهم أنه ـ سبحانه ـ غنى فى ذلك الإيجاد والتكوين عن الآلات والأدوات وسبق المادة والزمن والفكر والروية . وإذا أخبر ـ تعالى ـ أن له بيتا يجب على عباده حجه ، فهموا من ذلك أنه نصب لهم موضعا يقصدونه لمسألة ربهم وقضاء حوائجهم ، كما يقصدون بيوت ملوكهم ورؤسائهم لمطالبهم وقضاء حوائجهم ، مع علمهم عن طريق عقولهم أن الله ـ تعالى ـ لا شبيه له ولا مثيل ، وأنه ـ تعالى ـ لم يجعل ذلك البيت سكنا لنفسه ، ولم ينتفع به فى الوقاية من الحر والبرد ، وإذا أمرهم بتحميده وتمجيده ، فهموا من ذلك أنه أمرهم بغاية تعظيمه ثم عرفوا بعقولهم أن ذلك لا يفرحه ، وأن التقصير فيه لا يغمه أو يحزنه .

(١) النجاد : هائل السيف .

فإن أنت عرفت هذه المقدمة ، فاعرف معها أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه خلق السماوات والأرض كما شاء ، غير منازع ولا مدافع ، ثم أخبر بعد ذلك أنه استوى على العرش ، وأنه يدبر المخلوقات على ما يشاء ويريد ، فكان قوله : « **ثم استوى على العرش** » أى بعد أن خلق السماوات والأرض إستوى على عرش الملك والجلال . والدليل على أن هذا هو المراد من التركيب فى الآية ، قوله فى آية أخرى فى سورة « يونس » :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾

فقوله فى هذه الآية : « **يدبر الأمر** » جرى مجرى التفسير لقوله : « **إستوى على العرش** » وكذلك فى الآية من سورة « الأعراف » يقول ـ جل ثناؤه ـ :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾

(سورة الأعراف ٥٤)

ويتبع هذه الجملة بقوله سبحانه :

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ ﴾

فهذا جار مجرى التفسير للاستواء على العرش فى هذه الآية .

فإن قيل : إذا حملتم قوله : « **ثم استوى على العرش** » على معنى الاستواء على الملك ، فإن ذلك يستلزم أن الله لم يكن مستويا على الملك قبل خلق السماوات والأرض .

قلنا : إنه ـ تعالى ـ إنما كان قبل خلق العوالم ، قادرا على تخليقها وتكوينها ، ولم تكن هى مكونة ولا موجودة بأعيانها فعلا . والذى قدر على إيجاد العوالم من العدم ودبر أمرها بعد إيجادها ، هو المالك الحق الذى لا ملك على الحقيقة لأحد سواه .

وهذا الذى ذهب إليه القفال مع كثير من أهل الفقه بلغة القرآن ، يدور حول الكناية ، ويرفض أن يكون الاستواء على العرش مرادا به حقيقة التمكن والاستقرار .

معنى الكناية

ولعل مما يعين على توضيح المقام أن نشير إلى معنى الكناية ، وإلى مزية ايثارها على الحقيقة من التعبير .

فأما الكناية ، فإنها عند علماء البلاغة هى اللفظ الذى لا يراد به المعنى الذى وضع له ، ولكن يراد به لازم معناه ، مع تجويز إرادة المعنى الأصلى ، ومثال ذلك أن يقول القائل : يد فلان مبسوطة ، يريد أنه جواد ، فقد أطلق اللفظ هنا وأراد لازم معناه وهو أنه جواد ، ولم يرد حقيقة المعنى وهو أنه بسط يده فعلا ، لأنهم يقولون ذلك فى حق من لم يبسط بالعطاء يدا ، كأن يأمر خازنه بالعطاء ، بل ربما قالوا ذلك التعبير فى حق من لم تكن له يد أصلا .

وعلماء البلاغة يذكرون أن الكناية تتنوع إلى أنواع ثلاثة ، يجمعها كلها تعريفهم إياها بأنها إستعمال اللفظ فى لازم معناه وليس فى حقيقة معناه .

النوع الأول : كناية عن الموصوف ، كما يقول القائل : أصاب الجندى برصاصة موطن الحقد من عدوه ، يعنى بذلك قلبه .

النوع الثانى : كناية عن الصفة ، كما قال الشاعر يصف سخيا جوادا :

فبابك أسهل أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالزائرين من الأم بابنتها الزائرة

فالشاعر فى هذا الشعر وصف هذا السخى الجواد بغاية الجود ، معبرا عن ذلك بكثرة غشيان الناس داره ، حتى لقد ألف كلبه الناس وآنس بهم ، كما تأنس الأم بابنتها حين تزورها .

والنوع الثالث : كناية عن النسبة ، وذلك قول الشاعر مادحا جوادا :

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

فقد أراد الشاعر بهذا البيت أن ينسب هذا الجواد إلى الجود ، وأن ينسب الجود إليه فيجعله ملازما له ملازمة الرفيق لرفيقه ، فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ولكن يحل معه حيث حل ، ويرحل معه حيث إرتحل .

وعلى هذا يكون الاستواء على العرش فى مذهب الخلف ، كناية عن الملك ، فإنه لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك ، جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا : إستوى فلان على العرش ، يريدون بذلك أنه ملك وإن لم يقعد على السرير البتة . . وذلك على مثال ما قالوا : يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين ، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أو لم تكن له يد أصلا ، قيل فيه : يده مبسوطة ، لمساواته عندهم قولهم هو جواد . . . ومن ذلك قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (سورة المائدة ٦٤)

يعنون أنه بخيل ، ثم قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (سورة المائدة ٦٤)

أى هو جواد من غير أن يتصور متصور فى ذلك يدا ولا غلا ولا بسطا ، وتفسير اليد بالنعمة ـ وإن كان سائغا ـ يدعو إلى التمحل فى تفسير اليدين ، وهو على ما يقوله الزمخشرى : من ضيق العطش والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام .

هذا ما يتصل بمعنى الكناية .

فأما ما يتصل بمزيتها ، فإن إثبات المعنى بها يستصحب الدليل عليه .

وعلى هذا يكون المعنى : أنه ـ سبحانه ـ له تمام الملك والقدرة والتدبير ، بدليل أنه قد استوى على العرش الذى هو علامة الملك وأمارته . والمصير إلى هذا المعنى خير من ترك اللفظ يحيط به الغموض والإبهام .

مذهب السلف أعلم ، والخلف أحكم

وخلاصة ما روى عن الفقهاء بمعانى القرآن فى هذا الباب ، أن للناس فى تفسير الاستواء على العرش مذهبين :

مذهب السلف ، الذى يفوض الأمر إلى الله فى معنى الاستواء ، فلا يبحث عن حقيقته ولا يصرف الكلام عن وجهه . ومذهب الخلف ، الذى يحاول التماس معنى

تطمئن إليه النفس وتتيسر به سبيل الاعتقاد ، فيصرف التعبير عن الحقيقة إلى الكناية .

وقد كان شيوخنا ـ رضى الله عنهم ـ كثيرا ما يرددون قولا يؤثر عنهم : مذهب السلف أعلم ، ومذهب الخلف أحكم .

والسلف والخلف جميعا إنما يقصدون إلى تنزيه الله ـ عز وجل ـ عما لا يليق بذاته ، وهم جميعا مقيدون بأساليب اللغة التى نزل بها القرآن .

وقد وردت كلمة « العرش » فى القرآن الكريم فى أكثر من عشرين آية ، لا نشك فى أن بعضها يصعب على النفس فقهه أو التسليم به أو الانقياد له إذا حمل اللفظ فيه على حقيقة معناه ، لأنه يفضى بالمسلم إلى إعتقاد التحيز التى يتنزه عنه رب العالمين . وذلك فى مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

فالمصير إلى الكناية فى مثل هذا التعبير أرضى للنفس وأيسر للاعتقاد . وهو فى الوقت نفسه آخذ بعرف اللغة ، ونازل على مقاصد القرآن .

ومما تنبغى الإشارة إليه ، أن التعرض لخلق كون الله العظيم فى الآيات الشريفة ، كان على سبيل الاجمال ، وأن آية أو آيات من القرآن الكريم ، لم تفصل ذلك كما فصلته الآيات من سورة « فصلت » :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ
فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة فصلت)

فهذه الآيات الأربع هى شرح وتفصيل ، أو كالشرح والتفصيل لما ورد مجملا عن خلق السماوات والأرض فى كتاب الله الكريم .

وقد يكون من الحيز فى هذا المقام الإشارة إلى أنه ربما يقع فى أوهام من تخفى عليهم أساليب العربية ، أن فى القرآن تناقضا بين الآيات التى نصت على أن مدة خلق السماوات والأرض ستة أيام ، وبين آيات سورة « فصلت » هذه ، التى توهم النظر السطحى أن مدة الخلق ثمانية أيام .

ومن أجل هذا قال الزجاج : إن معنى « فى أربعة أيام » فى تتمة أربعة أيام . ومثال ذلك قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ، وبقى فى تتمة خمسة عشر يوما ، وعلى ذلك يكون خلق الأرض استغرق يومين ، ويكون تقدير أقواتها وأرزاق أهلها وأنهارها وأشجارها ودوابها ، استغرق يومين ، فالجملة أربعة أيام ، وبهذا يظهر معنى ما ذكره الزجاج من قوله : فى تتمة أربعة أيام .

وحول الآيات التى ذكرت خلق السماوات والأرض ، مفصلة فى سورة « فصلت » ومجملة فى غيرها ، قال أهل العلم :

تقول العرب : إستوى فلان إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه توجها لا يلوى على شىء ، وليس هو من الإستواء الذى هو ضد الاعوجاج ، ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ : « **فاستقيموا إليه** » ، ومعنى أن الله ـ تعالى ـ استوى إلى السماء أنه تعالى دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها ، من غير صارف يصرفه عن ذلك . وكان عرش الله ـ تعالى ـ قبل خلق السماوات والأرض على الماء ، فأخرج ـ سبحانه ـ من الماء دخانا ، فإرتفع الدخان فوق الماء وعلا عليه ، فأيبس سبحانه الماء وجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها وجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع .

ومعنى أمر السماء والأرض بالاتيان امتثالا لأمره فى قوله : « **قالتا أتينا طائعين** » (**فصلت ١١**) ، هو أنه تعالى أراد تكوينهما فلم تمتنعا عليه ، بل تكونتا كما أرادهما . وكلنا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع . فهذا التعبير من المجاز الذى يسميه أهل البيان التمثيل . وجائز أن يكون هذا التعبير على التخيير . والغرض هو تصوير أثر قدرته ليس غير ، دون أن يكون هناك خطاب أو جواب .

ومثال ذلك من لسان العرب ، قول القائل : قال الجدار للوتد : لما تشقنى ؟ . قال له الوتد : لا تسلنى ، ولكن إسأل من يدقنى . وقول الراجز :

إمتـلأ الحـوض وقـال قَـطْنى مهلا رويدا قـد ملأت بـطنى

وإنما ذكر الله الأرض مع السماء وانتظمهما فى الأمر بالإتيان ، مع أن الأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ، لأن الله ـ تعالى ـ خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة ، ثم دحاها وبسطها بعد خلق السماء ، كما قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (سورة النازعات)

والمعنى على ذلك أنه ـ تعالى ـ توجه إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : إئتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، فأما أنت يا أرض فأت مدحوة ، قرارا لأهلك ومهادا ، وأما أنت يا سماء فأت مقبية سقفا مرفوعا لأهل الأرض . والاتيان هو الحصول والوقوع ، كما تقول : أتى عمله مرضيا وجاء مقبولا . وجائز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الاتيان الذى أردته ، واقتضته الحكمة والتدبير من كون الأرض قرارا للسماء ، وكون السماء سقفا للأرض .

وقد تناول هذا الموضوع الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره « الجواهر » ، فقال ـ رحمه الله ـ : إن الله ـ تعالى ـ خلق الأرض فى يومين ، يعنى

فى نوبتين ، نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ونوبة جعلها طبقة فى ستة أدوار معروفة فى علم طبقات الأرض . فجمودها نوبة ، ونظام طبقاتها نوبة . وقد بارك سبحانه الأرض وكثر خيرها ثم قدر أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين الذين يسألون الأقوات لتتم لهم حقيقة الحياة ، وهم كل حيوان على وجه الأرض ، فالناس والحيوان كلهم سائل ربه ما يحتاج إليه من طعام وشراب . وذلك السؤال هو سؤال طبيعى فيهم مغروس فى جبلتهم ، سواء فى ذلك النملة والنحلة والذئب والشاة . كل أولئك محتاج إلى الله وسائله حاجته كما يفعل الانسان سواء بسواء .

ثم إنه ـ تعالى ـ قصد إلى السماء وهى دخان ، أعنى مادة غازية نارية أشبه شىء بالدخان أو بالسحاب وهو ما نسميه اليوم (عالم السديم) ، وقد شاهد العلماء اليوم ألوفا من تلك العوالم توشك أن تبرز للوجود من جديد ، وهى لا تزال على الحالة السديمية . وهى عوالم كعالمنا الشمسى ، وسوف تبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت فى الأرض دخانا .

ونحن ـ مهما تكن قدرتنا العلمية ـ لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان ، وغاية ما نعرف ، أن احداهما للبداية ، والأخرى للنهاية . . . إلى آخر ما قال ذلك العالم المفضال رحمه الله .

أما بعـد :

فإن قضية بدء الخلق تعرض لها العلماء المؤمنون وغير المؤمنين فى القديم والحديث ، وليس حديثهم فى ذلك بالغا منزلة اليقين ، مهما تكن الثقة بقوة عقولهم وسلامة تفكيرهم وتوافر قدرتهم على البحث والاستقصاء .

وكل ما ذكره هؤلاء السادة فى هذا الشأن ، لا يزيد على أنه ضرب فى مجالات الفروض ، أو تحليق فى أجواء المجهول . ومع أن المنصف لا يستطيع أن يجحد ما بذلوا فيه من جهد ، هو كذلك لا يستطيع أن يطمئن إلى ما ظفروا به من نتائج ، وسند المسلم فى ذلك قوله ـ جل ثناؤه ـ :

﴿ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾

(سورة الكهف ٥١)

(١٤)

تفسير قول الله ـ جل ثناؤه ـ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

إلى قوله :

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فأول ما يتساءل عنه فى هذه الآيات : « ذو القرنين » من هو ؟ .

والثانى : ما المراد بمغرب الشمس ؟ .

والثالث : ما المراد بمطلع الشمس ؟ .

والرابع : ما المراد بالدين ؟

والخامس : ما المراد بيأجوج ومأجوج ؟ .

فأما ذو القرنين ، فإن أسلافنا يعرفونه بالرجل الطواف ، كما يقول ابن هشام والامام السهيلى ، ثم يختلفون فى إسمه ، فمن قائل إن إسمه « هرمس » أو « هرويس » ، وابن هشام يسميه الصعب ابن ذى مرائد ، ويعتبره أول التابعة ملوك اليمن . وربما سموه أفريدون بن أثقيان ، الذى قتل الضحاك .

ويذكر الامام السهيلى أن قس بن ساعدة ذكره فى خطبته فى سوق عكاظ : « يا معشر اباد » ، ابن الصعب ذو القرنين ، الذى ملك الخافقين ، وأذل الثقلين ، وعمر العين ، ثم كان ذلك كلحظة عين .

وقد أنشدوا للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوِيًا ــــ بالحِنو فى جَـدَثٍ أُمَيمَ مقيم

والحنو : حنو قرافر الذى مات فيه ذو القرنين بالعراق .

ويقول ابن هشام : إنه رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى . من ولد يونان ابن يافث بن نوح . واسمه الإسكندر ، وهو الذى بنى مدينة الاسكندرية فنسبت إليه .

ويقول إبن إسحاق رواية عن معدان الكلابى ، وكان رجلا قد أدرك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن النبى - صلوات الله عليه - قد سئل عن ذى القرنين ، فقال : « هو ملك مسح الأرض بالأسباب » ، ولم يشرح معنى الأسباب .

قال الإمام السهيلى : وأهل التفسير لهم فيه أقوال متقاربة ، فقد قالوا فى قوله - تعالى - : « **وآتيناه من كل شىء سببا** » أى علما يتبعه .

وفى قوله - تعالى - : « **فأتْبَع سببا** » ، أى طريقا موصلة ، ويقول ابن هشام فى غير السيرة : إن السبب هو حبل من نور كان ملك يمشى به بين يديه فيتبعه ، وقد قيل إن اسم ذلك الملك : زياقيل .

وهذا يقرب من قول من قال : سببا أى طريقا . ويقرب أن يكون تفسيرا لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مسح الأرض بالأسباب » .

وقد اختلفوا فى تسميته بذى القرنين ، كما اختلفوا فى اسمه واسم أبيه . وأصح ما جاء فى ذلك ما روى عن أبي الطفيل عامر بن وائل ، قال : سأل ابن الكواء على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قال : أرأيت ذا القرنين أنبيا كان أو ملكا ؟ . فقال على : لا نبى كان ولا ملكا ، ولكن كان عبدا صالحا دعا قومه إلى عبادة الله فضربوه على قرنى رأسه ضربتين ، وفيكم مثله . يعنى نفسه . وقيل كانت له ضفيرتان من شعر ، والعرب تسمى الخصلة من الشعر : قرنا ، ومنه قول الأسدى :

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها بنى شاب قرناها تصر وتحلب

أراد : يا بنى التى شاب قرناهما .

فأما مغرب الشمس : فقد قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى : تَغْرُبُ فى عين حامِية ، بدل « حَمِئَة » ، ومعنى حامية : حارة ، ومعنى حمئة : كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء . وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة .

وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الشمس حين

غربت ، فقال : « نار الله الحامية لولا ما يزعها من الله لأحرقت ما على الأرض » .

وقال ابن عباس : أقرأنيها أبى كما أقرأه رسول الله : « فى عين حمئة » .

غير أن معاوية كان يقول : هى حامية . فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين ، فجعلوا بينهم كعبا حكما ، وقالوا : يا كعب كيف تجد هذا فى التوراة ؟ . فقال كعب : أجدها تغرب فى عين سوداء . فوافق ابن عباس .

وقال القفال : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسها ، لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، وانما المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة ، كما نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ، ولهذا قال : « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » ، ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم .

وقد وجد ذو القرنين عند نهاية العين قوما هم أهل « جابرس » ، وهى بالسريانية « جارجيسا » ، يسكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح ، كما قال السهيلى .

هذا ما رواه القرطبى وغيره من الأقدمين فى صدد الآيات الشريفة .

ويقول ابن القيم فى كتابه (اغاثة اللهفان) :

إن الاسكندر المقدونى هو ابن فيلبس ، وليس هو بالاسكندر ذى القرنين الذى قص الله ـ تعالى ـ نبأه فى القرآن ، بل بينهما قرون كثيرة ، وبينهما فى الدين أعظم تباين .

فذو القرنين كان رجلا صالحا موحدا لله ـ تعالى ـ يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكان يغزو عباد الأصنام ، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج .

وأما هذا المقدونى فكان مشركا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته ، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة ، والنصارى تؤرخ له ، وكان أرسطاليس وزيره ، وكان مشركا يعبد الأصنام .

والإمام جمال الدين بن نباتة المصرى من أعيان القرن الثامن الهجرى ، يوافق الإمام ابن القيم على رأيه هذا ، فيقول ـ رحمه الله ـ : والصحيح أنه الاسكندر بن فيلبس ، وسمى ذا القرنين تشبيها بذى القرنين المذكور فى الكتاب العزيز ، لبلوغ ملكه قرنى الشمس من المشرق والمغرب ، وهو صاحب أرسطاليس الحكيم الفيلسوف ، وكان أبوه سلمه إليه ، فأقام عنده خمس سنين يتعلم منه الحكمة والأدب ، فنال منه ما لم ينل أحد من تلامذته ، ولما مرض أبوه خاف على الملك فاسترده ، وعهد إليه بالملك من بعده ، فلما تولى ملك أبيه أظهر من العبقرية وحسن الرأى والشجاعة وقوة التدبير وجميل الوفاء لمعلمه أرسطو ، ما جعله مضرب الأمثال فى كثير من فضائل الرجال .

ومما يذكر له بالتقدير ما رواه ابن نباتة عنه مما يدل على بعد نظره وقوة فكره وحسن سياسته ، فقد قيل له ذات يوم : إن فلانا يشتمك ، فلو عاقبته لأحسنت . فأبى أن يعاقبه قائلا : هو بعد العقاب أعذر ، وتحاكم إليه اثنان ليقضى بينهما فى أمر فقال لهما : الحكم يرضى أحدكما ويسخط الآخر ، فاستعملا الحق ليرضيكما جميعا . وجىء إليه يوما بلص فأمر بصلبه . فقال : أيها الملك انما فعلت ما فعلت وأنا كاره . فقال الاسكندر : تصلب أيضا وأنت كاره . وغضب ذات يوم على بعض شعرائه فأقصاه ، وفرق ماله فى أصحابه ، فسئل عن حكمته فى هذا التصرف ، فقال : أما إقصائى له فلجرمه ، وأما تفريقى ماله فى أصحابه ، فلكى لا يشفعوا فيه . وجلس ذات يوم مجلسا عاما للرعية ، فلم يسأله أحد حاجة ، فقال : والله ما أعد هذا اليوم من ملكى . فقيل له : ولم ذلك أيها الملك ؟ . فقال : إن لذة الملك لا وجود لها إلا باسعاف الراغبين ، وإغاثة الملهوفين ، ومكافأة المحسنين .

وأما مطلع الشمس : فالمراد منه أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس ، والشمس تطلع وراء ذلك بمسافات بعيدة ، وهؤلاء القوم ـ فيما يقول الكلبى ـ يسمون « تارسى » ، وهاويل ومنسك ، وهم حفاة عراة عماة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ويتهارجون تهارج الحمر ، وقيل هم أهل جابلق ، وهم من نسل مؤمنى عاد الذين آمنوا بهود ـ عليه السلام ـ ويقال لهم بالسريانية « مرقيسا » ، والذين هم عند مغرب الشمس هم أهل « جابرس » ، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج .

والمراد بالسدين جبلان : أرمينية وأذربيجان ، ومن وراء الجبلين قوم من الخلق لا يفقهون يعنى لا يفهمون أحدا قولا كذلك ، وهما قراءتان صحيحتان .

والسد ، هو وضع ما ينتفى به الخرق ، ومنه : سدد السهم ، بمعنى أحكم تصويبه إلى الهدف لأنه سد عليه طرق الاضطراب ، ومنه السداد : بمعنى الصواب .

والفرق بين السد والردم ، أن السد كل ما تسد به ، وأما الردم فهو وضع الشىء على الشىء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع . ومن ذلك : ردم ثوبه ، إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومن ذلك قول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَردَّم أم هل عرفتَ الدار بعد تَوهُّم

يعنى عنترة أن الشعراء لم يغادروا قولا يركب بعضه فوق بعض .

وأما يأجوج ومأجوج : فمن أهل اللغة من ذهب إلى أنهما كلمتان عربيتان ، وحبل يأجوج على وزن يفعول ، ومأجوج على وزن مفعول ، وكأنه اعتبرهما من أجيج النار ، ومنهم من لم يهمزهما .

ويأجوج ومأجوج أمتان ، كل أمة منها ذات عدد كبير لا يعلمه إلا الله . وفى صفاتهم أختلفت الآراء اختلافا شديدا ، بعضه يسوغ قبوله وبعضه لا يسوغ .

تلك خلاصة ما ذكره الأسلاف عن ذى القرنين .

ومولانا أبو الكلام آزاد العالم الهندى الفاضل له بحث جليل بذل فيه ـ رحمه الله ـ من جهده وماله مالا يسخو به إلا حريص على العلم غيور على كتاب الله . وليس فى طاقة بحثنا هذا أن يستوعب كل ما ذكره مولانا آزاد ، فنكتفى منه بذكر شواهد يستبين بها الفرق بين ما ذهب إليه الأسلاف وما كشف عنه الأخلاف ، راجين أن تتهيأ لنا فرصة ينشر فيها بحثه فى كتاب مستقبل إن شاء الله .

قال أبو الكلام :

والظاهر من أسلوب الآيات الشريفة أن النبى ـ ﷺ ـ سئل عن ذى القرنين فجاءت الآيات جوابا للسؤال . فروى الترمذى والنسائى والإمام أحمد ، أن قريشا ـ بإيعاز من علماء اليهود ـ سألت النبى عن أمور ، منها ذو القرنين ، فقالت : من هو ؟ وما أعماله ؟ . وروى القرطبى عن السعدى : قالت اليهود : أخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة إلا فى مكان واحد ، قال : ومن ؟ . قالوا : ذو القرنين . وقد أحصى

ابن جرير وابن كثير والسيوطى الروايات فى هذا الصدد فى تفاسيرهم .

وما ذكر فى الآيات من خصائص ذى القرنين ، يتلخص فيما يأتى :

١ ـ الرجل الذى سألوا النبى عنه كانوا يسمونه ذا القرنين ، أى أن هذا الاسم أو اللقب لم يصفه القرآن من عنده ، بل الذين سألوا عنه هم الذين أطلقوه عليه ، ولذلك قال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ (سورة الكهف ٨٣)

٢ ـ هذا الرجل أعطاه الله الملك ، وهيأ له أسباب الحكم والغلبة .

٣ ـ كانت مهماته الحربية الكبرى ثلاثا : الأولى غربية ، زحف من بلاده متوجها إلى الغرب حتى وصل مكانا له حد المغرب ، فوجد الشمس هناك كأنها تغرب فى عين حمئة . والمهمة الثانية وصلت به إلى مكان به مضيق جبلى ، ويشن من ورائه قوم الغارات على الأهالى ، وقد أطلق على هؤلاء المغيرين : يأجوج ومأجوج .

٤ ـ أقام سدا فى المضيق الجبلى لمنع غارات القوم .

٥ ـ لم يتكون هذا السد من الحجر والآجر فقط ، بل استعمل فيه الحديد وأفرغ عليه النحاس كذلك فأصبح سدا منيعا تعجز دونه همم المغيرين .

٦ ـ كان مؤمنا بالله وباليوم الآخر .

٧ ـ كان ملكا عادلا رحيما برعيته لا يتبع الفتك والقسوة بالمغلوبين ، فإنه لما تغلب على قوم فى الغرب ، ظنوا أنه يرهقهم كغيره من الملوك الفاتحين ، فلم يفعل ذلك وهم فى قبضة يده لا ناصر لهم ، إلا أنه أنفق عليهم ، وكسب قلوبهم بعدله وإحسانه .

٨ ـ لم يكن حريصا على المال ، فإنه لما أراد الفتوحون أن يجمعوا له المال لإقامة السد ، أبى أخذه منهم قائلا : إن ما أعطانى الله ـ تعالى ـ يغنينى عن أموالكم ، ولكن أعينونى بقوة أيديكم أقم لكم سدا حديديا منيعا .

فالشخصية التاريخية التى هذه أعمالها وصفاتها ، هى شخصية ذى القرنين .

ولكن من ذو القرنين ؟ . ومتى وأين وجد ؟

إن أول ما يشغل بال المفسرين فى هذا الصدد ، هو اسم الرجل أو لقبه ، إذ لم

يعرف أن يكون للإنسان قرن أو قرون ، ولم يعرف فى التاريخ ملك لقب بهذا اللقب ، ولهذا تحيروا أو تخبطوا فى تفسيره . فقال بعضهم : إن القرن لم يستعمل فى معناه الظاهر بل أريد به الزمن .

ولما كان هذا الملك قد امتد حكمه واتسع نطاق فتوحه إلى عهدين كبيرين لقب بذى القرنين . ثم اختلفوا فى تحديد مدة القرن ، فقيل ثلاثون سنة ، وقيل خمس وعشرون سنة ، وقيل عشر سنين ، أقوال لا طائل تحتها .

وجمع ابن جرير فى تفسيره آثار الصدر الأول فى الباب ، ولكنها لا تلقى ضوءا على شخصية خاصة بل تبحث فى أنه كان نبيا أو غير نبى ، بشرا أو ملكا . ولكن الآثار أجمعت على أن هذه الشخصية قديمة غارقة فى القدم . . ففى بعض الروايات أنه عاصر إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنه كان من الأنبياء ، فذكره البخارى مع الأنبياء القدماء وقدم ذكره على ابراهيم ، فكأن البخارى رأى أن ذا القرنين وجد قبل ابراهيم بزمن طويل أو فى عصره .

ولما بدأ عهد جديد للبحث والنقد ، اتجهت أذهان بعض المؤرخين إلى اليمين ، فظنوا أنه كما ذكرت الروايات أسماء الملوك الحميريين كذى القرنين وذى الآذار ، فلا يبعد أنه وجد ملك يمنى سمى بذى القرنين كذلك .

وقد صرح بذلك أبو الريحان البيرونى فى كتابه (الآثار الباقية) ، ووافقه عليه ابن خلدون ، ولكن هذه النظرية قامت على إفتراض مخطىء لا يدعمه دليل تاريخى ، بل تخالفه القوانين والشواهد كلها .

فنرى أولا أن الذين سألوا النبى عن ذى القرنين هم اليهود ، أو قريش بإيعاز من اليهود .

ولا يغرب عن البال أن السائلين أرادوا بذلك تعجيز النبى ، وكانوا على يقين من أنه لم يصله خبر عن ذى القرنين من أبناء وطنه فيعجز هو عن الجواب . فلو كان ذو القرنين رجلا من العرب وكان أهل الحجاز على علم به لشاركهم النبى فيما يعلمونه ، ولما كان ثمة وجه للسؤال عن شىء معرف عنده . والسؤال الذى نحن بصدده هو : هل تنطبق الخصائص والأعمال التى ذكرها القرآن لذى القرنين على ملك حميرى ؟ . يذكر القرآن فتوحا له فى المغرب وفتوحا له فى المشرق وإقامة

سد حديدى يمنع هجمات يأجوج ومأجوج ، ولا توجد شهادة تاريخية على وجود ملك حميرى أمعن فى الشرق والغرب مغيرا فاتحا ، وبنى سدا حديديا كما ذكره القرآن .

أما كون بعض ملوك اليمن لقبوا بذى القرنين ، فلا أهمية له . وكذلك التشبث بسد مأرب ، لا يجدى نفعا ، إذ لم يظفر أن هذا السد بنى لصد هجمات مغيرين ، واستخدمت فى بنائه ألواح من الحديد .

ومضى مولانا أبو الكلام فى شرحه لشخصية ذى القرنين ، فقال :

إنه لما تمكن من مشاهدة آثار إيران العتيقة ، ومن مطالعة مصنفات علماء الآثار فيها ، زال الحجاب وظهر كشف أثرى قضى على سائر الشكوك ، وتقرر لديه بذلك ـ دون ريب ـ أن المقصود من ذى القرنين ليس إلا قورش الملك المؤمن القديم . وقال : إن هذا الكشف الأثرى الهام هو تمثال حجرى لقورش بعينه ، وجدوه منصوبا فى مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة (إصطخر) نحو خمسين ميلا على شاطىء نهر (مرغاب) .

وقد فحص علماء الآثار التمثال ونشروا رسما له ، وهو تمثال على القامة الإنسانية يظهر فيه « قورش » وعلى جانبيه جناحان كجناح العقاب ، وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش ، ويده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام ، ولباسه هو لباس ملوك بابل وإيران .

وربما كان هذا التمثال قد صنع بأمر قورش نفسه فى حياته ، أو بأمر خليفة من خلفائه ، كما هو الشأن فى ملوك ذلك الزمان فى كل مكان .

ومضى أبو الكلام يقول :

كانت فتوح قورش المتوالية ، فتوحا ليست لسفك الدماء ، ولا لجمع المال بل لبسط العدل والأخذ بأيدى المظلومين المقهورين ، وقد توغل غربا حتى بلغ ساحل بحر إيجه قريبا من أزمير ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين ، وكان الماء قد أنكدر من وحل الساحل ، فرأى الشمس تغرب مساء فى هذه العين . وهذا هو ما عبر عنه القرآن بقوله : « وجدها تغرب فى عين حمئة » أى أنه تراءى له كأن الشمس تغرب فى بقعة كدرة من الماء .

ثم توغل فى الشرق حتى بلغ (بلخ) ، وهى غاية الشرق الأقصى لإيران ، وبذلك أخضع بلاده (مكران) و (بلوخستان) .

ثم توغل فى الشمال حتى جبال القوقاز ، وهى بحر الخزر والبحر الأسود تكون سدا طبيعيا بين آسيا الغربية والبلاد الشمالية ، وكان فى جبال القوقاز هذه مضيق يجتازه المهاجمون ، ويشنون الغارات على البلاد الواقعة وراءه ، فبنى قورش فى هذا المضيق سدا حديديا وأقفل به الطريق على المغيرين ، ولم يأمن أهل سهول القوقاز وحدهم بهذا السد ، بل أصبح السد بابا مقفلا منيعا لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية ، فأمنت جميع الشعوب القاطنة فى آسيا الغربية ، وفى مصر من جهة الشمال .

ويقول ـ رحمه الله ـ عن سد يأجوج ومأجوج :

إنه توجد فى البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال القوقاز كأنها جدار طبيعى . وقد سد هذا الجدار الجبلى الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب ، إلا طريقا واحدا بقى مفتوحا وهو مضيق فى وسط سلسلة الجبال ، يوصل بين الشمال والجنوب . . ويسمى هذا المضيق فى أيامنا هذه ، مضيق (داريال) ويشار إلى موضعه فى الأطالس الحاضرة بين فلادى كيوكاس وطفيليس ، حيث يوجد إلى الآن جدار حديدى من قديم الأزمان .

ولا ريب أن هذا هو الجدار الذى بناه قورش ، إذ تنطبق عليه الأوصاف التى وصف بها القرآن سد ذى القرنين ، مقررا أنه استخدم فى بنائه الحديد وأفرغ عليه النحاس بعد أن أذابوه لتتصل مفاصله فلا يبقى به خلل ، ومقررا ـ أيضا ـ أنه بنى بين جدارين جبليين ، فهذا هو ما نراه فى مضيق داريال . . جداران جبليان شاهقان أقيم بينهما هذا السد الحديدى الذى أقفل باتصاله بالجدارين الطريق الذى كان مفتوحا بينهما . والكتابات الأرمنية لها أهمية كبيرة فى هذا الأمر لأنها لقرب المكان أصبحت بمنزلة الشهادة المحلية ، وقد سمت هذا السد أو الجدار الحديدى فى اللغة الأرمنية من الدهور السالفة ، بـ (هالك غوارش) و (كابان غوراش) ، ومعنى الكلمتين واحد ، هو : مضيق غوراش أو ممر غوراش . ولا يخفى أن (غور) جزء لاسم غوراش (قورش) بلا ريب ، أفلا يثبت هذا أن غورش (قورش) هو الذى بنى الجدار وإليه نسبوه من قديم الزمان . على أن هنالك شهادة أخرى لا تقل فى أهميتها عن الأولى ، وهى شهادة لغة بلاد جورجيا ، التى هى القوقاز بعينها ، فقد سمى هذا

المضيق باللغة الجورجية من الدهور الغابرة بالباب الحديدى ، وترجمه الأتراك إلى لغتهم (دامركيو) وهو مشهور إلى الآن عندهم .

أما المؤرخون القدماء ، فأول من ذكره منهم هو الرحالة اليهودى المشهور يوسف ، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، ثم ذكره بعد أن عاينه بنفسه المؤرخ (لوبيوس) فى القرن السادس الميلادى .

وذلك أن القائد الرومانى (ساريوس) لما أغار على هذه الجهة فى سنة ثمان وعشرين ميلادية ، كان الرجل معه فشاهد الأرض وما عليها .

والذين يتأملون كلام آزاد ، يتحصل لهم منه أمور :

أولا : المسايرة الكاملة لمنطق القرآن فى الآيات الشريفة التى تحدثت عن ذى القرنين .

وثانيها : التجنب الكامل لما ألصقه الادعياء من الخرافات أو الجهالات بذى القرنين ، والأعمال الجليلة التى قام بها .

ثالثها : إنضمام حجة جديدة فى وضوح الشمس إلى حجج أخر لا نهاية لها ، يستمسك بها الإيمان فى نفس المسلم بمحمد رسول الله ـ ﷺ ـ وتسوق المنصفين من خلاب الحق إلى الإيمان بأنه ـ صلوات الله عليه ـ يعلم الناس ما علمه الله ، وأنه ـ وهو الأمى الذى لم يجاوز الجزيرة العربية ـ علّم من أمر ذى القرنين مالا يعلمه عادة من صاحبه وزامله ، وهو الأمر الصدق الذى كشفت عنه التنقيبات الأثرية ، وخاصة ذلك التمثال الذى نقل صورته مولانا أبو الكلام ، وهو يعتبر شاهد صدق على تلقيب هذا الملك العظيم بذى القرنين .

فرحم الله ـ تعالى ـ مولانا أبا الكلام آزاد ، ونضر وجهه ، وأجزل مثوبته كفاء ما بذل من جهد فى سبيل كشف حقيقة خفيت معالمها على كثير من العلماء .

(١٥)

تفسير قوله جل ثناؤه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الأنبياء)

فهذه الآية تتضمن كلمات تحتاج إلى إيضاح : « **يرى** » و « **رتقا** » و « **فتقا** » ، فأما الكلمة « **يرى** » فإنها تجيء فى لسان العرب حينا بمعنى أبصر وحينا بمعنى علم . وهى حين تكون بمعنى أبصر ، تحتاج إلى مفعول واحد ، وحين تكون بمعنى علم ، تحتاج إلى مفعولين .

ومثاله الأول : قوله ـ تعالى ـ فى شأن ابراهيم عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

فالأفعال الثلاثة ها هنا ، أفعال بصرية ، تحتاج لإدراك معناها إلى مفعول واحد .

ومثال ذلك من الشعر قول العربى :

أحن إذا رأيت جبال نجد ولا أدرى إلى نجد سبيلا

ومثال الثانى : وهو مجىء الفعل « رأى » بمعنى ظن وعلم ، قول الله ـ سبحانه ـ فى سورة « المعارج » :

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ ﴾

(سورة المعارج)

ولا خفاء فى أن معنى الفتق والرتق يختلف بإختلاف المراد من الرؤية ، فإن كانت بصرية : كان الرتق والفتق مما يدخل فى نطاق الحواس ، فالرتق فى السماء ، كونها مصمتة يفتقها المطر ، وفى الأرض كونها كذلك مصمتة يفتقها النبات ، وهو المعنى الذى ذكرته الآية من سورة « الطارق » :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ ﴾

(سورة الطارق)

وفى تفسيرها يقول ابن الكلبى : إن السماء والأرض كانتا رتقاوين ففتق الله السماء بالماء وفتق الأرض بالنبات .

وعن بعض المفسرين : كانت السماوات رتقا لا ينزل منها رجع ، وكانت الأرض رتقا ليس فيها صدع ، ففتقهما الله ـ تعالى ـ بالماء والنبات رزقا للعباد .

ويؤيد هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ فى سورة « عبس » :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا
صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١
مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ ﴾ (سورة عبس)

والآية الشريفة التى نحن بصددها ، ينتفع بها البدوى فى مجال حسه فيهتدى بها إلى الإيمان وينتفع بها العالم المتدبر فى مجال التفكر والتدبر ، فيزداد بها المؤمن إيمانا ، ويحصل بها غير المؤمن حقيقة الإيمان .

فأما إنتفاع البدوى بها فى إهتدائه إلى بارىء السماء والأرض وإدراكه صدق

محمد ـ عليه السلام ـ فآية ذلك لا تخفى على ذى حس صحيح ، وهى تهتف بالناس أن يعتبروا بالمطر الذى تتفتق عنه السماء ، وبالنبات الذى تتصدع عنه الأرض . وهو المعنى الذى فهمه كثير من المفسرين لكتاب الله ، مستشهدين بالآية الكريمة :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة الطارق)

والرجع فى لغة العرب ، هو المطر . والعرب يقولون : رزقنا الله رجع السماء . وكأنهم أرادوا بالرجع الذى هو مصدر إسم الفاعل ، يعنون أنه راجع إلى الأرض ، أى عائد إليها وقد صعد إلى السماء منها . وليس يخفى هذا المعنى على البدوى صاحب الذكاء الفطرى والملاحظة المستفيضة ، التى لم تخف على العرب وبخاصة شعراؤهم ، فهذا أبو ذؤيب يقول : .

سقَى أمَّ عمرو كل آخر ليلة حناتم سود ماؤهن ثجيج
شَربن بماء البحر ثم ترفعت مَتَى لَجَجَ خُضْر لهن نئيج

فأبو ذؤيب يدعو لأم عمرو بالرى الذى تحمله اليها سحائب سوء غزيرة الماء شربت من لجج البحر حتى إرتوت ، ثم إرتفعت إلى السماء فأعادت ما شربته من البحر غيثا إلى الأرض ترتوى منه أم عمرو ومن حولها الإنسان والحيوان .

فالمعنى الظاهر للآية ، معنى يدركه كل واحد ، وخاصة سكان البوادى الذين يعيشون بين سمع الأرض وبصرها ، فيرون المطر نازلا من السماء ، والنبات خارجا من الأرض .

هذا على أن الرؤية حسية بصرية .

فأما إذا كانت قلبية عقلية ، فإن معنى الرتق والفتق يكون خارجا عن نطاق الحواس ، موصولا بمعان تدركها العقول عن طريق المعارف والعلوم . ويكون معنى « كانتا رتقا ففتقناهما » ، أنهما كانتا مرتتقتين ، يعنى أن السماء كانت مرتدقة بالأرض ملتصقة بها بغير قضاء بينهما ، ففتقهما الله ـ تعالى ـ وفرج بينهما .

وجملة ما يمكن أن يقال فى هذا المقام ملخصا ميسرا ، هو أن التعبير « **أو لم ير الذين كفروا** » ، يعطى فى لسان العرب معنى التقرير ، ويحمل الذين يتجه اليهم

القول على التسليم بما يتضمنه الكلام ، ليكون ما يترتب عليه من النتائج داعيا لهم إلى الايمان وهم يكفرون ، فيكون هذا التعبير توبيخا أو كالتوبيخ لهم .

وعلى هذا يكون معنى الآية : إن الكافرين قد رأوا ما يستوجب الإيمان ، ثم نكصوا عنه واعتنقوا الكفر .

وهنا قد يعترض فيقول : إن الحجة غير قائمة على الذين كفروا ، ولا هى ملزمة لهم ، فإنه إذا أريد من الفعل فى الآية « الرؤية » فإنهم لم يروا ، بدليل قول الله - تعالى - ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة الكهف ٥١)

وإذا أريد منه العلم ، فإنهم لم يعلموا ، لأن العلم هنا من الأمور الغيبية التى لا وسيلة إلى بلوغها إلا بالإيمان بالنبوة والسماع من الأنبياء .

والكافرون لم يحصلوا الإيمان ، ومن ثم لم يتيسر لهم السماع الذى تقوم به الحجة عليهم ، وعليه فالآية غير ملزمة والحجة غير قائمة .

وأهل البصر بالمنطق والقدرة على الإقناع يقولون فى هذا المقام : إن المراد من الرؤية فى نظم الآية ، الرؤية البصرية ، التى لا تخفى على أحد له عينان تنظران وعقل يدرك ، فالحجة من هذا الجانب قائمة ، والآية فى هذا المجال ملزمة .

وكذلك الأمر فيما إذا أريد من الرؤية العلم بما يخرج عن نطاق الحواس ويتصل بمعان تدركها العقول عن طريق المعارف والعلوم .

فإن أولئك الكفار كانوا يعلمون ، وكانت علومهم ومعارفهم آتية إليهم عن طريق التوراة ، والذين كان يدعوهم رسول الله إلى الاسلام ، كانوا من أهل الكتاب الذين يؤمنون بالتوراة أو من المشركين ، وكانت الصلة بين أهل الكتاب وبين المشركين - يؤمئذ - صلة قوية تقوم على العداء لمحمد رسول الله ، ومن شأن هذه الصلة أن تجعلهم متكاشفين يعلم بعضهم ما عند بعض ، فاحتج الله - تعالى - عليهم فى هذه الآية بهذه الحجة ، بناء على أن أهل الكتاب ينزلون على حكم التوراة ، وأن المشركين يعلمون من ذلك ما يعلمه أهل الكتاب ، وقد جاء فى التوراة : أن الله - تعالى - خلق جوهرة ، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم خلق السماوات والأرض منها وفتق بينهما . وعلى هذا فهم يعلمون ، وإقامة الحجة عليهم مبنية على هذا العلم .

وثم أمر آخر تقوم به الحجة على أهل النظر إن هم تنازلوا عن عنادهم واحتكموا إلى عقولهم ، وذلك أن يكون المراد بالفتق ، الإيجاد والإظهار كما فى قوله تعالى :

﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة فاطر ١)

وقوله : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ (سورة الأنبياء ٥٦)

فقد أخبر ـ جل ثناؤه ـ فى هاتين الآيتين عن الإيجاد بلفظ الفتق ، وعن الحال التى كانت قبل الايجاد بلفظ الرتق .

وهذا القول يحتاج إلى مزيد من الايضاح ، وقد تكفل بذلك صاحب (المفاتيح) فقال : إن العدم نفى محض ، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة ، فالأمر فى ذلك أمر واحد متصل متشابه ، فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض ، وبهذا النظر حسن فى باب البيان أن يكون الرتق مجازا عن العدم ، وأن يكون الفتق مجازا عن الإيجاد .

ولا يخفى أن هذا المعنى الجليل ، معنى يملأ النفس إعجابا بما بذل علماء الاسلام من جهد فى خدمة القرآن ، يدل على صدق ايمانهم وشدة اخلاصهم ، وبالغ حرصهم على تيسير فهم كتاب الله وتقريب معانيه ، تحقيقا لقول الله ـ تعالى ـ فى سورة « القمر » : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة القمر)

وقوله ـ تعال ـ فى سورة « الدخان » :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (سورة الدخان)

قلنا إن الآية الشريفة أقامت الحجة على المشركين وأهل الكتاب معا ، فى عدم إيمانهم بمحمد وفى إعراضهم عما جاء به ، مع أنه منصوص عليه فى التوراة .

وربما أنكر بعض الغيارى على الإسلام ، الاستشهاد بما ورد فى التوراة ، من حيث كان مبلغ العلم بها أنها محرفة مبدلة .

ولكن الإستشهاد بالتوراة له ما يبرره فى رأى كثير من علماء المسلمين ، فقد قال فى هذا الإمام برهان الدين البقاعى صاحب كتاب (المناسبات) فى التفسير :

إنه لا يجوز للمسلم أن ينكر الاستشهاد بالتوراة والإنجيل ، فإن هو أنكر ،

تلوت عليه قول الله تعالى :

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

وسقت اليهم ما رواه الامام البخارى عن ابن عباس فى صدر قوله تعالى :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴿٤٦﴾ ﴾ (سورة النساء)

وقد قال : ليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ـ عز وجل ـ ولكن يحرفونه بمعنى يتأولونه عن غير تأويله .

ولم يقتصر البخارى على نقل هذا الكلام ، ولكنه أيضا أختاره مذهبا له .

ولعل من الخير فى هذا المقام ، أن ننقل عن الإمام التقى الورع ابن حجر رأيه فى هذا الموضوع ، فقد قال رحمه الله :

اختلف أهل العلم فى تبديل التوراة والانجيل على أقوال :

أولها : أنها مبدلة كلها ، وانبنى على ذلك جواز امتهانها . قال ابن حجر : وهذا إفراط لا يجوز الأخذ به ، ولابد من حمل إطلاق من أطلقه على الأكثر ، وإلا فإنها مكابرة لا تليق بأهل العلم ، فإن الأخبار كثيرة فى أنه قد بقيت منها أشياء كثيرة لم تبدل . وقد أشارت إلى ذلك آيات فى سورة « الأعراف » ، كما أشار إلى ذلك الحديث عن عبد الله بن عمر : أن اليهود جاءوا إلى النبى ـ ﷺ ـ برجل منهم وامرأة تنزانيا ، فقال عليه السلام : « كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ » . قالوا : نسخّمهما ونضربهما يعنون بذلك أنهم يسخمون ويسودون وجهيهما بالفحم .

فقال النبى صلوات الله عليه : « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » . قالوا : لا نجد فيها شيئا . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، فأتوا بالتوراة فاتلوها .

فوضع مدراسها ـ الذى يدرسها منهم ـ كفه على آية الرجم ، وطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، فنزع عبد الله بن سلام يد المدراس عن آية الرجم قائلا له : ما هذه ؟ .

فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم .

قال عبد الله : فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد ، ولقد رأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة ـ يعنى يميل عليها ليتلقى الحجارة دونها .

وثانيها : أن تبديلا وقع ولكن فى معظمها .

وثالثها : أن التبديل وقع فى اليسير منها ، ومعظمها باق على حاله ، وقد نصر هذا الرأى الشيخ الإمام ابن تيمية رحمه الله .

ورابعها : أن التبديل والتعبير انما وقعا فى المعانى لا فى الألفاظ ، وهو ما نقله الامام البخارى عن ابن عباس وارتضاه مذهبا له .

وحول انفصال السماوات عن الأرض ، وإنفصال السماوات بعضها عن بعض حتى أصبحت سبعا ، وإنفصال الأرض بعضها عن بعض حتى أصبحت سبعا كذلك ، يقول بعض الناس فيما حكاه القتبى عن إسماعيل بن أبى خالد فى شرح الآية ، كلاما هو بالأساطير أشبه ، فذلك حيث يقول : كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، ففتق ، من هذه سبع سماوات ، ومن هذه سبع أرضين . خلق الأرض العليا ، فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيها الأنهار وأنبت الأثمار ، وجعل فيها البحار ، عرضها مسيرة خمسمائة عام ، ثم خلق الثانية مثلها فى العرض والغلظ ، وجعل فيها أقواما أفواههم كأفواه الكلاب ، وأيديهم أيدى الناس ، وآذانهم آذان البقر ، وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند إقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج .

ومضى القتبى يروى من هذه الأساطير مالا تنهض به حجة ، ولا يقوم عليه دليل ، حتى بلغ الأرض السابعة .

وهذه الأقوال وأشباهها ، ليس لها من كتاب الله ـ تعالى ـ سند ، ولا من كلام نبيه عليه السلام ـ معتمد ، ولا هى منسوبة إلى فقه من الأسلاف . وتدوينها فى كتب التفسير على أنها مرادة لله ـ تعالى وعز ـ من الأمور التى ينبغى أن يتحرج الغيارى على كتاب الله من تدوينها فى كتبهم ، كما ينبغى أن تضيق بها صدورهم .

وإذا كان لابد من تفصيل ما انطوت عليه الآية من إجمال ، فمن الخير أن يقف المسلم فى هذا مع كتاب الله فيما يتصل بالآيات الكونية فيه . والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وقد قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

كما قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۚ ﴾ (سورة الملك)

ففى الأيتين معان واضحة عن السماوات ، وأنها طبق فوق طبق بعضها فوق بعض ، كما يقرر ذلك شيخ المفسرين ابن جرير ، ويؤيده قول أبى عبيد : إن العرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة ، وهم يقولون فى ذلك : طارقتُ الشىء : أى جعلت بعضه فوق بعض .

ولسنا ندرى لماذا يتنكب كثير من المفسرين طريق القرآن فى تعبيره عن السماوات بأنها طرائق أو طباق بعضها فوق بعض ، مع أن هذه التعبيرات واضحة بينه لا غموض فيها ولا إبهام ، ولا يترتب على اعتقادها ما يناقض عقلا ، أو يدافع علما كشف عنه عالم فى معمل أو راصد فى مرقب .

ثم لماذا يلوذ القتبى وأمثاله برواية تلكم الأساطير التى لا تتفق مع جلال القرآن ، والتى لم يقم عليها دليل من عقل أو نقل ، والتى يراها الغيارى على كتاب الله ضربا فى آفاق الوهم ومجالات الظنون دون حاجة ماسة ولا ضرورة ملحاح ؟ . مع أن كل ما ورد فى القرآن عن تعدد الأرضين لم يزد على هذه الآية من سورة « الطلاق » :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝١٢ ﴾ (سورة الطلاق) .

ومبلغ الظن ، أن خير من كتب فى هذه الآية ، الأستاذ السيد حنفى أحمد أجزل الله له المثوبة ونفع بعلمه ، فذلك حيث يقول ـ فى معرض الحديث عن قول الله تعالى : « ومن الأرض مثلهن » (سورة الطلاق)

إن المثل معناه ما يشبه غيره فى صفة أو أكثر ، فمعنى الآية أنه ـ تعالى ـ خلق من

جنس الأرض التى يسكنها الناس أرضين تشبه السماوات السبع فى صفة أو أكثر ، وبما أنه ـ تعالى ـ خصص السماوات بالعدد سبعة ، فالراجح أن يكون هذا العدد هو أحد أوجه المثلية المقررة بينهما . . وقد ذكر المفسرون آراء مختلفة عن مكان الأرضين ، دون أن يذكروا ما يدعمها بالشواهد . ونرى أن قوله ـ تعالى ـ :

« ومن الأرض مثلهن » (سورة الطلاق ١٢)

يعنى أنه خلق من جنس الأرض مثلهن ، وهو مع قوله :

« خلق سبع سماوات » (سورة الطلاق ١٢)

يفيد أنه ـ تعالى ـ خلق سبع سماوات من غير جنس الأرض .

وعلى هذا الاعتبار يكون معنى الآية : أنه ـ تعالى ـ خلق سبع سماوات من غير جنس الأرض ، وخلق أرضين متعددة ، منها الأرض التى يسكنها الناس ، وهى تشبه السماوات السبع فى بعض الصفات ، وليس فى كل الصفات ، لأنهما مختلفتان على الأقل فى الجنس .

والصفات التى يمكن أن تشترك فيها السماوات السبع والأرضون ـ مع اختلافهما فى الجنس ، ومع كون الآية لا تدل صراحة عليها ـ هى كثيرة ، منها التركيب الكيميائى من حيث نوع العناصر أو مع النسبة بينها ، ومنها طريقة الخلق والنشوء والشكل والعدد ، وطريقة الانتشار فى الفضاء والحركة والسكون ، وغير ذلك .

وقد وردت الأرض فى جميع الآيات بصيغة الإفراد لحكمة مقصورة للخالق ـ تعالى ـ مع أنه خلق أرضين متعددة ، وهذه الحكمة هى أن الناس لا يرون الا الأرض التى يعيشون عليها ، فلو أنها وردت بصيغة الجمع ، لتولى الناس الدهشة ، ولوجدوا تعارضا بين ما يشاهدونه من أرض واحدة ، وما يذكره تعالى من أرضين كثيرة ، لذلك وردت فى صيغة المفرد دائما ، لكى يكون لظاهرها معنى مناسب لعقول عامة الناس ، ولذلك قال :

﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(سورة الطلاق)

وقال : « خلق السماوات والأرض » ، ليفهم عامة الناس أن الأرض هى أرضهم التى يعيشون عليها ، ثم ليفهم أهل اللغة أنها سبع أرضين مثل أرض الانسان ، وليفهم أهل العالم بالكائنات أنها أجرام أرضية متعددة مثل أرض الإنسان .

وفى مساق القول عن الآيات الكونية فى كتاب الله ، يطيب لنا أن نقرر عدة أمور يستعين بها الناظر على المزيد من الإيضاح فى هذا المقام .

وأول ذلك : أن العدد « سبعة » و « سبعين » و « سبعمائة » ، تقرر فى القرآن وفى السنة ، والعرب تضع ذلك موضع التضعيف والتكثير دون التحديد ، كما يقرر ذلك صاحب (لسان العرب) ، فقد قال ـ رحمه الله ـ : تكرر ذكر السبعة والسبعين والسبعمائة فى القرآن وفى الحديث ، والعرب تضعها موضع التضعيف والتكثير ، كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ (سورة البقرة ٢٦١)

وكقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ (سورة التوبة ٨٠)

وكقوله ﷺ : « الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة » . ويقول الأزهرى : وأرى قول الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ (سورة التوبة ٨٠)

من باب التكثير والتضعيف ، لا من باب حصر العدد ، ولم يرد الله ـ عز وجل ـ أنه عليه السلام إن زاد على السبعين غفر لهم ، ولكن المعنى إن استكثرت من الدعاء والإستغفار للمنافقين ، لم يغفر الله لهم .

وعلى هذا ، وعلى أن القرآن الكريم بلغة العرب نزل ، لا يفهم من ذكر السماوات السبع فى القرآن الحصر ، وإنما ينبغى أن يكون المقصود هو التكثير والتضعيف ، ما لم يرد من السنة المبينة للكتاب دليل على الحصر . وبهذا يجوز أن تكون السماوات سبعا أو أكثر من سبع ، وأن تكون الأرضون كذلك سبعا أو أكثر من سبع ، فإذا كشف العلم عن ذلك ، فإن القرآن ما ناقض العلم ولا هو مناقض له ولن يناقضه فى حال من الأحوال .

وفى كتاب الله الكريم ما يسوغ الاعتقاد بأن فى الكون أكثر من مجموعة شمسية . بحيث يستطيع العالم ـ غير مُشْتَطٍّ ولا متغال ـ أن يقرر أن هناك سماوات

كثيرة ، وأن يعتبر كل مجموعة شمسية سماء تنتظم أرضا يصدق عليها قول الله - تعالى - : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ (سورة الملك ٣)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ (سورة المؤمنون ١٧)

يعنى - جل ثناؤه - سبع سماوات ، أعنى سبع مجموعات شمسية .

والآية التى تفيد ذلك قوله - تعالى - من سورة « فصلت » :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فقد نهى تعالى عن السجود للشمس والقمر ، وأمر بالسجود لمن خلق الشمس والقمر وهو رب العالمين .

وكان مقتضى السياق أن تكون العبارة : لا تسجدوا للشمس ولا القمر وإسجدوا لله الذى خلقهما ، لأن هاهنا اثنين هما الشمس والقمر ، فحق الضمير أن يعود عليهما فى صيغة التثنية ، ليكون التعبير : واسجدوا لله الذى خلقهما ، ولكنه عدل عن ذلك إلى قوله : ﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ (سورة فصلت ٣٧)

وفى هذا العدول إشارة إلى أن فى كون الله العظيم شموسا وأقمارا كثيرين ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة يس)

وفى سورة الفرقان ما يؤيد هذا الذى نذهب إليه ، فذلك قول الله - جل ثناؤه - : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الفرقان)

وقد قرأ القراءة حمزة والكسائى وخلف : « سُرُجا » بضم السين والراء بغير ألف جمعا لسراج . فقراءة الجمع هذه تقرر أن الله - تعالى - خلق عدة سرج ، أعنى عدة شموس ، أعنى عدة مجموعات شمسية ، نستطيع أن نقول انها سبع سماوات بناء على أن لكل مجموعة شمسية سماء .

والقرآن الكريم أطلق كلمة « سراج » على الشمس فى أكثر من آية ، فهو يقول فى سورة « نوح » :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة نوح)

ويقول فى سورة « النبأ » : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة النبأ)

وقبل أن نفرغ من هذا البحث ، لا نجد بدأ من التنبيه على أمرين يخطىء الناس فيهما خطأ يكاد يبلغ منزلة الخطيئة .

وأول الخطأين : تفسير السماوات السبع بالكواكب السبع ، كما أرتضى ذلك القاسمى فى تفسيره فقال : إعلم أن لفظ السماء يطلق لغة على كل ما علا الإنسان ، فإن هذا اللفظ من السمو وهو العلو ، فسقف البيت سماء ، ومنه قوله :

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ (سورة الحج ١٥)

يعنى فليمدد بحبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللا نهائى سماء ، ومنه قوله :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة ابراهيم)

والسحاب سماء ومنه قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (سورة الرعد ١٧)

والكواكب سماوات .

فالسماوات السبع المذكورة كثيرا فى القرآن الشريف ، هى هذه السيارات السبع ، وهى طباق ، أى بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

والسيارات السبع التى يعتبرها الشيخ القاسمى السماوات السبع ، هى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمشترى والمريخ وزحل .

ولسنا نعرف خطرا على القرآن أبلغ من ربطه فى معانيه إلى الأمور الظنية ، التى لم يقم عليها دليل علمى موثوق . والدليل على هذا ـ فيما نحن بسبيله ـ أن الناس بعد أن اخترعوا المرقب الحديث ، كشفوا عن ثلاثة كواكب ، أى ثلاث سماوات ـ حسب فهم الشيخ القاسمى ـ وهى أورانيوس ، ونبتون ، وأخيرا بلوتو وكان

كشفه عام ١٩٣٠ . وبهذا الكشف تصبح السماوات بحسب ما ارتضاه الشيخ القاسمى عشرا ، وليست سبعا كما قرر القرآن .

واحدى القضيتين صادقة . فإما أن يصدق القرآن وهو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأما أن يصدق الحَدْس والتخمين والنظريات العلمية التى لم يقم عليها دليل .

هذا هو الخطأ الأول .

والخطأ الثانى : الذى يمعن فى الترويج له والدعوة اليه والتشدق به ، كثير مما يتتبعون الغرائب وتطيب لهم مراتع الشذوذ ، هو تفسيرهم للآية الشريفة من سورة « الرحمان » :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

فقد أراد هؤلاء أن يفسروا الآية الشريفة فيما زعموا أنه منطق العلم الحديث ، وما هو من ذلك فى كثير ولا قليل .

وذلك أنهم قالوا : إن كلمة « سلطان » فى الآية تعنى سلطان العلم ، ومعنى ذلك أننا نستطيع بالعلم الحديث أن نجاوز جوانب السماوات والأرض ونواحيها وأن نخلص منها .

وقد استفاض هذا القول حين أخذ العلماء يدرسون طبقات الجو العليا ، ويحاولون بلوغ بعض الكواكب كالقمر والزهرة والمريخ ، ففى الوقت الذى كانت التجارب فيه قائمة على قدم وساق ، مضى أولئك الذين تطيب لهم مراتع الشذوذ ، يفسرون الآية الكريمة ذلك التفسير الذى لا وجه له فى كتاب الله ، ولا موضع له فى إعتبار العلم الحديث .

وبيان ذلك من وجوه :

أحدهما : أن كلمة « انفذوا » مع كلمة « لا تنفذوا » ، تعطى معنى إجتياز الشىء والخلوص منه ، كما يقول أهل اللغة التى نزل بها القرآن : نفذ السهم الرمية

ونفذ فيها نفذا ونفاذا ، يعنون أن السهم خالط جوفها ثم خرج طرفه من الشق الآخر ، وسائره لما يزل فى جوفها .

ومما يتصل بهذا المعنى الحديث الشريف : « أيما رجل أشاع على مسلم بما هو برىء منه ، كان حقا أن يعذبه الله ، أو يأتى بنفذ ما قال » .

يعنى ﷺ أنه إذا شنع إنسان على آخر بما لم يفارقه ، فإن الله معذبه على ذلك ، الا أن يجد لنفسه مخرجا مما قال ، يتقى به عذاب الله .

فالنفاذ ، جواز الشىء والخلوص منه . وفى هذا يقول الشاعر العربى قيس بن الخطيم الأوسى :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفى فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

يقول قيس : إنه طعن عدوه طعنة نافذة ، أنهر فتقها ووسع خرقها ، فلولا إنتشار الدم الغائر لأبصر طاعنها ما وراءها .

فهذه المعانى من اللغة تفيد أن النفاذ هو الجواز والخروج ، وبناء على هذا يكون معنى كلمتى « انفذوا » و « لا تنفذون » فى الآية الشريفة : اجتازوا نواحى السماء والأرض وأخرجوا منها .

وثانيها : أن السلطان يعنى القوة والقهر والغلبة ، وعليه فالأمر هنا للتعجيز ، يعنى أنكم لن تستطيعوا ذلك . يقول ـ تعالى ـ فى آية أخرى :

﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ (سورة الاسراء)

فالأمر هنا للتعجيز .

وبهذا النظر يكون معنى الآية : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوت سمائى وأرضى فافعلوا ، وإنكم لن تقدروا على هذا الهرب إلا بقوة وقهر وغلب ، وأنى لكم ذلك . ويظهر هذا المعنى من القرآن الكريم : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ من

يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

وهذا المعنى للآية الشريفة تنصره اللغة ، ويقرره العلماء بكتاب الله ، ويؤيده أقوى تأييد تأمل السياق الذى وردت الآية فيه ، فقد جاء عقيبها :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

يعنى ـ جل ثناؤه ـ : أنكم لو حاولتم الخروج أرسل عليكم شواظ من نار وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . والشواظ هو اللهب الذى لا دخان له ، والنحاس هو الدخان الذى لا لهب فيه .

وعن الأخفش وأبى عمر ـ من أئمة اللغة ـ أن الشواظ : النار والدخان معا .

وقد قال حسان :

هجوتك فاختضعت لهـا بذاك بقافيـة تأجج كالشـواظ

وقال رؤبة :

إن لهـم من وقعنـا أقياظا ونار حـرب تسـعر الشـواظا

قلنا : إن كثيرا من الذين تطيب لهم مراتع الشذوذ ، يتقحمون فى تفسير كتاب الله بما لا تنصره لغة القرآن ، ولا يرضى عنه العلم .

وضربنا لذلك مثلا الآية من سورة « الملك » والآية من سورة « الرحمن » ، وبينا فى هذه الآية نفار اللغة وسياق الآية من المعنى الذى أريد تطويعها له وحملها عليه .

وبقى أن نذكر ما يتصل من ذلك بالعلم ، وأن العلم يأبى ما يذهب إليه هؤلاء ويتشدقون به ، ويحرصون على إشاعته بين الناس .

وبيان ذلك ، أن تفسير السلطان فى الآية بسلطان العلم ، يترتب عليه أن الإنسان يستطيع بالعلم إجتياز السماوات والأرض والخلوص منها .

وهذا المعنى لا يقول به عالم بصير ، فإن اللغة كما قلنا تأباه ، وأقوال العلماء بالقرآن تأباه وسياق الآية فى سورة « الرحمن » يأباه . وذلك أن كلمة « من » تفيد

إمكان انفصال الانسان عن ملكوت السموات والأرض ، ولا يعرف العلم مكانا وراء ملكوت السموات والأرض يمكن أن ينفذ إليه الإنسان .

ولعله من أجل هذا المعنى فسر العلماء بكتاب الله أمره ـ تعالى ـ فى الآية : « انفذوا » بأنه أمر للتعجيز فليس وراء كون الله كون آخر يمكن أن ينفذ إليه الانسان .

وحمل الأمر فى الآية على التعجيز ، يجد فيه علماء العصر الحديث على اختلاف مذاهبهم ووجهات نظرهم تأييدا لما ذهبوا إليه من تصورهم الكون حجما وشكلا .

وذلك أن العلماء فى تصورهم للكون فريقان :

فريق يرى أن الكون لا نهاية له ، وفريق يرى أنه محدود ولكنه كروى مثل فقاعة الصابون ، أو كرة المطاط الشفاف (البالون) . وأيا ما كان الأمر فى رأى هؤلاء وهؤلاء ، فإن اجتياز الكون والخلوص منه والانفصال عنه ، أمر يستحيل على العاقل أن يتصوره . فإن الكون إن كان غير متناه ، فإنه لا يمكن الوصول إلى حد فيه ، وإن كان كرويا فإنه لا يمكن الوقوف عند حد فيه .

أما والحديث عن الآية الشريفة شارف نهايته ؛ وقد طال به المدى ، فإن ها هنا وصايتين لا نرى ندحة عنهما ، ولابد من استصحابهما فى دراسة القرآن :

الأولى : أن القرآن لا يصادم حقيقة أثبتها العلم وقامت على صدقها البراهين . لا نقول ذلك عصبية له من حيث كنا مسلمين ، ولكنا نقوله ونقرره لأننا نعلم أن القرآن ـ على كثرة من ضاق به ، وراح يتلمس المغامر فيه طوال أربعة عشر قرنا من الزمان ـ لم يستطع أحد أن يذكر حقيقة علمية واحدة ناقضها القرآن أو دعا إلى مناوأتها ، بل إنه على العكس من ذلك لم ينفك أن يدعو الناس إلى تحرير عقولهم من ربقة الأوهام وسلطة الكهانة ، حتى يتهيأ لهم النظر الحر والتدبر السليم فى ملكوت الله .

وعن هذه الدعوة الدائبة فيه ، مضى علماء الأمة يتعلمون ويعلمون ، حتى أشرق نوره فى مجالات الحياة وأضاء المعالم فى جميع أرجاء العالم .

الثانية : أن مسلما عالما بكتاب الله غيورا عليه ، لا يسوغ له أن يفسر القرآن

وما ضمنه من آيات النظر فى ملكوت السموات والأرض ، بالنظريات التى تلدها المعامل وتقررها المراصد ولما يكتمل رشدها وتبلغ أشدها .

وإنما الذى يجوز للمسلم فى هذه الحال ، هو أن يستشهد بالقرآن على صحة ما رقى من الفروض النظرية إلى منازل الحقائق العلمية المسلمة .

والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١٦)

تفسير قول الله جل ثناؤه :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة القيامة)

والعلماء بكتاب الله ـ تعالى ـ من أهل الرواية والنقل وأهل الروية والاجتهاد ، تختلف آراؤهم حول اتجاه الخطاب فى الآية الشريفة ، ثم حول المعنى المراد منها ، ولكل رأى وجهته التى يتجه إليها وحجته التى يعتمد عليها . وأول ما ينبغى فى هذا المقام ذكره ، ما يروى عن سعيد بن جبير من قوله ـ رحمه الله ـ : إن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كان يرى الخطاب فى الآية متجها إلى رسول الله ، فيقول : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه إرادة أن يحفظه ، وكان لا يصبر حتى يتم جبريل قراءة ما يراد وحيه إليه ، مسارعة منه ـ عليه السلام ـ إلى الحفظ لئلا يتفلت منه شىء ، فأمر الله ـ تعالى ـ نبيه بأن ينصت حتى ينقضى وحيه إليه ، ووعده بأنه آمن من تفلته بالنسيان وغير النسيان ، على ما يقول ـ تعالى ـ :

« إن علينا جمعه وقرآنه » (سورة القيامة ١٧)

يعنى علينا أن نجمعه لك فى صدرك بحيث تقرأه فلا يغيب عنك منه شىء ، فإذا قرأناه بلسان جبريل عليك ، فاستمع له وانصت ، فكان ـ عليه السلام ـ بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحى استمع ، فإذا انطلق قرأه كما قرأه عليه جبريل لا يشذ منه حرف .

وكان سعيد بن جبير إذا روى هذا الحديث يحرك شفتيه ، ويقول : إننى أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه وهو يروى لنا هذا الحديث . وكان ابن عباس حين يروى هذا الحديث لأصحابه يحرك شفتيه قائلا : فأنا أحرك شفتى كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يحرك شفتيه .

وكذلك كانت عناية المسلمين بكل ما يصدر عن رسول الله - ﷺ - من قول أو فعل أو حركة ، فكانوا إذا رووا عنه شيئا من أقواله ، نقلوا الصورة التى كان عليها - صلوات الله عليه - وهو يتحدث إلى أصحابه ، فإذا حرك شفتيه فى حديث حرك رواة الحديث شفاههم ، وإذا صافح أحد أصحابه فى أثناء حديثه ، صافح رواة الحديث من يروونه لهم خلفا عن سلف ، وإذا كان النبى متكئا ثم اعتدل عن اتكائه وهو يتحدث ، فكذلك يفعل رواة الحديث فيتكئون ثم يعتدلون وهم يروون الحديث ، استصحابا للصورة التى كان عليها رسول الله - ﷺ - .

ولا يعرف تاريخ الرواية والرواة صورة تسمو إلى هذه الصورة أو تدانيها ، فيما انطوت عليه من تحرى الأمانة ، والتزام الضبط وتوفير الثقة واتصال السمع والبعد عن شبهات التدليس .

قال الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر وشيخ الاسلام رحمه الله :

فمخاطبة الله - تعالى - نبيه فى هذه الآية ينهاه عن التعجل فى تلقى القرآن مسارعة إلى حفظه وضنا به على التفلت ، مثل مخاطبته - تعالى - إياه فى الآية من سورة « طه » : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (سورة طه)

وقال الفخر الرازى : ومما لا ريب فيه أن النبى - عليه السلام - لا يمكن نهيه عن قراءة القرآن لكى يحفظه ويؤديه ، والحفظ هو وسيلة أدائه إلى الناس ، فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبث غيره عليه ، حتى يتبين عن طريق الوحى تمامه أو بيانه جميعا ، لأن من الواجب التوقف فى معنى الكلام حتى يأتى عليه الفراغ ، لجواز أن يحصل عقيبة استثناء أو شرط أو غير ذلك من سائر المخصصات ، فذلك هو التحقيق فى تفسير هذه الآية : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (سورة طه)

وإذ قد استنار المقام حول المعنى الذى وردت فيه هذه الآية فيما روى عن ابن عباس ، فحسن أن نذكر معنى خليقا بالاختيار فى آيات القيامة ، وهو المعنى

الذى يرتضيه أهل الروية والاجتهاد من أمثال الأصفهانى والبلخى والقفال ، رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين .

ففى معنى هذه الآية يقول البلخى :

الذى اختاره معنى لهذه الآية هو أن الله ـ تعالى ـ لم يرد بقوله :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة القيامة)

القرآن ، وإنما أراد قراءة العباد كتبهم يوم القيامة ، كما فى آية الإسراء :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ
وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ
كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الاسراء)

فلم يرد الله ـ تعالى ـ من هذه الآية القرآن ، وإنما أراد قراءة العبد كتاب سيئاته المشار إليه فى آية الاسراء السابقة . ويدل على المعنى الذى ذكرناه ما قبل الآية وما بعدها ، وليس فى ذلك شىء يدل على أن المراد القرآن الكريم ، ولا على أنه شىء من أحكام الدنيا ، وفيه تقريع للعبد وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة ، وكأنه ـ تعالى ـ يقول لهذا الذى يقرأ كتابه : لا تحرك لسانك بما تقرأه من صحيفتك التى فيها أعمالك ، فاقرأ ولا تعجل ، فإن هذا الذى على نفسه بصيرة ، إذا رأى سيئاته وقبائح أعماله ضجر واستعجل ، حتى يتجاوز منطقة تأنيب الضمير ومواجهة الله ـ عز وجل ـ بما يستوجب سخطه وعقابه ، فعند ذلك يقال له توبيخا وتأنيبا : لا تعجل وتثبت لتعرف الحجة عليك فإنا نجمعها لك ، فإذا جمعناها فاتبع ما جمع عليك بالانقياد لحكمه والاستسلام للتبعة فيه ، فإنك لا يمكنك إنكاره ، ثم إن علينا بيانه لك لو أنكرت .

وفى هذا الصدد ـ أيضا ـ يقول القفال :

إن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة القيامة)

ليس خُطابا مع الرسول ـ عليه السلام ـ بل هو خطاب مع الانسان الذى سبق ذكره فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة القيامة)

فكان ذلك للانسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله ، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الأسراء)

فإذا أخذ الانسان فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة ، فيقال له :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به » (سورة القيامة ١٦)

فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بمقتضى الحكمة أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك ، فإذا قرأنا ذلك عليك فاتبع قرآنه بالقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته .

ومضى القفال يقول : وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية ، أن المراد منها أنه ـ تعالى ـ يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل ، وفى ذلك أشد الوعيد فى الدنيا وأشد التهويل فى الآخرة .

ثم قال القفال بعد ذلك : فهذا وجه حسن ليس فى العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به .

تلك خلاصة لما قاله أهل الروية والاجتهاد من العلماء بكتاب الله عز وجل .

ومما نرى ضرورة التنبيه إليه فى هذا المقام ، أن الذى دعا هؤلاء الفضلاء من أهل العلم إلى القول بما قالوا به والذهاب إلى ما ذهبوا إليه ، هو ما كان يزعمه قوم من الذين يطيب لهم الطعن فى القرآن ، فيقولون فى هذا الزعم : إنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين الآيات قبلها ، فهذا الترتيب بين آيات القرآن ليس من عند الله ، ولو كان هذا الترتيب من عنده ـ تعالى ـ لما كان الأمر كذلك .

وقد حاول الاجابة عن هذا الاعتراض بعض أهل العلم بعدة إجابات ، لا نرى فيها ما هو أقوى مما ذهب إليه وقرره هؤلاء الأئمة من أمثال البلخى والقفال .

ومن أجل هذا نختار هذا الرأى لأنفسنا ، ونحن نبرأ من حولنا وقوتنا إلى حول الله وقوته .

(١٧)

تفسير قول الله جل ثناؤه :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (سورة العصر)

فقد انطوت هذه السورة الكريمة على مواطن تقتضى طلاب المعرفة أن ينظروا فى عدة أمور مبثوثة فى مختلف سور القرآن ، لا مناص من التعرض لها ومعرفة آراء أهل العلم بالقرآن فيها :

وأول هذه المواطن : القَسَم وما يتعلق به .

وثانيها : كلمة « العصر » ، ماذا يراد بها ؟ .

وثالثها : ماذا يراد بالانسان ؟ .

ورابعها : ما معنى الخسر ؟ .

وخامسها : ماذا يراد بالايمان ؟ .

وسادسها : ما معنى الحق والصبر ؟ .

فأما القسم فهو فى اللغة : اليمين ، تقول العرب : أقسم بالله ، وأستقسمه بالله ، وقاسمه يعنون حلف له ، وتقاسم القوم : تحالفوا . وفى القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ (سورة النمل ٤٩)

والبيات : مباغتة العدو ليلا ، وعن الاسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين[١] الملوك استراق الظفر .

---

(١) الآيين : العرف .

والغاية التى يتحراها الحالف ـ فيما تعارف عليه الناس ـ هى أن يؤكد صحة ما يقول ، وهذا المعنى يستحيل تصوره فى حق الله ـ عز وجل ـ فإن المؤمنين لا يحتاجون إلى قسم فى تصديق ما يأتيهم عن الله ـ عز وجل ـ فالقسم منه سبحانه هو تعظيم للمقسم به ، ولفت إلى ضرورة العناية بشأنه ومزيد التدبر له وطلب الانتفاع به .

وهذا المعنى يتضح فى مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

فقد نص فى هذه الاية على أن مواقع النجوم فى مجاريها ومسالكها منتظمة لا يطغى بعضها على بعض ، فالقسم بها تعظيم لشأنها ، ولفت إلى أنها آية من أجل آيات الله فى كونه العظيم .

وعلى هذا المعنى نفسه يجرى قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الليل)

وقوله : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الضحى)

إلى آخر ما فى كتاب الله من هذه الصور التى لا تخفى عن الناظر المتأمل .

وأما العصر : فهو الدهر فيما قال ابن عباس وغيره .

وقال قائلون : إن العصر هو الليل والنهار ، وحجتهم فى ذلك من اللغة قول حُمَيْد بن ثور :

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تَيَّمما

وقال آخرون : العصران : الغداة والعشى ، وحجتهم من اللغة فى هذا قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملنى ويرضى بنصف الدَّيْن والأنف راغم

يقول الشاعر ـ وكان مدينا رهقه الدين ـ إذا جاءنى دائنى أول النهار وعدته آخره ، وما أزال به حتى يمل مطالبتى ، ويتعبه مطلى ، فينزل لى عن نصف الدين وأنفه راغم .

وقال آخرون : العصر ، هو العشىّ ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، وحجتهم فى ذلك من اللغة قول الشاعر :

تروح بنا يا عمر قد قصر العصر وفى الرَّوحة الأولى الغنيمة والأجر

وقال قوم : العصر فى السورة صلاة العصر ، وهى الوسطى ، لأنها أفضل الصلوات ، وهم يقولون : أذن للعصر ، أى لصلاة العصر ، كما يقول القائل : صليت العصر ، يعنى صلاة العصر ، وفى الخبر الصحيح : الصلاة الوسطى صلاة العصر .

وقال قائلون : إن المراد من القسم بالعصر هنا ، هو رب العصر .

وأما الانسان ، فالمراد به ـ فيما روى عن الضحاك ـ جماعة من المشركين ، الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث .

ويقول بعض أهل العلم : المراد بالانسان ، جنس الانسان .

وأما الخسر ، فالمراد به الغبن أو الشر أو النقص ، والمعانى فى هذه الثلاثة متقاربة .

وأما الايمان ، فهو الاعتقاد الجازم بكل ما جاء به رسول الله ـ ﷺ ـ مع الاقرار باللسان والعمل بالجوارح فى حدود ما أمر الله به ونهى عنه . ومن أحسن ما يروى فى هذا المعنى وأعجبه ، ما يروى عن الحسن البصرى ـ رحمه الله ورضى الله عنه ـ فقد وقف رجل على مجلسه فى المسجد الجامع فى البصرة ، وسأله : أمؤمن أنت ؟ .

فقال الحسن ـ رحمه الله ـ وكان أفصح الناس لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصدقهم بالله إيمانا ، وأشدهم لعباد الله تواضعا ، وكان يتشيع للامام على وذريته عليهم السلام ، قال : أيها السائل ، إن كنت تعنى الايمان الذى نتناكح به ونتوارث ، فاللهم نعم ، إننى مؤمن ، وإن كنت تعنى الايمان الذى يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة

« الأنفال » : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ (سورة الأنفال)

فأنا أسأل الله ـ تعالى ـ ضارعا إليه عز وجل أن يجعلنى من هؤلاء المؤمنين .

فأما الحق ، فعن ابن عباس أنه توحيد الله ـ عز وجل ـ وإفراده بالألوهية . وعن قتادة أنه القرآن . وعن السِّدى أنه الله عز وجل .

وأما الصبر ، فإنه الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصى .

وجملة المعنى فى هذه السورة الشريفة : أن الانسان من حيث هو إنسان ، ماض إلى ما فيه الخسار بحكم حرصه على نزواته وشهواته وأثراته ، ما عدا الذين عصمهم الايمان بالله من ذلك ، فراحوا يتواصون بالحق الذى لا بديل لهم منه ، وبالصبر الذى لا غنى لهم عنه .

وأبو مسلم من أهل الروية يقول : المراد بالعصر ، أحد طرفى النهار ، ويؤيد ذلك وجوه :

أحدها : أنه ـ تعالى ـ أقسم بالعصر كما أقسم بالضحى ، لما فيهما جميعا من دلائل القدرة ، فإن كل بكرة كأنها القيامة ، يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء وتقام الموازين ، وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت . وكل واحدة من هاتين الحالتين شاهد عدل ، فإذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين ، عد خاسرا ، فكذلك الانسان الغافل عنهما هو فى خسر .

وثانيها : قال الحسن ـ رحمه الله ـ : إنما أقسم الله بهذا الوقت تنبيها على أن الأسواق قد دنا وقت انفضاضها وانتهاء التجارة والكسب فيها .

فإذا لم تكسب ودخلت دارك وطاف عليك عيالك ، يسألك كل واحد منهم ما هو حقه ، فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين . فكذا تقول : « والعصر » ، أى وعصر الدنيا ، فقد دنت القيامة ولم تستعد وتعلم أنك تسأل غدا عن النعيم الذى كنت فيه فى دنياك ، وتسأل فى معاملتك مع الخلق ، وكل أحد من المظلومين يدعى ما عليك ، فإذا أنت خاسر ، ونظير هذا قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ (سورة الأنبياء)

وثالثها : أن هذا الوقت معظم ، والدليل على ذلك قول النبى - ﷺ من حلف بعد العصر كاذبا لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة » .

وكما أقسم الله فى حق الرابح بالضحى ، أقسم هنا فى حق الخاسر بالعصر ، وذلك أنه سبحانه أقسم بالضحى فى حق الرابح ، فبشر الرسول بأن أمره إلى الاقبال ، وأقسم ها هنا فى حق الخاسر ، فتوعده بأن أمره إلى الإدبار ، ثم كأنه يقول - تعالى - : إن بعض النهار باق ، فيحثه ذلك على التدارك فى البقية بالتوبة .

وعن بعض السلف قال : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج ، وقد كان يصيح قائلا : أيها الناس إرحموا من يذوب رأس ماله ، إرحموا من يذوب رأس ماله . فقلت فى نفسى : هذا معنى قول الله : « إن الانسان لفى خسر » ، يمر به العصر فيمضى عمره ولا يكتسب ، فإذا هو خاسر .

والذى نختاره وندين الله عليه ، ونرى فى كتاب الله - تعالى - من الشواهد له والدلائل عليه ، ما يجعلنا نطمئن إلى القول به ، هو أن المراد بالعصر الفترة الزمنية التى بعث فيها محمد رسول الله - تعالى - رحمة للعالمين ، كأن الله تعالى يقسم بزمانه ، لأنه كان ظرفا لخير كثير ، من حيث كان عليه السلام هو الرحمة المهداة على ما يقول الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء) فزمنه على هذا خير وبركة ورحمة .

وكما أقسم الله - تعالى - بزمانه فى هذه السورة ، أقسم بمكانه فى سورة أخرى ، حيث يقول جل جلاله :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (سورة البلد)

يعنى مكة وهى البلد الذى ولد فيه ، وأشرقت دعوته إلى الله منه ، وحيث يقول :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (سورة التين)

فهذا هو ما نختاره ، وهذا هو ما نطمئن إليه ، وهذا هو - فيما نرى - ما يجدر بأهل النظر والرأى أن يعتنقوه فى تفسير هذه الكلمة ، فى هذه السورة الشريفة ، والله ولى التوفيق .

(١٨)

تفسير قول الله جل ثناؤه :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤ ﴾ (سورة قريش)

فهذه السورة الكريمة ، من أقصر قصار المفصل فى القران ، وهى على قصرها تنطوى على معان كثيرة ، وتشير إلى معارف شتى ، لا يقوم بحقها إلا كتاب يؤثر الاطناب والاستقصاء ، على الايجاز والتلخيص .

ولولا ما أخذنا به أنفسنا من التزام القصد وتجنب الاطالة ، لكان لنا فى هذا المجال تجوال أى تجوال .

غير أننا ـ التزاما لما أخذنا أنفسنا به ـ نجمل القول منها حول النقاط الآتية :

١ ـ ما معنى الإيلاف ، وما المراد منه ؟

٢ ـ ما معنى كلمة « قريش » ، وماذا يراد بها ؟

٣ ـ ما وجه المنة الالهية على قريش فى إيلافها الرحلتين ؟ .

٤ ـ ما سر العناية الربانية بقريش ؟ .

فأما الإيلاف : فإنه دائر فى اللغة حول الأنس وعدم الوحشة ، يقول الامام الطبرسى : الإيلاف ، إيجاب الإلف بحسن التدبير والتلطف ، يقال : ألف يألف إلفا ، وآلفه يؤلفه إيلافا ، إذا جعله يألف ، فالإيلاف نقيض الإيحاش ، ونظير الإيناس ، وإلف الشىء : لزومه على عادة فى سكون النفس إليه .

وأوالف الطير ، هى دواجنها التى تألف البيوت وتلزمها ، وأوالف الحمام ، هى التى ألفت مكة والحرم شرفهما الله تعالى . ومن ذلك قول ذى الرمة :

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن ... أمام المطايا تشرئب وتسنح
من المؤلفات الرمل أوماء حرة ... شعاع الضحى فى جيدها يتوضح[1]

من المعانى اللغوية لكلمة « إيلاف » : أن يصير ما دون الألف ألفا ، تقول : آلفت دنانير فلان ، تعنى أنها صارت ألفا وقد كانت دون ذلك . ومن معانيها : أن يبلغ عدد القبيلة ألفا ، تقول : لقينا أعداءنا مؤلفين فقهرناهم ، وعليه قول الشاعر :

وآل مزبقياء غداة لاقوا ... بنى سعد بن حنبة مؤلفينا

ومن معانيها : أن يكون المرء صاحب ألف من الابل أو الغنم أو ما شاكل ذلك ، فيقول القائل : آلف فلان إيلافا فهو مؤلف ، يعنى أنه صاحب ألف ، ومنه قول الكميت بن زيد الأسدى :

بعام يقول له المؤلفون ... هذا المعيم لنا المرجل

يعنى أنه عام شديد القسوة بالغ الجدابة ، هزلت فيه الأنعام فلم تعد قادرة على إعطاء اللبن ولا على حمل الراكب ، فأصبح صاحب الألف من الأبل عيمان مرجلا ، يعنى شديد الشهوة إلى اللبن مضطر إلى السير راجلا .

والإيلاف فى الآية الكريمة تختلف فيه آراء أهل العلم بالقرآن :

فالهروى يقول : الإيلاف ، حبال أى عهود كانت بين قريش وبين ملوك العجم . فكان هاشم يؤالف إلى ملك الشام ، وكان المطلب يؤالف إلى كسرى ، وكان عبد شمس يؤالف إلى ملك مصر ، وكان نوفل يؤالف إلى ملك الحبشة .

وقد كان هؤلاء الاخوة ـ من ولد عبد مناف ـ يسمون « المجبرين » ، فكان تجار قريش يختلفون إلى الأنصار بحبل هؤلاء الاخوة ، فلا يتعرض لهم معترض .

يقول الهروى : ومعنى يؤالف ، يعاهد ويصالح ونحو هذا ، فيكون الفعل منه آلف ـ بالمد ـ على وزن فاعل ، ويكون مصدر الفعل إلافا ـ بغير ياء ـ مثل قتال ، وربما كان الفعل منه أيضا أألف على وزن أفعل مثل أأمن ، ويكون المصدر فى هذه الحال إيلافا بالياء مثل إيمان .

---

(١) فى قصيدة أولها :

أتنزلنى مىّ سلام عليكما ... على النأى والنائى يود وينصح
إذا غير النأى المحبين لم يكد ... رسيس الهوى من حب مية يبرح
فلا القرب يدنى من هواها ملالة ... ولا حبها ان تنزح الدار ينزح
ذكرتك . . . .

وقد قرأ القراءة : لإلاف قريش - بغير ياء - وهى قراءة ابن عامر ، فدلت هذه القراءة على صحة ما قاله الهروى . وكذلك قرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام : « إلافهم مهموزا مختلسا بلا ياء » .

والأزهرى يقول : والإيلاف شبه الإجارة بالخفارة ، يقال : آلف يؤلف ، إذ أجار الحمائل بالخفارة . والحمائل جمع حمولة وهى الإبل التى تحمل .

ثم يقول - رحمه الله - وتأويل ذلك أن قريشا كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون فى الشتاء والصيف آمنين والناس يتخطفون من حولهم ، فاذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله . فلا يتعرض الناس لهم . والسؤال بعد ذلك هو : بم يتعلق حرف الجر فى كلمة « لإيلاف » ؟ .

وجواب ذلك : أنه متعلق بسورة الفيل ، من حيث كانت الصلة بين السورتين شديدة الوثاقة ، وآية ذلك أن أُبيا - رضى الله عنه - كان يعتبر السورتين سورة واحدة ، وكذلك أثبتهما فى مصحفه غير مفصول بينهما .

وعلى ذلك يكون المعنى : أن الله - جل ثناؤه - فعل ما فعل بأصحاب الفيل من جعل كيدهم فى تضليل وجعلهم كعصف مأكول ، لأجل إيلاف قريش ، رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام .

والذين يتدبرون القرآن فى ضوء من السيرة النبوية الشريفة والتاريخ الاسلامى الموثوق ، ينازعون فى صحة هذا التعليق وصوابه ، من حيث كان هلاك جيش أبرهة فى العام الذى ولد فيه رسول الله - ﷺ - وكان إيلاف قريش للرحلتين قبل ذلك بدهر طويل .

فلا يتصور أحد أن يكون الهلاك المتأخر ، سببا للإيلاف المتقدم وعلة له وباعثا عليه ، وإلا كان السبب متأخرا عن المسبب ، وكانت العلة متأخرة فى الوجود عن المعلول ، وهذا أمر لا يقبله صحاح العقول .

وقضاء لحق هذا المعنى ، سلك أهل العلم بالقرآن سبلا مختلفة لتطويع هذا التعليق واعطائه صورة سابغة ، لا يضيق بها المنطق ولا تأباها القواعد .

وصفوة هؤلاء الأقوال ، أن الإيلاف على ضربين : إيلاف عام ، شامل لكل مؤانسة وموافقة بين قريش ، فى مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم . وإيلاف خاص ،

والإيلاف المذكور صدر السورة هو الإيلاف بالمعنى العام ، والمذكور بعده هو الإيلاف بالمعنى الخاص ، أعنى إيلاف قريش رحلتيها . وذكر الخاص بعد العام فى هذا المقام كذكر جبريل وميكال بعد الملائكة فى سورة « البقرة » على ما يقول تعالى :

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولا خلاف فى أن الإيلاف بمعناه العام ، لم يكن موجودا لقريش قبل قصة الفيل ، وانما نشأ بعد ذلك مضيا مع السنة البشرية القائمة على أن الشدائد تذهب بالأحقاد وتجمع بين المختلفين ، فصح أن تكون غارة أبرهة وجيشه ، سببا لهذا الإيلاف وعلة له وباعثا عليه .

وفى معنى الإيلاف يقول الشيخ الطبرسى :

إن الله ـ تعالى ـ فعل بأصحاب الفيل ما فعل ، لتؤلف قريش بمكة ويمكنهم المقام بها ، بعد أن هابوا أبرهة وهربوا منها ، فأهلكه الله لترجع قريش إلى مكة ويؤلفوا بها ، ويولد بينهم محمد ليبعثه الله بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا .

قال الطبرسى : والإيلاف المذكور ثانيا ، انما هو ترجمة عن الأول وبدل منه . وتحقيق ذلك ، أن قريشا كانت آمنة بالحرم من الأعداء أن تهاجمهم فيه ، كما كانت آمنة كلما خرجت لتجارتها أن يتعرض لها متعرض . والحرم كما هو معروف واد جديب ، وانما كانت قريش تعيش فيه بالتجارة ، ولولا الأمن فى جوار الحرم ، لم يقدروا على التصرف ولا أمكنهم المقام به ، فلما قصد أصحاب الفيل مكة ، أهلكهم الله ـ تعالى ـ لتألف قريش الرحلتين اللتين بهما معيشتهم ومقامهم بمكة .

يقول الشيخ أبو السعود : إن الله ـ تعالى ـ أهلك من قصد قريشا من الحبشة ليتسامح الناس ، فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن فى رحلتيهم ، فلا يجترى أحد عليهم وهم يمتارون ويتجرون .

وصفوة هؤلاء الأقوال ، أن كلمة « الإيلاف » لا يراد بها إيلاف مستأنف جديد ، بحيث يلزم ذلك المحذور ، الذى حرص أئمة العلم بالقرآن على تجنبه

فيما أوردنا من كلامهم ، بل المراد هو استمرار الإيلاف ودوامه ورسوخه وثباته ، وهو الإيلاف القديم الذى كان لقريش قبل غارة جيش أبرهة وهلاكه . فالمعنى على هذا ، هو أن الله تعالى ـ أهلك الذين أرادوا الاغارة على بيته الكريم لتدوم لقريش الهيبة فى نفوس العرب ، وتوقيرهم رسوخا فى الصدور ، فلا يطمع فيهم طامع ولا يزعج أمنهم مغرور . وبذلك يزداد إلفهم الرحلتين ثباتا ورسوخا .

واستعمال الحديث ، مرادا منه الثبات والاستمرار والرسوخ والدوام ، هو من الاستعمالات المأنوسة فى الأساليب العربية الفصيحة ، ولهذا الاستعمال شاهد بالاعتبار لا ترد له شهادة ، فذلك قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (سورة النساء)

ففى تفسير هذه الآية قال جار الله الزمخشرى : إن الخطاب فيها للمسلمين ، ومعنى قول الله للمسلمين آمنوا ، يعنى أثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه .

ولا ينبغى أن يخفى أن تفسير الايمان بالثبات على الايمان ، يرشحه أبلغ ترشيح وأقواه قول الله بعد هذه الآية :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾ (سورة النساء)

وبهذا النظر يسوغ فهم الثبات على الايمان ، من أمر المسلم بالإيمان فى الآية الشريفة .

وأما كلمة « قريش » فان لها فى اللغة عدة معان :

أحدهما : التجمع والالتئام ، كما قال الشاعر :

إخوة قرشوا الذنوب علينا فى حديث من دهرهم وقديم

وثانيها : التكسب ، ومن ذلك قول العربى : قرش بقرش قرشا ، إذا كسب .

وثالثها : التفتيش عن ذوى الخلة من الفقراء وذوى الحاجات ، لسد خلاتهم وقضاء حاجاتهم .

وانما سميت قريش قريشا ، من أجل أحد هذه المعانى ، أو من أجلها جميعا .

وقريش هى القبيلة العربية سليلة اسماعيل ، التى كانت تقطن الحرم والتى أعطت سيدنا رسول الله شرف النسب ، فأعطاها ـ صلوات الله عليه ـ رفعة الذكر وبعد الصيت ، وهى أولاد النضر بن كنانة إبن خزيمة ، فكل من كان من ولد النضر فهو قريشى ، وبرهان ذلك قوله ـ ﷺ : « أنا ولد النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ، ولا ننتفى من أبينا » ، يعنى لا تترك النسب إلى الآباء لننتسب إلى الأمهات .

وأما وجه المنة الإلاهية على قريش فى إيلافها الرحلتين ، فهو فى مبلغ علمنا أن الله ـ تعالى ـ أبدلها بما كانت تذهب إليه العرب فى طلب الرزق من التغاور والتناهب ، وسيلة للارتزاق ألصق بالشرف وأدنى إلى مكارم الاخلاق ، هى التجارة . والتجارة فيما يعرف الناس طريق للارتزاق شريفة ومباركة . فأما أنها شريفة ، فلأنها بعيدة عن السلب والنهب . وأما أنها مباركة ، فلأن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » .

وتحقيق هذا المعنى ، أن العرب حول مكة كانوا يتغاورون ويتناهبون ، على ما يصور ذلك القطامى الشاعر فى قوله :

ومن ربض الجحاش فان فينا ... قنا سلبا وأفراسا حسانا
وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول ... وحنبة ، إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا ... إذا مالم نجد إلا أخانا

يقول الشاعر : إننا لسنا أهل حضر نقتنى الجحاش ، ولكننا أهل بادية وأرباب غزو نقتنى الخيل العتاق لنغزو عليها ، ونصطفى الرماح الطوال لنقاتل بها ، فإذا أغرنا على القبائل من حولنا ، بددنا شملها وأزعجنا أمنها وأنهبنا مالها ، فصارت تتقينا وتأخذ حذرها منا ، فتبتعد عنا وتمعن فى الهرب منا ، فاذا لم نجد ما نغير عليه من الأباعد ، أغرنا على أقاربنا وأبناء عمومتنا ، وعلى الحلات النازلة فيهم ومن حولهم . ومن قدر له الهلاك ، لابد أن يدركه الهلاك . تلك كانت شنشنة العرب .

فأما قريش ، فان شعورهم بشرف نسبهم ورفعة حسبهم جعلهم يتجنبون ألوان الخساسة فى طلب الرزق ، فكانوا إذا استعصى على أحدهم الارتزاق من طريق شريفة ، آثر الموت جوعا على الحياة من طريق خسيسة . وفى هذا المعنى يروى

أبو الحسين أحمد بن فارس ، أن أحدهم كان إذا جاع جرى هو وعياله إلى موضع معروف ، فضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يموتوا ، ومازال أمرهم على ذلك حتى كان عمرو بن عبد مناف سيد زمانه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان لأسد هذا ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه ، وذات يوم قال له : نحن غدا نعتفد[1] . قال أبو الحسين : فدخل أسد على أمه يبكى وذكر ما قاله تربه من بنى مخزوم ، فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق عاشوا به أياما ، ثم إن ترب أسد أتاه مرة أخرى فقال له مثل ما كان قد قال ، وفعل أسد كما فعل ، فاشتد ذلك على عمرو بن مناف ، فقام خطيبا فى قريش ، وكان فيهم سيدا مطاعا ، فقال : انكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب ، وأنتم أهل حرم الله ـ جل وعز ـ وأنتم أشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتفاد أن يأتى عليكم . فقالوا له : نحن لك تبع . فقال ابتدئوا بهذا الرجل فأغنوه عن الاعتفاد ، يعنى أبا ترب أسد . ففعلوا ، ثم انه نحر البدن وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد وأطعم الناس ، ومن أجل ذلك سمى هاشما ، وهو جد محمد ـ ﷺ ـ وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مُسنتين عجاف

ثم جمع عمرو هذا كل بنى أب على رحلتين ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ورحلة فى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه هاشم بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فلما جاء الاسلام جاء وهم على هذه الفضيلة ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش . وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعجبه أن يثنى المثنون على بنى عبد مناف بهذه الفضيلة التى عرفت فيهم ولهم ، وكان يصحح الأمر للذين يخطئون فيه عن جهل أو عن عمد . روى سعيد ابن جبير أن النبى ـ ﷺ ـ مر ذات يوم ومعه أبو بكر بملأ ، وهم ينشدون :

يا أيها الرجل المحول رحلة ... هلا نزلت بآل عبد مناف
لو قد نزلت بهم تريد قراهم ... منعوك من جهد ومن إيجاف
الرائشون وليس يوجد رائش ... والقائلون هلم للأضياف

---

(١) الاعتفاد هو أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا . وليس يعرف الناس صورة تسامى هذه الصورة أو تدانيها فى استرخاص الحياة إيثارا للترفع عن الدنايا من أجل الحرص على الحياة .

والخـالـطون غنيهـم بفـقيـرهـم حتى يصيـر فقيـرهم كـالكـافى
عمـرو العلا هشم الثـريد لقـومه قـوم بـمكـة مُسنتيـن عـجـاف

وكما ورث هاشم عن أبيه عبد مناف خلائق صدق تضفى على الناس من الخير بمقدار ما تضفى على أهلها من سيادة ، ورّث بنيه تلك الخلائق فلم يكن عبد المطلب بن هاشم دون أبيه بذلا للمعروف وغياثا للملهوف ، وهو الذى حفر زمزم برؤيا رآها فى المنام ، فخرج إلى قريش يقول لهم : تعلمون أنى قد أمرت أن أحفر لكم زمزم . فقالوا له : فهل تبين لنا موضعها ؟ . قال : لا . قالوا : فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت ، فإن يكن ما رأيت من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان ، فلن يعود إليك . فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فرأى كأن قائلا قال له : أحفر زمزم ، إنك إن حفرتها لن تندم ، وإنها تراث من أبيك الأكرم ، لا تنزف أبدا ولا تذم[1] ، وهى سقيا الحجيج الأعظم ، ولك على موضعها ثلاث علائم ، نقرة الغراب الأعصم ، وقرية النمل ، والغرث والدم .

وقد تجمعت هذه العلائم الثلاث بين الوثنيين : إساف ونائلة ، حيث كانت العرب تنحر ذبائحها .

فلما رأى عبد المطلب الغرث والدم وتجمع النمل والغراب ينقر بحثا عن قوته ، اشتد عزمه وقوى أمله فى الكشف عن سقيا جده اسماعيل ـ عليه السلام ـ فمضى يبتغى ما أراد ، حتى إذا ظهر طَى البئر كَبَّر ، فعرفت قريش أن قد تم لعبد المطلب ما أحب من تكريم الله له فى سقيا الحجيج . ولما تمادى به الحفر وجد غزالين من ذهب وأسيافا وأدراعا ، فلم يستأثر لنفسه من ذلك بشىء ، بل ضرب من الحديد بابا للكعبة ، واتخذ لها من الذهب حلية .

وهنا يقول السهيلى ـ رحمه الله :

لم تكن الكعبة موضع احترام العرب وحدهم ، ولكن العجم كذلك كانوا يحترمونها ، فكان الأوائل من ملوك الفرس يحجون إليها ، إلى عهد ساسان أو سابور ، وقد أهدى أحد الملكين إلى الكعبة الغزالين من الذهب والأسياف والأدراع من الحديد ، فلما تقاتل العرب وجرهم والأحلاف ، طموا البئر وردموها بعد أن ألقوا فيها بالغزالين وبالأسياف والأدراع ، حتى كشف عنها عبد المطلب وجرى

(١) بئر ذمة : قليلة الماء .

على يديه بهذا الكشف للناس خير كثير ، بعد أن ظلت دارسة عافيا أثرها دهرا من الزمان طويلا .

وأما سر العناية الربانية بقريش ، فمرد ذلك - فى مبلغ علمنا - إلى الدعوتين اللتين توجه بهما إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، إحداها :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ . . . الآية »

(سورة البقرة ١٢٦)

والثانية :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

(سورة البقرة ١٢٩)

وقد استجاب الله لإبراهيم دعوتيه ، فجعل البيت مثابة للناس وأمنا ، ثم ابتعث فى ذريته محمدا - ﷺ - وكانت قريش هى القبيلة التى ولد فيها محمد وابتعث منها محمد ، وكان اختيار هذا النبى على سنة الله فى اصطفائه رسله وأنبياءه من أكرم البيوت وأشرف الظهور وأطهر البطون ، وأبعدها عن الدنايا وألصقها بمكارم الأخلاق ، على ما يقول - تعالى :

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

وعلى ما يقول - جل شأنه : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وقد بين رسول الله - ﷺ - المعنى بقوله الشريف : (أن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار) .

وبهذا المنطق فى كتاب الله وفى بيان رسوله ، كان القريشيون حيث كانوا موضعا للعناية الربانية ، تحوطهم فى حلهم وترحالهم وسلمهم وحربهم ، وتنشر عليهم الأمن سابغا حتى ألفوا العزازة ، وتبسط لهم الرزق طيبا حتى لم يطعموا خبثا ،

وتضفى عليهم شرف النفس حتى أنفوا الجور وكرهوا الظلم ، وكان لهم شرف التعاهد فى الجاهلية على نصرة المظلوم وقهر الظالم ، وآية ذلك حلف الفضول .

فقد روى عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها ، وألا يعز[1] ظالم بمكة مظلوما » .

قال الإمام السهيلى : وهذا الحديث فى مسند الحارث بن عبد الله التميمى ، وقد بين وجه تسمية هذا الحلف « حلف الفضول » ، وكان هذا الحلف بعد الفجار ، وقد كانت هذه الحرب فى شعبان ، وكان حلف الفضول فى ذى القعدة ، قبل المبعث بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف سمع به الناس وأشرفه ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، إشتراها منه العاص بن وائل ، وزبروه زبرا شديدا ، فلما رأى الزبيدى الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، ثم صاح بأرفع صوته :

يـا آل فهـر لمـظلوم بضـاعتـه ... ببـطن مكـة نـائى الـدار والنفـر
ومحـرم أشعث لم يقض عمرتـه ... يـا للرجال وبين الحجـر والحجـر
إن الحـرام لمن تمت كـرامتـه ... ولا حـرام لثـوب الفـاجـر العـذر

فلما سمع الناس ذلك ، قام الزبير بن عبد المطلب وهو يقول : ما لهذا مترك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاما ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، قياما ، متعاقدين متعاهدين بالله أن يكونوا يدا واحدة للمظلوم على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه ، ما بلّ بحر صوفة ، وما رسا حراء وثير مكانهما ، وعلى التأسى فى المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف « حلف الفضول » ، قائلين : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . ثم مشى المحالفون هؤلاء إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى ودفعوها إليه .

---

(١) يعز : يقهر .

ويبتدر الأذهان ها هنا سؤال ، هو : أن رسول الله - ﷺ - حين سمع رجلا يقول : يا للمهاجرين ، وآخر يقول : يا للأنصار ، قال - عليه السلام - : (دعوها فإنها فتنة) ، من حيث كانت دعوة جاهلية . فكيف يتفق هذا مع قوله - ﷺ - فى حلف الفضول ، وهو جاهلى : (لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت) ؟ .

والجواب عن هذا ، هو أن رسول الله - ﷺ - خصص هذا الحلف بالإجازة ، لأن أهدافه تتفق مع الأهداف السامية التى يقرها الإسلام . ومما يحسن تدوينه دليلا على مضى حكم هذا الحلف فى الإسلام ، ما حدّث به يزيد بن عبد الله بن أسامة الليثى ، أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان - أمير المدينة من قبل عمه معاوية - كان بينهما منازعة فى مال بذى المروة ، فتحامل الوليد على الحسين معتزا بسلطانه ، فغضب الحسين ثم قال : أحلف بالله لتنصفنى من حقى ، أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد النبى - ﷺ - لأدعوّن بحلف الفضول .

وكان فى المجلس عبد الله بن الزبير فقال : وأنا أحلف بالله لئن دعا حسين بحلف الفضول لآخذن سيفى ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا . ولما بلغ الأمر ميسور الزهرى وعبد الرحمن بن عثمان التيمى قالا مثل ما قال الحسين وعبد الله بن الزبير . فلما عرف ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه واسترضاه حتى رضى .

والذين يتلون كتاب الله حق تلاوته ، يسترعى انتباههم ذكر قريش خاصة دون سائر العرب ، مع أن للعرب منزلة أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة الزخرف)

وفى قوله : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون » .

ويسترعى انتباههم أيضا ، تأكيد المنة بالأمن على قريش فى قوله - تعالى - :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ
مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفى تفسيرها يقول جار الله : كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ويتغاورون ويتناهبون ، وأهل مكة قارّون آمنون لا يغزون ولا يغار عليهم ، مع قلتهم وكثرة العرب من حولهم ، فجاءت الآية وفيها تذكيرهم النعمة الخاصة عليهم ، وفيها توبيخ لهم لأنهم يؤمنون بالباطل الذى هم عليه ، ويكفرون نعمة الله التى لا يقدر عليها إلا هو وحده لا شريك له .

ثم يشير جار الله إلى النعمة بالأمن وبالطعام فى تفسيره للآية :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (سورة القصص)

فيقول ـ رحمه الله ـ : إن قريشا تقول لرسول الله : إننا نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ، مع أننا أَكَلةُ رأس (قليلون) نخاف أن يتخطفونا من أرضنا . فلما قالوا ذلك لرسول الله ، ألقمهم الله الحجر لأنه مكن لهم فى الحرم الذى أمنّه بحرمة البيت ، وأمّن قطانه بحرمته ، وكانت العرب من حوله يتناحرون وقريش آمنون فى حَرَمهم لا يخافون ، وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تُجبى إليهم من كل أوب ، فإذ قد خوّلهم الله ما خوّلهم من الأمن والرزق فى حرمة البيت وحدها ـ مع كونهم كفرة عبدة أصنام ـ فكيف يستقيم أن يعرضهم للخوف والتخطف ويسلبهم الطمأنينة والأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام .

فأما اختصاص قريش بالذكر دون سائر قبائل العرب ، فلإشارة إلى أنهم أهل شرف وبيت مجادة وسيادة ، وأنهم بحكم هذين عليهم أن يناصروا محمدا فى دعوته ، لا أن يقفوا عقبة فى طريقه ، حتى تتهيأ لهم بذلك سبل الخير فى الدنيا والآخرة جميعا . وأما تكرار المنة الإلاهية عليهم فى أكثر من آية بتأمينهم من الخوف وإطعامهم من الجوع ، فلإشارة إلى أن هذين الأمرين هما أساس الحياة وقوام المجتمع الإنسانى ، وللإشارة أيضا إلى أن الله ـ جل ثناؤه ـ وهو الخالق الرازق المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، إذا اقتضى عباده أن يعبدوه لأنه وفر لهم هاتين النعمتين ، فإن على ولاة الأمر من المؤمنين أن يوفروا للشعوب التى يسوسونها هاتين

النعمتين ، لكى يقتضوا من خلالها حقهم فى الطاعة ، وإلا كان حكمهم للشعوب تسلطا ، وطاعة الشعوب إياهم ذلة وخضوعا ، وهذا ما لا يقره الإسلام ولا يرضاه ، فتلك هى إرادة الله ، وذلك هو توجيه الله فيما تضمنته السورة الشريفة وفيما أشارت إليه من معان شتى .

وعناية القرآن الكريم بالإطعام من الجوع والتأمين من الخوف ، عناية بالغة ، لا يكاد يحصيها بما تدل عليه وتشير إليه إلا الآحاد من الفقهاء بكتاب الله . فقد سلك الله إطعام الطعام مع جلائل أعمال البر على عباده ، فذلك حيث يقول :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة البلد)

كما سلك الشح بالطعام والبخل به مع الذميم من الخصال التى يستحق بها المرء سخط الله وأليم عقابه ، فذلك قوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سورة المدثر)

وقد جعل الله ـ تعالى ـ الأمن جزاء للمؤمنين الذين لم يشب إيمانهم ظلم :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ (سورة الأنعام ٨٢)

كما جعل الجوع والخوف أشد عقوبتين للذين يكفرون به ويجحدون نعمته :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (سورة النحل)

تلك لوافت على غاية الإجمال وفى أوجز صور الإيجاز ، تشير إلى ما ينبغى أن تنشط لهم الهمم ، وتنعقد عليه العزائم ، من العمل على توفير الأمن للخائفين ، وتحصيل القوت للجائعين ، فذلك هو الأساس الذى تقوم به المجتمعات ، قياما يسلمها إلى عز الدنيا ويدنو بها من رضوان الله عز وجل .

والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١٩)

تفسير قول الله جل ثناؤه :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ (سورة النصر)

لقد اشتملت هذه السورة على كلمات تتقاضى حقها من التجلية والبيان ، وهى : « إذا » و « النصر » و « الفتح » و « التسبيح » و « الاستغفار » .

فأما كلمة « إذا » ، فإن أهل العلم بصناعة البيان يذكرون أنها تفيد التحقيق ، مخالفة بذلك كلمة « إن » التى تفيد الشك .

وقد كنا نتلقى عن شيوخنا هذه القاعدة البيانية ، فنأخذها مسلمة بغير مناقشة أو جدال ، وفى النفس ما فيها من التطلع إلى برهان يؤكدها فى أنفسنا ، غير أننا لم نظفر من ذلك بطائل . وما زال الغموض يحيط فى نفس هذه القاعدة ، وأنا أطاول به الأيام وتطاولنى ، حتى وقعت بى المصادفة ذات يوم على كتاب للإمام العالم شهاب الدين الصنهاجى ، ذكر فيه الفرق بين « إذا » و « إن » ، ذكرا يقوم على أصل ويرتكز إلى سند ، فقد قال ـ رحمه الله ـ : إن الأداة « إذا » تدل على الزمان دلالة مطابقة والشرط يعرض لها فيلزمها فى بعض الصور ، وربما عريت عنه فوردت ظرفا مجردا ، كقوله الله تعالى :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ (سورة الليل)

فهى هنا ظرف لا شرط فيه .

وأما « إن » فإنها تدل على الشرط دلالة مطابقة ، وتدل على الزمان دلالة التزام . . . ومثال ذلك قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ (سورة الأعراف ١٣١)

ولما كانت الحسنات عامة الوقوع - بمقتضى الرحمة الإلاهية - إقترنت فيها « إذا » الدالة على التحقيق بالفعل الماضى ، وذكرت الحسنة معرفة . . . ولما كانت السيئة نادرة الوقوع لأن العبد يستحقها بأعماله السيئة ، جىء فيها بأداة الشك « إن » ، وجىء بلفظ الفعل مضارعا وبالسيئة منكرة غير معرفة ، ومثال آخر لهذه القاعدة قول الله - تعالى - :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة الروم)

وأما « النصر » ، فحقيقة معناه العون ، من قولهم : نصر الغيث الأرض ، إذا أعانها على النبات وجنبها القحط ، ومنه قول الشاعر يخاطب خيلا :

إذا انسلخ الشهر الحرام فودِّعى بلادَ تميم وانصُرى أرضَ عامرِ

والعرب تقول : أرض منصورة ، يعنون أنها مَغِيثة .

وأما « الفتح » ، فهى نقيض الإغلاق ، كقولهم : جاء يستفتح الباب ، وفلان لا تفتح العين على مثله .

والفرق بين النصر والفتح - مع ما بينهما من التعاطف فى السورة - أن النصر هو الإغاثة والإظهار على العدو . والفتح : الظفر بالبلدة عَنوة أو صلحا بحرب أو دون حرب ، لأن البلد منغلق ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل فى اليد فقد انفتح .

وأما « التسبيح » ، فهو تنزيه الله - تعالى - عن كل نقيضة فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وأصله من السباحة ، التى تنفى الأدران عن السابح فى الماء ، والذى يسبح الله إنما ينفى عنه - تعالى - ما لا يليق به ذاتا وصفاتا وأفعالا .

وأما « الاستغفار » ، فهو من الغفر ، والغفر التغطية والستر ، ومنه المغفر لأنه يستر الرأس ويحميها فى الحروب ، والمغفرة فى لسان الشريعة : محو الذنوب من صحائف العبد ، أو سترها عن أعين الملائكة .

وجملة معنى السورة ؛ إذا جاءك يا محمد نصر الله على عدوك وفتحت مكة ، وأنت فاتحها بعون من ربك وصدق من جندك ، ورأيت رأى العين الناس يدخلون فى دين الله جماعات بعد أن كانوا يدخلون فيه فرادى ، فسبح بحمد ربك لترادف نعمته

عليك ، واستغفره لأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو فى نفسه عبادة .

ومن أجل ذلك كان ـ ﷺ ـ لا يرى إلا قائلا : (سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك) ، على ما تقول أم سلمة : كان النبى ـ ﷺ ـ آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجىء ولا يذهب إلا قال : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » .

وقد يطيب لبعض الناس أن يتساءلوا عن وجه أمر الله إياه بالاستغفار فى هذه السورة ، وبمنته عليه بالمغفرة فى آيات أخر ، مع أنه ـ ﷺ ـ مبرأ من العيوب ، ومعصوم من الذنوب .

وجواب ذلك : أن الإنسان كلما رقيت منزلته وارتفعت مكانته ، ثقلت تبعاته ، وأصبح ما لا يؤبه له فى حق غيره ، يؤبه له فى حقه ، وكان ما لا يكلفه غيره من الأعمال ، يكلفه هو ، حينا فى نفسه كقوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾ (سورة المزمل)

وحينا فى أهله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (سورة الأحزاب ٣٢)

والذى يتدبر هذا المعنى ويرتاده فى كتاب الله ـ تعالى ـ يراه واضحا ، ويرى تضاعف التبعات يصاحب تضاعف الميزات ، على ما يقول ـ جل وعز ـ :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ * ﴾ (سورة الأحزاب)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ۝٣١ ﴾ (سورة الأحزاب)

وعلى هذا ، فالخطرة النفسية التى ليس للبشر عليها سبيل ، هى فى حقه ـ على السلام ـ هفوة ، مع كونها فى حق غيره ليست كذلك ، والعمل الذى لا يؤذى ولا يضر مثل ضربه بالسواك أحد أصحابه ضربة خفيفة ليعتدل فى الصف ، من الأمور التى تحصى عليه ولا تحصى على سواه . فالذنوب التى أسندت إليه وأمر أن يستغفر

منها ، أو امتن الله ـ تعالى ـ عليه بغفرها ، هى من هذا القبيل ، ولا تخف بها مروءة ولا يتضرر منها أحد .

وكثير من المسلمين يطيب لهم أن يتغالوا فى رسول الله ، تغاليا يتجاوزون به حدود البشرية ، ويطيب لهم أن يجعلوا منها موضوعات للجدل والمناقشة ، وهؤلاء ـ بلا ريب ـ يجانبون القصد ، وحبذا لو أخذوا أنفسهم بما ذكره البوصيرى ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

دعْ ما ادعتْه النصارَى فى نبيهم ... وأحكمْ بما شئت مدحا فيه واحتَكم
فمبلغُ العلم فيه أنه بشَر ... وأنه خيرُ خَلْقِ الله كلِهم

وهذه السورة تنظر إلى سورة الفتح من عدة وجوه :

الوجه الأول : التعبير عما يحدث بصيغة ما قد حدث ، على عادة رب العزة فى إخباره ، لأنها فى تحقيقها وتيقن كينونتها ، بمنزلة الكائن الموجود فعلا ، ففى سورة الفتح يقول ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ (سورة الفتح ١)

وفى هذه السورة يقول : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾ (سورة النصر ١)

الوجه الثانى : ذكر النصر هنا بعنوان نصر الله ، وذكره هناك بعنوان النصر العزيز ، ونصر الله هو النصر العزيز ، والنصر العزيز هو نصر الله .

الوجه الثالث : الاستغفار هنا فى قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ (سورة النصر)

والمغفرة هناك فى قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (سورة الفتح ٢)

وفى هذا من تأكيد بشريته ـ عليه السلام ـ وصدق عبوديته لربه ما فيه ، مما يجعل عناية الله تعالى به أمرا لا يفارقه فى حال .

الوجه الرابع : دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وهو نعمة من الله عليه ، وفى سورة « الفتح » قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ (سورة الفتح)

وهذا ذكر لتمام النعمة .

وفى السورة مواطن تنطوى عليها أو تشير إليها ، لابد من التثبت بها لمزيد من البيان .

الموطن الأول : أن المراد بالفتح فتح مكة ، كما ذهب إلى ذلك الحسن ومجاهد ، فهو الفتح الأعظم الذى استغلظ به عود الإسلام وشمخ بناؤه ، وكان مشرق خير لم تكن الإنسانية لتحلم به ، ولم تكن لتبلغ شرفا أو تنفصل عن خسيسة إلا من طريقه ، وذلك هو ما تضمنته كلمته ـ عليه السلام ـ إلى قريش بعد أن دخل الكعبة مع زيد وبلال ، ثم خرج وأمسك بعضادتى الباب ، ومضى يقول : صلوات الله عليه : « ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وربما نصر هذا الرأى ـ وهو أن الفتح فتح مكة ـ قول الله :

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ (سورة النصر)

فإن الرؤية هنا بصرية وليست علمية ، والدليل على ذلك ما يقوله الحسن ـ رحمه الله ـ من أنه لما فتح رسول الله ـ ﷺ ـ قالت العرب : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل ، فليس لنا به بعد ذلك طاقة ، فكانوا يدخلون فى دين الله أفواجا أى جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين ، وصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام .

الموطن الثانى : إيثاره الحق على كل أثير ، دون محاباة لصهر أو قرابة ، وهذا يتمثل أصدق تمثيل فيما يرويه ابن سعد عن عثمان بن طلحة سادن الكعبة قال : كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل النبى يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له فنلت منه ، فحلم عنى ، قائلا : « يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت » ، فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . فقال ـ ﷺ ـ : (بل عمرت يومئذ وعزت) ، ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى

موقعا . فلما كان يوم الفتح قال : (يا عثمان ائتنى بالمفتاح) . فأتيته به فأخذه منى ، ثم دفعه إلى وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم منه بالمعروف) . فلما وليت نادانى : يا عثمان ، ألم يكن الذى قلت لك ؟) . فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة : (لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت) ، فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله .

الموطن الثالث : ما ذكره سعيد بن المسيب من أن العباس عم النبى تطاول يومئذ لأخذ المفتاح فى رجال من بنى هاشم فأبى رسول الله ، ورده إلى عثمان بن طلحة ، وهذا وفاء ليس له فى دنيا الناس نظير ، وقد شفع النبى هذا الصنيع الجميل بأن أمر بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وصناديد مكة وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة فيصدع بلال بأمر رسول الله ، ويصعد على الكعبة فيؤذن ، والأذان يساوى فى عرفنا الآن النشيد ، الذى تترنم به الجيوش حين يتم لها فتح بلد أو قطر . ولا يعرف الناس نشيدا لدولة ولن يعرفوا نشيدا أكرم سبيلا وأقوم قيلا وأخلق بالكرامة التى كرم الإنسان بها رب العالمين من نشيد الدولة الإسلامية ، يرتله المؤذن خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويرتله معه المسلمون رجالا ونساء ، وهو : الله أكبر ، أشهد ألا إلاه إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، لا إلاه إلا الله .

ويزيد هذا النشيد فى مسمع التاريخ روعة وجمالا أن ينشده أسود عتيق ، هو سيدنا بلال مؤذن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

الموطن الرابع : أنه لما فتح الله ـ تعالى ـ مكة على رسوله صلى الله عليه ، وهى بلده ووطنه ومولده ، ظن أهل المدينة من الأنصار أنه تارك المدينة ومقيم بمكة ، ولكنه ـ عليه السلام ـ أكد للأنصار أنه راجع معهم إلى المدينة مهاجرة قائلا لهم : « معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وانصرف ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك فطاف حول الكعبة ، وفيما هو يطوف رأى فضالة ابن عمير ، وقد أجمع فضالة قتل رسول الله فى أثناء طوافه ، فلما دنا منه قال له : « فضالة ؟ » . قال : نعم هو أنا يا رسول الله . قال النبى : « فماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » . قال فضالة : لا شىء ، كنت أذكر الله . فضحك النبى

وقال : « استغفر الله يا فضالة » ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه واطمأنت نفسه . وكان فضالة هذا يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه صلى الله عليه ، ثم قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث . فقلت : لا . وفى هذا المعنى يروون شعرا لفضالة يقول فيه :

قالت هلّم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى علّى الله والاسلام
لو قد رأيت محمدا وقبيلة ... فى البيت آن تكَسَّر الأصنام
لرأيت دينَ الله وجها مشرقا ... والشرك يغشى وجهَه الاظلام

الموطن الخامس : قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأهل مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، حتى أصبحت هذه الكلمة علما عليهم وصفة لهم . وحتى إن عليا ـ كرم الله وجهه ـ يقول لمعاوية : أنَّى يستوى المولى والطليق ؟ . إن الله ـ تعالى ـ مكننا من رقابكم ، ونحن أطلقناكم .

وفى عبارته هذه ـ عليه السلام ـ دقيقة لطيفة قال فيها صاحب المفاتيح :

وانما لم يقل ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اذهبوا فأنتم معتقون ، بل قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لأن المعتق لا يجوز أن يرد إلى الرق ، وقد كان أهل مكة لما يزالون على الكفر ، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ، أما الطليق فمثله كالمطلقة يجوز أن تعاد إلى ربقة النكاح ، وهذا هو الفرق بين التعبيرين .

الموطن السادس : ما يشير إليه أهل صناعة البيان من الخلاف فى جواب « إذا » .

فقد روى صاحب مجمع البيان أن جواب « إذا » محذوف تقديره : إذا جاءك يا محمد نصر الله والفتح ، حضر أجلك . كما روى أن جوابها هو قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ (سورة النصر)

وهذا الخلاف راجع إلى اختلاف فهم الصحابة لمعنى السورة ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قرأها عليهم ، كانوا بين مستبشر فرح ، وبَكِىّ محتزن ، وكان كل من الفريقين يصدر فى فرحه أو حزنه عن فهم وقع له ،

ومعنى تمكن من نفسه ، وهذا الاختلاف فى الفهم هو اختلاف تضاد ، وليس اختلاف تنوع .

ويسوغ هذا الاختلاف ما يراه بعض أهل العلم من أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، فالذين فهموا الظاهر فرحوا واستبشروا ، والذين أدركوا الباطن حزنوا وبكوا .

وفى البخارى ما يوضح وجهتى النظر هاتين ، فقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم ، فوجد بعضهم من ذلك ، فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا ما هو مثله . فقال لهم عمر : إنه من قد علمتم . قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم ، ثم سألهم عن هذه السورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾ (سورة النصر)

فقالوا : أمر الله ـ جل وعز ـ نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه . فقال عمر : ما تقول أنت يا ابن عباس . قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حضور أجله ، فقال :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾ (سورة النصر)

فذلك علامة موتك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ فقال عمر رضى الله عنه متوجها بخطابه إليهم : تلومونني عليه ؟ . ثم قال أمير المؤمنين : والله لا أعلم منها يا ابن عباس إلا ما تقول .

فقد تضمنت هذه القصة صحة ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، ويزيد هذا الرأى وضوحا ما رواه الحسن البصرى مرسلا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله : ما أنزل الله آية إلا ولها ظهر وبطن ، بمعنى ظاهر وباطن . ثم فسروا الظاهر بأنه ظاهر التلاوة وفسروا الباطن بأنه الفهم عن الله مراده ، محتجين لذلك بقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ ﴾ (سورة النساء)

ووجه احتجاجهم من هذه الآية يتلخص فى أن الله ـ تعالى ـ قد نفى عن أولئك القوم الفقاهة دون المعرفة ، من حيث كان نفى المعرفة عنهم أمرا غير ممكن ، فإنهم عرب

والقرآن نزل بلغتهم ، فأما نفى الفقه عنهم فهو أمر ممكن وواقع ، لأنهم مع معرفتهم باللغة التى نزل القرآن بها ، لم يفهموا عن الله ـ تعالى ـ مراده ، وهو ما يعنيه قوله تعالى : « لا يفقهون حديثا » (سورة النساء ٧٨)

وذلك لأن الفقه هوالفهم ، والفهم ـ على ما يقول أهل اللغة ـ هو معرفة الشىء بالقلب ، بل ربما نسب أهل اللغة الفقه إلى الاحساس الغريزى ، فهم يقولون : فحل فقيه طب بالغرائب حاذق ، ويقولون : فحل فقيه عالم بذوات الضبع[1] وذوات الحمل . فالفقه على هذه المعانى أمر مركوز فى طبيعة الانسان ، وموصول بعقله وقلبه وحواسه جميعا ، ومن أجل هذه المعانى كان نفى الفقه فى الآية عن الذين لم ينصاعوا لأوامر الله ولم يفهموا عن الله مراده ، مشيرا إلى ما قرره العلماء من أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن باطن القرآن هو الفهم عن الله لمراده جل ثناؤه .

ولا يجهل أحد ممن يحمل هم أمة القرآن ويعنى بدراسة تاريخها ، ما تشير إليه كلمات الظاهر والظاهرية والباطن والباطنية ، من الآثار السيئة التى شوهت صورة الاسلام وأزعجت أمن المسلمين دهرا من الزمان طويلا .

من أجل هذا أجدنى ضيق الصدر كلما ذكرت هذه الكلمات ، فتمثلت لى من خلالها أمتنا العربية الاسلامية وقد هيأ القرآن لها سبل النجاح وأمدها بأسباب الفلاح ، ومهد لها طريق المجادة والسيادة ، فإذا هى مع ذلك مسرح أحقاد ونهبَى أطماع ، تتحكم فيها النزوات والأثرات والعصبيات ، فلا هى قادرة على أن تكون مخافة عدو ، ولا هى بالغة أن تكون مأمنة صديق . ولولا أن المقام يقتضينا حقه من الايضاح والبيان ، لكان التعرض للظاهر والباطن والحديث عنهما من الثقل على الصدر بمكان . ولهذا نوجز القول فى كلمتين :

إحداهما عن الظاهر وما يتعلق به ، وأخرى عن الباطن وما يتعلق به .

فأما الظاهر ، فضابطه أنه المفهوم من النظم الشريف على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز ، فكل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها ، فهو داخل تحت الظاهر ، فالمسائل البيانية والمنازع البلاغية لا معدل بها عن ظاهر القرآن . ومن هذا الجانب حصل المجاز عند القائلين : بأن اعجازه آت من جهة الفصاحة ، على ما يقول ـ تعالى ـ :

(١) الضبع : طلب الفحل .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (سورة البقرة ٢٣)

وعلى ما يقول :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (سورة هود ١٢)

ففى الآيتين الشريفتين اشارة إلى أن اللائق أن يكون اعجاز القرآن بالفصاحة لا بغيرها . إذ لم يؤتوا على هذا التقدير إلا من باب ما يستطيعون مثله فى الجملة ، ثم لأنهم دعوا وقلوبهم لاهية عن معناه الباطن الذى هو مراد الله من انزاله ، فإذا عرفوا عجزهم عنه ، عرفوا صدق الآتى به فحصل الاذعان ، وهو باب التوفيق والفهم لمراد الله عز وجل . وإلى هذا المذهب ذهب الامام عبد القاهر الجرجانى ، فأدار فى كتابيه « دلائل الاعجاز » و « وأسرار البلاغة » حديث الاعجاز حول النظم الشريف ، وقد ضرب لذلك أمثلة منها قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة هود)

ثم علق ـ رحمه الله ـ على هذه الآية فقال : هل تشك إذا فكرت فى الآية ، فتجلى لك فيها الاعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضه ببعض ، وأن الحسن لم يعرض لها ، إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة وهكذا ، إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، فتعرف أن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها .

وإن أنت شكلت فتأمل ، هل ترى لفظة فيها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت ، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟ . قل : « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بالاداة « يا » دون « أى » ، ثم اضافة الماء إلى الكاف

دون أن يقال ابلعى الماء ، ثم بأن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم بأن قيل : وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فُعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم بأن أكد ذلك كله وقرره بقوله ـ تعالى ـ : « وقضى الأمر » ، ثم بأن ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو « استوت على الجودى » ، ثم بإضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظيم الشأن ، ثم بالمقابلة بين قيل فى الخاتمة ، وقيل فى الفاتحة . أَفَتَرى لشىء من هذه الخصائص ـ التى تملؤك بالاعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ـ تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ، أم كل ذلك لما بين معانى الالفاظ من الاتساق العجيب ؟ .

وإذن فقد اتضح اتضاحا لا يدع للشك مجالا ، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلمات مفردة ، وأن الألفاظ ثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة بمعنى التى تليها ، أو ما يشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظة . يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر .

فهذه كلمة « الشىء » ، تراها مقبولة حسنة فى موضع ، وضعيفة مستكرهة فى آخر . وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى عمر بن أبى ربيعة :

وكم مالىء عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الحجرة البيضُ كالدُّمَى

ثم إلى قول أبى حيّة النميرى :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شىءٌ لا يمَلُّ التقاضيا

فإنك تعرف حسن هذه الكلمة « شىء » ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها فى بيت المتنبى :

لو الفَلك الدوَّار أبغض سَعْيه لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها هنا تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم .

هذا . وكلام الله ـ تعالى ـ فيما يقول ابن حزم ، واجب أن يحمل على ظاهره ، ولا يحال عن ظاهره البتة ، إلا أن يأتى نص أو إجماع أو ضرورة حس على أنه ليس

على ظاهره ، وعلى أنه قد نقل عن ظاهره إلى معنى آخر ، فالانقياد واجب علينا عما أوجبه ذلك النص أو الإجماع أو ضرورة الحس ، لأن كلام الله ـ تعالى ـ وأخباره لا تختلف ، والاجماع لا يأتى إلا بحق ، والله لا يقول إلا الحق ، وكل ما أبطله برهان ضرورى فليس بحق .

هذا ما يتعلق بالظاهر .

وأما ما يتعلق بالباطن ، فضابطه أنه كل معنى يفهمه المتدبر لكتاب الله مما يتحقق به للعبد وصف العبودية ، فكل المعانى التى يتحقق بها للعبد هذا الوصف ، فإنها من الباطن المراد لله وهو المقصود من نزول القرآن . فالاعجاز الذى يترتب على فصاحته ليس مقصودا لذاته ، وانما المقصود أثره ، وهو رجوعهم بسبب العجز عن معارضته إلى تصديقه والتفهم فى مراده ، فما كان مؤديا إلى العجز عن المعارضة ، وإلى أصل الاعتراف بصدقه فذلك من الظاهر ، وما يجىء بعد ذلك ثمرة لهذا الاعتراف وهو فهم المعانى التى يتحقق بها للعبد وصف العبودية ، والقيام بمواجبها ، فذلك من الباطن المراد وذلك أيضا هو المقصود من انزال القرآن .

وكون الباطل هو المراد من الخطاب ، لابد أن يتوافر فيه أمران :

أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، بحيث يجرى على المقاصد العربية .

وثانيهما : أن يكون له شاهد يشهد لصحته من غير معارض .

فأما الأول ، فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا . فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب ، لم يوصف بكونه عربيا باطلاق ، وأما الثانى فلأنه لو لم يكن له شاهد ، أو كان له معارض ، لصار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن وهو منها براء . والدعاوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء .

وبهذين الأمرين يسوغ تقبل ما روى من أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، كما فى السورة الشريفة التى نحن بصددها ، وكما فى الآية من سورة « المائدة » :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة ٣)

ومن أمثلة الباطن السائغ ، قوله إن العبادات المأمور بها ، بل المأمورات والمنهيات كلها ، انما يطلب بها العبد شكرا لما أنعم الله به عليه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة النحل)

فالشكر ضد الكفر ، والايمان وفروعه هو الشكر . فإذا دخل المكلف تحت أعباء التكليف بهذا القصد ، فهو الذى فهم المراد من الخطاب وحصل باطنه على التمام .

وأما إذا فهم من ذلك عصمة ماله ودمه فقط ، فهذا خارج عن المقصود ، وواقف مع ظاهر الخطاب ، فإن الله ـ تعالى ـ قال :

﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ ﴾ (سورة التوبة ٥)

ثم قال ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ ﴾ (سورة التوبة ٣)

فالمنافق إنما فهم مجرد ظاهر الأمر من أن الدخول فيما دخل فيه المسلمون موجب لتخلية سبيله ، وحفظ نفسه وماله ، فعمل على ذلك باعتناق الاسلام تاركا المقصود الأصيل من ذلك ، وهو الذى بينه القرآن من التعبد لله والخضوع له والتنظيم لأمره ، فمن دخله عريا عن ذلك ، فلا يمكن أن يعد ممن فهم باطن القرآن . وكذلك إذا كان له مال حال عليه الحول ، فوجب عليه شكر النعمة ببذل اليسير من الكثير عودا عليه بالمزيد ، ثم وهبه لغيره عند رأس الحول فرارا من أداء الزكاة ، ثم يسترده ، فإنه لا يكون شاكرا للنعمة ، ولا يكون كذلك ممن فهم باطن القرآن .

فإذا لم يتوافر هذان الأمران فى تفسير القرآن ، فإن تفسيره عند ذلك يجرى فى طريق المبتدعة وأهل الزيغ والضلال ، ومثال ذلك : تفسيرهم الجنابة بأنها مبادرة المستجيب بافشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق ، وتفسيرهم الغسل من الجنابة بأنه تجديد لعهد على من فعل ذلك ، وتفسيرهم التطهر بأنه التبرى من كل مذهب سوى مذهب الامام ، وتفسيرهم الصيام بأنه الامساك عن كشف السر ،

وتفسيرهم الكعبة بأنها النبى ، والباب بأنه على ، ونار ابراهيم بأنها غضب نمروذ لا النار الحقيقية ، وتفسيرهم تسبيح الجبال بأنها تسبيح رجال شداد فى الدين . فهذا وأمثاله ضرب فى أودية الخيال ، لأنه شيئا مما ذكروه لا يصح على مقتضى المقرر فى لسان العرب ، ولا يشهد لصحته شاهد فى كتاب الله سبحانه ، ولا فى سنة رسوله عليه السلام .

وجملة القول : أن من زاغ عن الصراط المستقيم ، فبمقدار ما فاته من باطن القرآن زاغ ، ومن أصاب الحق وصادف الصواب ، فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه أصاب . والله ولى التوفيق .

(٢٠)

تفسير قول الله جل ثناؤه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ (سورة العلق)

فالكلمات التى تحتاج إلى بيان فى هذه السورة هى : « أعوذ » و « والفلق » و « والغاسق » و « وقب »

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ ﴾ (سورة الفلق)

فأما كلمة « أعوذ » ، فإنها مشتقة من العوذ ، والعوذ والعياذ والمعاذ والمعاذة والتعوذ والاستعاذة : الالتجاء والاحتماء .

وحقيقة مادة « أعوذ » ، هى الهرب من شىء مخوف إلى واق منه وعاصم من شره ، فمعنى أعوذ : ألتجىء وأحتمى وأعتصم وأتحرز .

قال أهل الفقه بلغة العرب : والأصل الذى ترجع إليه هذه المادة هو الستر ، والعرب تسمى البيت الذى فى أصل الشجرة بالعوذ ، من حيث كان سكانه مستترين بالشجرة مستظلين بظلها ، والعائذ يستتر من عدوه بمن استعاذ به . فالذى يقول أعوذ بالله خالصا بها قلبه ، يكون كأنه هرب من عدوه إلى ربه ومالكه معتصما به وملتجئا إليه وملقيا نفسه بين يديه ولائذا منه بالظل الوارف والأمن السابغ .

وأساتذتنا الذين تلقينا عنهم معارفنا ـ رحمهم الله ـ كانوا كثيرا ما يلفتوننا إلى انعام النظر كلما عرضت لنا آية من كتاب الله تحتاج إلى مزيد من التدبر .

ومازلت أذكر اليوم الذى أخذ فيه أستاذنا المفضال مجلسه الوقور من حلقة الدرس وقد تطاولت إليه الأعناق وصغت القلوب ، فراح يسألنا فى وقار المربى وتثبت

العالم : إذا قيل للمسلم قل : الحمد لله ، فهل يكون ممتثلا للأمر إذا قال : قل الحمد لله ، أو يكون عليه لكى يكون ممتثلا أن يقول الحمد لله دون قل ؟ .

ثم قال : فهل علينا فى السورتين : الفلق والناس أن نقول : قل أعوذ ، أو نقول : أعوذ دون قل . ومضى يقول : هذا سؤال لم ينشأ اليوم ، ولكنه سؤال قديم توجه به المسلمون إلى الفقهاء بالقرآن من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فذلك حيث يقول أُبَى بن كعب : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك فقال ـ صلوات الله عليه ـ : « قيل لى قل فأنا أقول كما قيل لى » ، قال أبّى : فنحن نقول كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « قل أعوذ برب الفلق » ، « قل أعوذ برب الناس » .

وقد كان شيخنا ـ رضى الله عنه ـ من رحابة الأفق وسعة الاطلاع والحرص على الفهم والافهام بالمكان المرموق ، فلما رأى فى وجوهنا التطلع إلى مزيد من القول ، ذكر لنا أن علينا أن نمتثل أمر الله ، وأن نقتدى برسول الله ـ ﷺ ـ فنتلوا السورتين كما كان يتلوهما ، وبهذا نكون قد امتثلنا أمر الله واقتدينا بنبيه ، ثم لا بأس بعد ذلك أن نستعيذ بالله فنقول : أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق . . السورة ، ونقول : أعوذ برب الناس ملك الناس . . السورة .

وبهذا نكون قد تعوذنا بالله وتحصنا به والتجأنا إليه ، وبهذا ـ أيضا ـ نكون قد جمعنا بين الفضيلتين : الامتثال والتعوذ .

وقد كنت ظننت ـ آنئذ ـ أن الرأى الذى أشار إليه أستاذنا لم يسبقه إليه سابق ، ثم لم أزل على ذلك الظن حتى وقعت بى المصادفة ذات يوم على قول لأحد أعلام المفسرين روى فيه عن عبد الله بن سفيان عن سيدنا الحسين ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : إذا قرأت قل أعوذ برب الفلق ، فقل فى نفسك : أعوذ برب الفلق ، وإذا قرأت قل أعوذ برب الناس ، تقل فى نفسك : أعوذ برب الناس . وبهذا يكون شيخنا ـ رحمه الله ـ فى قوله السابق قد نقل عن سيد الشهداء ـ رضى الله عنه ـ فلم يكن مبتدعا ولكنه كان متبعا ، وكان مصدر هذا الفقه ، هو سيدنا ومولانا الامام الحسين ، رضى الله عنه ورضى عنا به .

وأما الفلق ، فهو الصبح ، قال ذو الرمة يصف الثور الوحشى :

حتى إذا ما جلا عن وجهه فلق هاديه فى أخريات الليل منتصب

فالفلق ، الصبح وهو مأخوذ من الهادى الذى هو مقدم العنق ، وأخريات الليل أى آخره ، ومنتصب أى مرتفع كذئب السرحان (الذئب) ، وكل ما أنفلق عن شىء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق ، على ما يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة « الأنعام » :

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ و ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴿٩٥﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

غير أن المراد بالفلق هنا على وجه التحديد هو الصبح ، وفى هذا الصدد يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

ومن هنا يعلم السر فى الاستعاذة برب الفلق فى هذا الموضع ، فإن الفلق هو الصبح الذى هو مبدأ ظهور النور ، وهو الذى يطرد جيش الظلام وعناصر الفساد فى الليل ، فيأوى كل خبيث ولص ومفسد وقاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار ، وتأوى الهوام إلى أحجرتها ، والشياطين التى انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها ، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذى يكره الظلمة ويزيلها ، ولهذا ذكر ـ سبحانه ـ فى كل كتاب أنه أخرج عباده من الظلمات إلى النور ، ويدع الكفرة فى ظلمات كفرهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ (سورة البقرة ٢٥٧)

وقال ـ سبحانه ـ أيضا :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (سورة الأنعام ١٢٢)

وقال فى أعمال الكفار : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة النور)

وأما الشر ، فإنه يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضى إليه ، وليس له مسمى سوى ذلك . فالشرور هى الآلام وأسبابها . فالمعاصى والكفر والشرك وأنواع الظلم هو شرور ، ومهما يكن لصاحبها فيها من غرض ولذة ، فهى شرور لأنها أسباب للآلام ومفضية إليها ، فيترتب عليها الألم كما يترتب الموت على السم والخنق بالحبل والتحريق بالنار ، وغير ذلك من الأسباب التى تكون مفضية إلى مسبباتها حتما ، ما لم يمنع من السببية مانع ، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده ، كما يعارض سبب العاصى قوة الايمان وعظم الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب ، فيدفع الأقوى الأضعف ، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة ، كأسباب الصحة والمرض وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود أن هذه الأسباب التى فيها لذة هى فى الحقيقة شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة ، فهى بمنزلة طعام لذيذ شهى لكنه مسموم ، فإذا تناوله الآكل لذ له وطاب مساغه فى فيه ، وبعد قليل يفعل به ما يفعل من الآلام والأسقام ، فهكذا المعاصى والذنوب . ولو أن الشارع لم يخبرنا بما يترتب على المعاصى من الآلام والمتاعب والشقاء ، لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر الشهود على ذلك . وهل زالت عن أحد نعمة قط إلا بشؤم المعصية ؟ . فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة ، حفظها عليه فلا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه ، كما يقول تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(سورة الأنفال ٥٣)

فما حفظت نعمة الله بشىء قط بمثل طاعته ، ولا حصلت فيها زيادة بمثل شكره ، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه ، فإن المعصية نار النعمة تعمل فيها كما تعمل النار فى الحطب اليابس .

وأما الفاسق ، فهو الليل . والفسق : أول ظلمة الليل ، وفيه يقال : غسق الليل يفسق أى أظلم ، ومنه قول الشاعر :

يا طيف هند لقد أبقيت لى أرقا ... إذ جئتنا طارقا والليل قد غسقا

وأما وقب ، فهو من الوقوب ، والوقوب : دخول الليل فى ضوء النهار حتى يظلم .

وأما النفاثات ، فهى مأخوذة من النفث ، وهو النفخ مع ريق ، قالوا : النفث . فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر والأذى يريده بالمسحور ، ويستعين عليه الأرواح الخبيثة ، نفخ فى العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نَفَس مما زج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك ، وقد تساعده هو والروح الشيطانى على أذى المسحور ، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوفى القدرى .

فالنفاثات هنا ، هن الأرواح والأنفس النفاثات ، لا النساء النفاثات ، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة ، وسلطانه إنما يظهر منها فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير ، وأيضا فلأن الناس يختلفون هل المراد بالسحر فى السورة ، السحر الذى قام به لبيد بن الأعصم أو بنات لبيد . فإذا ما جعلنا النفاثات صفة للأنفس والأرواح ، استقام الأسلوب على الأصلين جميعا ، سواء أريد لبيد أو بنات لبيد .

وأما العقد ، فهى ما يعقده الساحر أو تعقده السواحر فى الخيوط والحبال ليتحقق بذلك السحر وينعقد أمره انعقادا يصعب معه الحل .

وأما الحسد ، فله معنيان : أحدهما ، تمنى زوال نعمة الغير ، وتقابله الغبطة وهى تمنى مثل نعمة الغير مع بقائها له ، وثانيهما ، الإصابة بالعين ، وربما قال غير واحد من المفسرين إنه المراد من قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾ (سورة القلم ٥١)

قال ابن القيم : وقد أراد هؤلاء الكفرة أن يُعَيْنوا رسول الله ـ ﷺ ـ يعنى أن يصيبوه بأعينهم ، فنظر إليه قوم العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حجته .

وكان أحد هؤلاء العائنين تمر به الناقة أو البقرة السمينة ، فيصيبها بعينه ، ثم يقول لخادمه : خذ المكتل والدرهم وائتنا بعض لحمها ، لأنه قد استيقن أن عينه لابد أن يعقبها ذبح البقرة أو الناقة .

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة أيام لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل ، فيقول : لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه ،

فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط منها طائفة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ـ ﷺ ـ بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره ، فعصم الله رسوله وحفظه وأنزل عليه :

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ (سورة القلم ٥١)

هذا . وقال ابن قتيبة : ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن ما يعجبه فيقتله ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يزحلقك فتسقط على الأرض ، يعنى أنهم أشد الناس عداوة لك ، وهذا أسلوب مستعمل فى الكلام ، يقول القائل : لقد نظر إلى نظرا كاد يصرعنى .

ومما يدل على صحة هذا المعنى الذى قاله ابن قتيبة ، أنه قرن هذا النظر إلى سماع القرآن ، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة ، فيحدّون إليه النظر بالبغضاء .

وجملة القول فى سورة الفلق ، أنها تضمنت الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من شرور أربعة :

أولها : شر المخلوقات التى لها شر عموما .

ثانيها : شر الغاسق إذا وقب ، يعنى شر الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ، فدخل فى كل شىء وأظلمه ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ (سورة الاسراء ٧٨)

فالوقوب الدخول ، وهو دخول الليل بغروب الشمس ، أو هو ظلمة الليل إذا دخل سواده فى ضوء النهار .

وهذان الأمران لا يحتاجان إلى حديث يقصر أو يطول ، وحسبنا فى صددهما ما رويناه فى معناهما عن أسلافنا الطيبين .

وثالث الشرور المستعاذ منها برب الفلق ـ جل ثناؤه ـ شر النفاثات فى العقد ، والناظرون فى كتاب الله ـ تعالى ـ يرون فى هذه العبارة كناية عن السحر ، ويفسرون النفاثات فى العقد بالأنفس والأرواح ، ذاهبين الى أن تأثير السحر انما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة ويذكرون أنه من أجل هذا ذكرت النفاثات بلفظ التأنيث دون التذكير .

ويروون فى هذا عن عائشة حديثا تقول فيه : إن النبى ـ ﷺ ـ سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ، وربما ذكروا أنه بقى كذلك سنة ، وربما ذكروا أن الذى سحره هن بنات لبيد اليهوديات وليس لبيدا نفسه . . إلخ ما قيل فى هذا الشأن من هذا القبيل .

وقد كنت على أن أتجاوز هذا الموطن دون تعليق ، إجلالا لقدر رسول الله ـ ﷺ ـ وتنائيا به عن أن يكون موضع أخذ ورد فى هذا المجال البغيض ، ولكننى رأيت بعض أهل العلم من أسلافنا الطيبين كتب كتابا حول هذا الحديث ، وقد حمل فيه على هشام بن عروة بن الزبير ، قائلا فى هذا الصدد : لقد غَلِطَ هشام واشتبه الأمر عليه .

وغلط الرواة واشتباه الأمر عليهم ليس مسبة لهم ، ولا فيه تنقص لقدرهم ، ثم هو مع ذلك تعبير مأثور ، فقد روى عن سعيد الخدرى وغيره أن النبى ـ ﷺ ـ فيما زعموا ـ قال : (لا تأتى سنة مائة وعلى الأرض نفس منفوسة) ، ولا يعقل أحد هذا القول كما قال الذين نقدوا الحديث ، فإنهم قالوا : نحن الآن فى القرن الثالث ، والناس أكثر مما كانوا .

وليس يخفى أن الذين رووا عن رسول الله هذا الحديث قد نقصوا منه كلمة ، وأن صحته : (لاتأتى سنة مائة وعلى الأرض منكم يومئذ نفس منفوسة) ، فأسقط الرواة كلمة (منكم) . ونظير هذا القول لابن مسعود فى ليلة الجن : (ما شهدها أحد منا غيرى) ، فأسقط الرواة كلمة (غيرى) ، وبهذا اختلف معنى الحديث اختلافا شديدا .

ومما يجعل غلط الرواة أمرا مأنوسا مألوفا ، أن الامام عليا ـ كرم الله وجهه ـ قال ذات يوم لمن يدعى أبا مسعود : إنك تفتى الناس . قال أبو مسعود : نعم . قال على : فأخبرنى ، هل سمعت ذلك منه ـ ﷺ ـ ؟ . فقال أبو مسعود : نعم سمعته يقول ـ ﷺ ـ : (لا يأتى على الناس سنة مائة ، وعلى الأرض عين تطرف) ، فقال على : أخطأتْ أسْتُكَ الحُفْرَة . يعنى أخطأت خطأ تتأذى النفوس بسماعه كما تتأذى بما تكره ، ثم قال على بعد ذلك : إن النبى لم يقل ما ترويه عنه ، ولكنه قال هذا

القول لمن حضره من الصحابة يعنى ـ ﷺ ـ أن أحدا منكم لا يبقى على وجه الأرض إذا جاءت سنة مائة .

ثم إن لعلماء الاسلام حول السحر كلاما فى المراد منه ، فيقول ابن حزم : إن السحر ضروب فمنه ما هو من قبل الكواكب كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب فى وقت كون القمر فى العقرب فينفع إمساك هذا الطابع من لدغة العقرب . . ومن هذا الباب كانت الطِّلسَّمْات وهى ليست إحالة طبيعة ولا قلب حقيقة ، ولكنها قوى ركبها الله ـ عز وجل ـ مدافعة لقوى أخر ، كدفع الحر للبرد ودفع البرد للحر .

ولا يمكن رفع الطلسمات ، ولا جحودها ، لأننا قد شاهدنا نحن أنفسنا آثارها ظاهرة إلى الآن من قرى لا تدخلها جرادة ولا يدخلها جيش إلا أن يدخل كرها ، وذلكِ ومثله كثير جدا لا ينكره إلا معاند . وهذه الأعمال قد ذهب من كان يحسنها جملة ولم يبق إلا آثار صناعتهم فقط .

ثم يقول ابن حزم :

ونوع آخر من السحر يكون بالرُّقى . وهو كلام مجموع من حروف مقطعة فى طوالع معروفة أيضا ، يحدث لذلك التركيب قوة تستأثر بها الطبائع وتدافع قوى أخر . . وقد شاهدنا وجربنا من كان يرقِى الدُّمَّل الحاد فى أول ظهوره ، فييبس ويبدأ من يومه ذلك بالذبول ، ويتم يبسه فى اليوم الثالث ، ثم يقلع كما تقلع قشرة القرحة إذا تم يبسها ، وقد جربنا من ذلك مالا نحصيه ، وكان هناك امرأة تَرْقى أحد دملين فى جسم واحد يتيبس الدمل الذى رقته ، ويتم ظهور الذى لم ترْقِه ، ويلقى حامله منه الأذى الشديد .

قال ابن حزم :

وقد أخبرنا من خبره عندنا كمشاهدتنا لثقته وتحرينا لصدقه وفضله ، فقال لنا إنه شاهد نساء يتكلمن على الذين يمخضون الزبد من اللبن بكلام ، فلا يخرج من ذلك اللبن زبد البتة .

ومضى يقول ـ رحمه الله ـ : ومن ضروب السحر ما يكون لطف يد ـ خفة اليد ـ كحيل لا تحيل طبيعة ولا تغير حقيقة ، كما أن من ضروبه ـ أيضا ـ ما يكون بالخاصة كالحجر الجاذب للحديد وما أشبه ذلك .

فهذا ابن حزم وهو الفيلسوف الجليل ، الذى لا يشك الناس فى قدرته العقلية ودينه الصحيح وثقته وأمانته ، يقرر فى وضوح أن السحر أمر واقع لا شك فيه ، فلا ينكره إلا معاند ، ولا يجحده إلا جاحد ، ثم يجعله ضروبا وأنواعا كما أسلفنا ذلك من قبل .

ولا نرانا خارجين عن موضوع الحديث ، إذا أضفنا إلى ضروب السحر ضربا آخر هو البيان ، روى ابن نباته المصرى ـ رحمه الله ـ أن عمرو بن سنان الأهتم وفد على رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه الزِّبْرِقان بن بدر فأسلما ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ شديد الحفاوة بهما والإكرام لهما . وذات يوم سأل النبى عمرا عن الزبرقان وكان الزبرقان حاضرا ، فقال عمرو يصفه : هو مطاع فى ناديه ، شديد العارضة فى قومه ، مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان : يا رسول الله ، إن عمرا ليعلم عنى أكثر مما قال ، ولكنه يحسدنى . فقال عمرو : أما وقد قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا زمِنَ المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، ضيق العَطَن ، حديث الغنى . . فتغير وجه النبى ـ ﷺ ـ فلما رأى عمرو ذلك فى وجه رسول الله ، قال له : يا رسول الله ، لا تغضب ، رضيت ، فقلت أحسن ما أعلم ، وغضبت ، فقلت أقبح ما أعلم ، ووالله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن من البيان لسحرا .

فهذا ما يتعلق بالسحر فى معناه وما يراد به .

وإنا لنجمل القول فيما نراه معنى ملائما لقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الفلق)

فنقول والله ـ تعالى ـ مستعاذنا ـ ومستلاذنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل :

إن لأهل العلم فى تأويل الآية اتجاهات ثلاثة :

أحدها : أن النبى سحر حتى كان يرى أنه يفعل ولا يفعل ، وهو ما روى عن أم المؤمنين .

والنفاثات فى هذا الاتجاه يراد بها الأرواح الشريرة والنفوس الخبيثة ، سواء فى ذلك القول بأن الذى سحر النبى هو لبيد اليهودى أو بنات لبيد . وقد اعصوصب حول هذا الرأى كثير من علماء الاسلام وانتصروا له ، حتى لقد رموا مخالفيهم فى الرأى بشر التهم ، وخلعوا عليهم أسوأ الصفات .

فذلك حيث يقول الشيخ القرطبى ـ غفر الله له ـ فى صدر سحر النبى ـ ﷺ ـ : إن أهل الحل والعقد انعقد إجماعهم على هذا . ثم يقول بعد ذلك : ولا عبرة مع اتفاقهم بمثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق .

والعجيب فى هذا الموطن من قبول دعوى الاجماع ، وقد تنكر لهذا الرأى أئمة من العلماء بالقرآن ، أمثال أبو مسلم الأصفهانى وأبو القاسم البلخى والشيخ القفال ، ومن جرى فى طريقهم ومضى على سنتهم من القدامى والمحدثين .

وثانيها : أن النفاثات فى العقد ، هن النساء ينفثن فى العقد ، أى فى عزائم الرجال وآرائهم ، وهو مستعار من عقد الحبال ، والنفث : هو تليين العقدة من الحبل بريق يقذف عليه ليصير الحبل سهلا . فمعنى الآية على هذا ، أن النساء ـ من أجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال ـ يؤثرن فيهم فيحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة . ولهذا أمر الله رسوله بالتعوذ من تسلطهن كقوله ـ سبحانه ـ :

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ (سورة التغابن ١٤)

وفى القرآن يعظم الله ـ تعالى ـ كيدهن حيث يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وهذا القول هو اختيار الإمام أبو مسلم الأصفهانى . وفيه يقول صاحب المفاتيح : إن هذا القول قول حسن ، لولا أنه على خلاف أكثر المفسرين .

وثالثها : أن العقد ، جمع عقدة وهى المعروفة فى الخيط والحبل ، وتستعمل العقدة فى كل ما ربط وأحكم ربطه ، ولذلك سمى الله ـ تعالى ـ الارتباط الشرعى بين الزوجين : عقدة النكاح ، وسمى الإيجاب والقبول فى البيع : عقدا ، ويسمى عقدة أيضا . والنفث : النفخ الخفيف ، أو النفخ مع شىء من الريق ، والنفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة ، وهو يستعمل للذكر والأنثى ، فالنفاثات جمع نفاثة . والمراد بهم فى الآية الشريفة إنما هم النمامون المقطعون لروابط الألفة بين الناس ، المحرقون لها بما يلقون عليها من حزام تمائمهم . وإنما جاءت العبارة ، لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين ، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين . والتميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة ، والتميمة تضلل وجدان

الصديقين ، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها الله ـ تعالى ـ عقب ذكر الغاسق إذا وقب . ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام ، فإنه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ، ولا يمكن أن يقول ، وإذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق ، حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه ، فلا بدلك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه ، هى قوة الله وحده لا شريك له .

وقد رووا هنا أحاديث فى أن النبى ـ ﷺ ـ سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه ، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وهو لا يفعل ، أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه ، وأن الله ـ تعالى ـ أنبأه بذلك ، فأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفى ـ ﷺ ـ مما كان ألم به ، ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه ـ عليه السلام ـ حتى يصل به الأمر إلى الظن أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله ، ليس هو من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ، ولا هو من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية ، بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح ، ثم هو بعد ذلك مصداق قول المشركين فيه : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ ، وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله ، وخيل له أن شيئا يقع ، فيخيل إليه أنه يوحى إليه ، ولا يوحى إليه .

وقد قال كثير من المقلدة الذين لا يعقلون ما النبوة ، ولا ما يجب لها : إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح ، فيلزم الاعتقاد به ، وعدم تصديقه هو من بدع المبتدعين لأنه ضرب من إنكار السحرة ، وقد جاء القرآن بصحة السحر . فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة . نعوذ بالله من ذلك . إن المقلد يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه عليه السلام ، وعده من افتراء المشركين عليه ، وهذا المقلد يؤول فى هذه الآية ، ولا يؤول فى تلك الآية ، مع أن الذى قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه عليه السلام . وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وهى ضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب إلى لبيد اليهودى أو إلى بنات لبيد ، فإنه قد خالط فى زعمهم عقله وإدراكه عليه السلام .

وهذا القول هو اختيار الامام محمد عبده رحمه الله .

ولا نملك من الرأى ولا من قوة الحجة ولا من وضوح البيان ما نزيد به شيئا

على ما قاله امامان جليلان ، أبو مسلم الأصفهانى فى التقديم ، والأستاذ محمد عبده فى الحديث .

ونحن حين نأخذ بأحد الرأيين أو بكليهما فى نفى السحر عن نفسه الشريفة ، لا نلوذ فى ذلك بعاطفة من الحب له ﷺ - حبا يملك كل مشاعرنا ويصرف أزمتنا فى كل أمر يتصل بذاته أو بدعوته أو بأدبه ، وانما نلوذ فى ذلك بقول الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

فهذه الآية صريحة فى أن الله عاصمه من أعدائه حتى يبلغ رسالة ربه ، وتأثير السحر فى نفسه الشريفة تأثيرا بلغ به المنزلة التى اعتقدها الأقدمون ، مما ينافى عصمة الله إياه . وذلك أن العصمة فى الآية أطلقت ولم تقيد ، فالله عاصمه فى نفسه وفى عقله وفى تبليغ رسالته . ومما لا يمكن التسليم به بيسر قول بعض الناس : إن الله عصمه فيما يتصل بالدين لا فيما يتصل بالدنيا . وهذا القول قد يقبله الصديق الولىّ ، على مقدار ، ما يرفضه ويسخر منه العدو المكاشح . فالرأى الذين ندين الله عليه ، أن تفسير الآية الشريفة فى سورة « الفلق » بالحديث الذى رواه هشام بن عروة تفسير جانب الحق وتنكر للصواب ، وقام عقبة كئودا فى سبيل الدعاة إلى الله والمعتزين بالاسلام ، والحريصين على أن ينفع الله - تعالى - به الانسانية ويخلصها من ربقة الأوهام والخرافات ، ويخرجها من الظلمات إلى النور .

والله نسأل أن يقيمنا على الحق ، وأن يهدينا سواء السبيل .

(٢١)

تفسير قول الله جل ثناؤه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢
إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

فما يتساءل عنه فى هذه السورة : كلمة الرب والملك والالاه ، وصلة هذه السورة بسورة الفلق مع اشتراكهما فى التعويذ ، وكلمة وسواس وخناس والجنة والناس .

فأما الرب ، فهو مصدر ربه يربه ربا ، أطلق على الله ـ تعالى ـ مبالغة كما تطلق المصادر على الراء ـ ومنه قول الراجز :

يا جمل أسقيك بلا حسابة سقيا مليك حسن الربابة

والعباد مربوبون ، وقالوا رجل ربى ربانى ، ومن الأول قول الله :

﴿ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (سورة آل عمران ١٤٦)

ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ (سورة آل عمران ٧٩)

والملك ، السيد المتصرف فى عبده ومماليكه ، النافذ القدرة فيهم ، الذى له السلطان التام عليهم . والإلاه : المعبود الذى لا إله للخلق سواه ، فكما أنه وحده ربهم ومليكهم لا يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده الإههم ومعبودهم ، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكا فى إلاهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه .

والوسواس ـ بالفتح والكسر ـ كزلزال ، هو حديث النفس وهمس الصائد

والكلاب وأصوات الحلى ؛ لا يحس فلا يحترز منه ، وعلى هذا قالوا : وسواس هو الإلقاء الخفى فى النفس ، أما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى اليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد ، ومنها وسوسة الحلى وهى حركته الخفية فى الأذن .

ومنه قول ذى الرمة يصف ثورا وحشيا لم يستطع دخول مرقده :

فبات يُشئزه ثَأْد ويسهره تذؤُّب الريح والوسواس والهِضَب(١)

والخناس ، من الخنوس وهو التأخر والاختفاء بعد ظهور ، خنس خنوسا إذا تأخر واختفى . وتقول : خنسته أنا وأخنسته إذا أخرته ، وتقول العرب : أشار فلان بأربع وخنس إبهامه . ومنه الخناس ، وفى أنفه خنس ، تعنى انخفاض القصبة وعرض الأرنبة ، والبقر خُنس ، ومن المجاز : خنس الكوكب ، رجع . وعليه قول الله : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ (سورة التكوير)

وتقول : فلان خنس عنى حقى : أخره وغيبه . ومن أجمل ما فى هذا المعنى قول أبى العلاء الحضرمى منشدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

وان دحسوا بالشر فاعف تكرما وان خنسوا عند الحديث فلا تسل

والدحس : الافساد .

والجنة ، الجن ، وانما سموا جنا من الاجتنان وهو الاستتار ، فهم مستترون عن الأعين ، فسموا جنا لذلك ، من قولهم : جنة الليل ، وأجنه إذا ستره ومنه الجنين لاستتاره فى بطن أمه ، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه . ومنه الجنة لاستتار داخلها بالأشجار ، ومنه الجُنة لما يقى الانسان من السهام والسلاح ، ومنه المجنون لاستتار عقله .

وأما صلة هذه السورة بسورة « الفلق » قبلها ، فان كلا من السورتين مشتمل على الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ عما يؤلم أو يفضى إلى الألم .

فسورة « الفلق » تضمنت الاستعاذة من الشر الوافد على الانسان من الخارج ، وأما سورة « الناس » فقد تضمنت الاستعاذة من الشر النابع من داخل نفس الانسان .

---

(٢) يشئزه : يقفه . ثأد : يرد . تذؤب : عواء . الوسواس : حديث النفس . الهضب : المطر والمعنى أن هذا الثور وقد استحال عليه اللياذ بمرقده بات قلقا فى البرد منزعجا بصوت الريح ونزول المطر .

فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب من المكلف الكف عنه لأنه ليس من كسبه ، والشر الثانى داخل تحت التكليف ويتعلق به النهى ، فهذا شر المعائب والأول شر المصائب والشر كله راجع إلى المعائب والمصائب ، وعلى هذا فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى تنشأ جميعا عن الوسوسة .

هذا . وقد تحامل كثير من أهل العلم بالقرآن على الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، فزعموا أنه رضى الله عنه ـ لم يكن يعتبر المعوذتين سورتين من القرآن ، بدليل أنه لم يثبتهما فى مصحفه ، كما يصور ذلك ابن قتيبه فى قوله : إن عبد الله لم يكتب فى مصحفه المعوذتين . لأنه كان يسمع رسول الله ـ ﷺ ـ يعوذ الحسن والحسين بهما ، فقدر أنهما بمنزلة : أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّه .

وهذا التحامل يتنكب طريق الإنصاف ، فانه ـ رضى الله عنه ـ لم يثبتهما فى مصحفه لأنه أمن عليهما من النسيان ، وليس لأنه لم يعتبرهما من القرآن ، والدليل على ذلك ـ فيما نرى ـ أنه لم يثبت الفاتحة أيضا فى مصحفه ، فهل يعنى ذلك أنه لا يعتبر الفاتحة من القرآن ؟

إن الذى نؤمن به وندين الله عليه ، أنه ـ رضى الله عنه ـ لم يثبت فى مصحفه لا الفاتحة ولا المعوذتين ، لأن كل مسلم كان يحفظ الفاتحة والمعوذتين ، فأما الفاتحة فلأن الصلاة لا تصح إلا بها ، وأما المعوذتان فلأن رسول الله ـ ﷺ ـ كان أكثر أحيانه يتعوذ بهما فى نفسه ، ويعوّد بهما غيره ، وكان أكثر أحيانه يوصى المسلمين بالتعوذ بهما .

وهذا منه ـ ﷺ ـ إشارة عظيمة إلى معنى جليل ، هو أن القرآن رأس النعمة ، وملاك الخير ، وعدة المسلم فى دنياه وآخرته ، ومن شأن النعمة الجليلة أن تصان بحمد المنعم والثناء عليه ، وباللجأ اليه أن يعيذها من كل شر يتهددها فى بقائها أو نمائها ، وذلك هو السر فى افتتاح القرآن بأم الكتاب واختتامه بالمعوذتين .

الجـــزء الثالث

الخـــلافة

الخـــلافة

هذا هو الأصل الثانى الذى هو القرآن الكريم ، وأما الأصل الثالث فهو الخلافة ، وهى قيام الشىء مقاما قام فيه غيره من قبله ، وعليه قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (سورة البقرة ٣٠)

يعنى جل ثناؤه أنه خالق فى الأرض مخلوقا خالفا غيره ، فمعنى الآية على هذا هو أن الله ـ تعالى ـ قال للملائكة : إنى خالق فى الأرض مخلوقا يخلف عليها خلقا آخر من الملائكة أو من غيرهم .

والذى نؤثره معنى للآية الشريفة ، هو أن كلمة خليفة بمعنى مخلوفة ، مثل هزيلة بمعنى مهزولة ، وعليه يكون معنى الآية : أن الله تعالى قال للملائكة : إنى خالق على الأرض مخلوقا ، مخلوفا ، له ذرية يخلف بعضهم بعضا ، وقد خلفوا هم أباهم آدم من قبل فى عمارة الأرض ، وهذا المعنى واضح سائغ لا تضيق به اللغة ولا ينبو عنه الذوق ، ولا يحتاج إلى تكلف ما لم يقم عليه دليل مقنع ، من سكنى الملائكة الأرض قبل خلق آدم ، أو سكنى غير الملائكة من خلق أخترعت لهم أسماء هى بأوهام الأساطير أشبه منها بأعلام التاريخ .

ثم إن ها هنا حول كلمة « خليفة » نظرين : أحدهما يتصل بها مفردة ، وثانيهما يتصل بها مقرونة إلى أخواتها فى الآية الشريفة .

فالنظر الأول : أن للفعل « خلف » معنيين فى اللغة ، يمتاز كل منهما عن صاحبه بالاستعمال ، فاذا قال القائل : تخلف الولد والده خلفا ـ بفتح اللام ـ فهو خليفة أبيه أو خليف أبيه ، فان هذا القائل يعنى بقوله أن الولد خلف صدق من أبيه . وان هو قال : خلف الولد والده خلفا ـ بسكون اللام ـ فهو خالفة أبيه أو خالفه ، فانه يعنى بقوله أن الولد خلف سوءٍ من أبيه .

ومن أجمل ما يروى فى هذا المقام ، أن أعرابيا سأل سيدنا أبا بكر الصديق بعد ولايته الخلافة : يا أبا بكر ، أأنت خليفة رسول الله ﷺ ؟ . فقال أبو بكر : لا . قال الأعرابى : فما أنت إذن ؟ . قال ـ رضى الله عنه : أنا خالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبيان ذلك ، أن الخليفة هو من يقوم مقام الذاهب ويسد مسده ، وأما الخالفة فهو الذى يأتى بعد الذاهب ولا غناء عنده .

فسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لم يشأ أن يصف نفسه بأنه خليفة النبى وقائم مقامه ، وساد مسده ، وانما وصف نفسه بأنه خالفه بمعنى أنه مجرد آت بعده ، قصدا إلى التواضع وهضم النفس ، وكل مسلم هو كذلك إذا قيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

النظر الثانى : أن هذه الكلمة « خليفة » مع أخواتها فى النظم الشريف ، تجعل الآية أصلا فى نصب إمام وإقامة خليفة ، يسمع له ويطاع ، تجتمع به الكلمة ، ويستقيم به الوصف ويرهبه الظالم ، وينتصف به المظلوم ، ويأوى اليه الخالق ، وذلك شأن الخليفة فى موازين الاسلام ، على ما وصفه شيخ البلغاء فى عصره الحسن البصرى رحمه الله حين طلب إليه عمر بن عبد العزيز أن يكتب له بصفة الإمام العادل ، فكتب اليه يقول :

إعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفه كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ؛ فهو كالراعى الشفيق على إبله ، يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مواقع الهلكة ، وهو كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ؛ وكالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، وهو وصى اليتامى ، وخازن المساكين يربى الصغير ويمون الكبير .

ولا خلاف بين الأمة ولا بين عامة الأئمة ، فى أن على المسلمين أن ينصبوا لهم إماما يرجعون إليه ، ويقولون على رأيه ، فقد قال رحمه الله : إن نصب الإمام غير واجب فى الدين وان كان سائغا ، فمتى استطاعت الأمة أن تقيم حَجَّها وجهادها وأن تتناصف فيما بينها ، وأن تبذل الحق من أنفسها ، وأن تقسم الغنائم والفىء والذكرات على أهلها ، وأن تقيم الحدود على من وجبت عليه الحدود ، فإن ذلك يجزئهم ، ولا يجب عليهم نصب إمام يتولى ذلك منهم .

ولا نحسب الشيخ فى قوله هذا عاتبا ولا لائذا بالخيال ، فان فى الانسان قوة من الخير مذخورة ، لا يستبعد الشيخ معها أن يقوم الضمير الدينى فى المسلم مقام القانون ، فيزعه عن الشر كما يزع الحاكم الحازم أهل الشرور عن الشرور .

وقد استدل القائلون بوجوب إقامة الخليفة ونصب الإمام بهذه الآية :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (سورة البقرة ٢٩)

ثم بالآية : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (سورة النور ٥٥)

ثم بالآية : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ (سورة ص ٢٦)

والإمامة تنعقد للإمام بطريق من طرق ثلاثة :

الأول : النص على الامام عن طريق التلميح ، وبهذا يقول الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى وطائفة من الخوارج ، وقد نص النبى - ﷺ - على أبى بكر بالاشارة فى قوله وهو مريض : (مروا أبا بكر فليصل بالناس) .

الثانى : النص عليه عن طريق التصريح ، كما نص أبو بكر على عمر ، وكما نص عمر على أهل الشورى .

الثالث : اجماع أهل الحل والعقد . وذلك أن الجماعة فى مصر من أمصار المسلمين ، إذا مات إمامهم فأقام أهل ذلك لمصر .. الذى هو حضرة الامام وموضعه - إماما لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه ، فان كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين فى الآفاق ، يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الامام ، لأنها دعوة محيطة بهم يجب اجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها .

ويجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل ، وذلك أن الامام انما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل ، واستخراج الحقوق واقامة الحدود ، وجباية الأموال وقسمتها على أهلها ، فاذا خيف باقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الامام ، كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدل عن الفاضل إلى المفضول ، ويدل على صحة ذلك ، أن عمر وسائر الأمة كانوا يعلمون أهل الشورى فيهم الفاضل والمفضول ، وقد أجازوا العقد لكل منهم .

ولقد أحاط الاسلام إمام المسلمين وخليفتهم بكل ما يوجب له التوقير والتجلة والاحترام ، وكل ما يصونه من الشغب عليه ، حرصا على توفير السكينة والسلام للجماعة الاسلامية . فقد أخرج مسلم عن أم مسلمة - رضى الله عنها - أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : (إنه يستعمل عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، فمن كره فقد برىء ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع) . قالوا : يا رسول الله أفلا نقاتلهم ؟ . قال ـ ﷺ : « لا ، ما صلوا » . يعنى بذلك أنهم ما داموا منقادين للاسلام انقيادا ظاهرا فان فى ذلك عصمة لدمائهم وأموالهم . ومما يدل على شدة العناية بتوفير السكينة والأمن للجماعة الاسلامية ـ وله بالحديث الشريف تعلق ـ ما ذهب اليه العلماء بكتاب الله فى تأويل الآية الشريفة :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة المائدة)

فقد اختلفت آراء المفسرين فى المراد من الآية على أقوال عدة ، والذى تسكن اليه النفس لما فيه من نفى الحرج ومطاردة الفتنة ، هو رأى عكرمة ـ رحمه الله ـ فذلك حيث يقول : إن الآية لا تتناول إلا من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ما أنزل الله فى كتابه الكريم ، فأما من عرف بقلبه وأقر بلسانه أنه حكم الله ، ولكنه أتى بما يضاده ، فانه مع ذلك حاكم بما أنزل الله ، وان كان تاركا له ، فلا يلزم اعتباره كافرا .

أسلفنا أن أبا بكر كان يأبى أن يصف نفسه بأنه خليفة رسول الله ، تواضعا وهضما لنفسه ، وما بلغ الحاكم خيرا لنفسه ولرعيته إلا والتواضع وهضم النفس سبيل إليه ، ولا أصابه شر فى نفسه أو فى رعيته إلا والكبرياء والغرور سبب له وسبيل إليه . ومن هنا كان الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ثم عمر بن عبد العزيز وكثير من أئمة المسلمين فى مختلف العصور ، خيرا وبركة على أنفسهم وعلى الأمة ، لأنهم راضوا أنفسهم على هذا الخلق الرضى والتزموا أدبه الرفيع . ولسنا فى مقام الاستيعاب لفضائل أهل الفضل ممن كانوا رحمة للأمة ، وصورا من أكرم صور التربية الاسلامية ، التى تقيم الناس على الجادة ، وتأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل .

الحكايات المدخولة للمؤرخين
عـــــن
نكبة الرشيد وقصة العباسة

وعلى قدر ما أحاط الاسلام أمراء الأمة وخلفاءها بالتوقير والتجلة ، مضت الأهواء تفزِّع أمنهم وتشهِّر بهم ، ارضاء لنزوة أو إرواء لعصبية أو ابتغاء لمنفعة ، فملأت بطون الكتب بالكواذب من الأخبار التى لا تثبت على نقد ولا تستند إلى برهان ، ولو شئنا أن نضرب لذلك أمثلة لضاق بنا المجال ، فحسبنا فى هذا مثل واحد « هارون الرشيد » رحمه الله ، فإن الذين يقرأون ما كتب عنه ، أو يتلمسون صورة حياته فى تصور عامة الناس ، يجدونه حاكما مستهترا لا يفيق من سكر ، ولا يستعصم من شهوة ولا يكاد يفرغ لعمل جاد فى دنيا أو دين . والدلائل كلها من العقل والنقل ، تقوم على دحض هذه الأكاذيب . فأما العقل فإن مُلكا لا يمكن أن يستقيم لخليفة آثر لنفسه حياة ماجنة كالحياة التى تنسبها الجهالات أو العداوات للرشيد . ولكن الملك قد استقام له ، فكان يغزو عاما ويحج عاما حتى لحق بربه ؛ وأما النقل فإن الذين كتبوا تاريخه هم من الحقد على الاسلام والمسلمين بحيث يستبيحون الحرم ، ويستحلون الكذب والافتراء . وأكذب قضية تناولوها ، هى قضية العباسة وقضية الشراب وهما محض افتراء ، وخلاصة كذب لا يخفى إلا على الذين لا يعقلون . وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون وهو المؤرخ الثقة :

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ، ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ، وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته معهما الخمر ، أذِن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة ، حرصا على اجتماعهما فى مجلسه ، وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها فى حالة سكر فحملت منه ، ووشى بذلك الوشاة للرشيد فاستغضب وأوقع بالبرامكة .

قال ابن خلدون : وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعلماء الملة من بعده . والعباسة بعد بنت محمد المهدى بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علّى أبى الخلفاء ، ابن عبد الله ترجمان القرآن ، ابن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم . ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، بعيدة عن عوائد الترف ، ومراتع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ . أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها ؟ . أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ، بملكة جده من الفرس ، أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش ؟ . وغايته أن جذبت دولتهم بضبعيه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف ، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم ، على بعد همته وعظم آبائه ، ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء زمانه ، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قوتها ، واستنكره ولج فى تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ . وانما كانت نكبة البرامكة من استبدادهم على الدولة واحتجانهم[1] أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . وقد كان بدار الرشيد من ولد يحيى ابن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة ، بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولى عهد وخليفة ، حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على أمره ، وكان يدعوه : يا أبت ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاد عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك

(١) إحتجن الشيء : اختص نفسه به .

وتحف الأمراء ، وسيّرت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية ، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء ، وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العانى ، فمدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وسنّوا لعفاتهم[1] الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان أخوال جعفر من أعظم الساعين عليه ، لم تعطفهم ـ لما وقر فى نفوسهم من الحسد ـ عواطف الرحم ، ولا وزعتهم أواصر القرابة ، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشىء الغيرة ، والاستنكاف من الحجر والأنفة ، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة ، كقصتهم فى يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أخى محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ، ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من برد الديلم[2] على أمان الرشيد بخطه ، وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ، ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره ، وإلى نظره ، فحبسه مدة ، ثم حملته الدالة على تخلية سبيله ، والاستبداد بحل عقاله ، حرما لدماء أهل البيت بزعمه ، ودالة على السلطان فى حكمه ، وسأل الرشيد عنه لما وشى به إليه ففطن وقال : أطلقته . فأبدى له الرشيد وجه الاستحسان ، وأسرها فى نفسه ، فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه ، حتى ثل عرشهم ، وألقيت عليهم سماؤهم ، وخسفت الأرض بهم وبدارهم ، وذهبت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم .

ومن تأمل أخبارهم ، واستقصى سير الدولة وسيرهم ، وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب .

هذا ما ذكره ابن خلدون فيما يتصل بالعباسة أخت الرشيد مما ذكره المؤرخون وضمنوه أخبارهم الكواذب ، جهالة أو عصبية ، وأما ما يتصل بمعاقرة الرشيد الخمر ، فقد قال ابن خلدون موفقا كل التوفيق فيما قال :

وأما ما تُمَوَّه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر ، واقتران سكره بسكر

(١) العانى هو كل طالب معروف .

(٢) الديلم من قرى اصبهان .

الندمان ، فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء ، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ، ومحاوراته للفضل بن عياض وابن السماك والعمرى ، ومكاتبته سفيان الثورى ، وبكائه من مواعظهم ، ودعائه بمكة فى طوافه ، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها .

حكى الطبرى وغيره أنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة ، وكان يغزو عاما ويحج عاما ، فكيف يليق به وتلك حاله أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها ؟ . وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية فى اجتناب الخمر معلومة ، ولم تكن الكرم شجرتهم ، وكان شربها مذمة عند كثير منهم . والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج[1] من اجتناب المذمومات فى دينهم ودنياهم ، والتخلق بالمحامد ونزعات العرب وأوصاف الكمال .

وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة ، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ، ولا إلى تقليد الأخبار الواهية فيها ، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة ، ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف فى ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التى لم يفارقوها بعد ، فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلية إلى الحرمة ؛ وقد اتفق المؤرخون الطبرى والمسعودى وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق والسيوف واللجم والسروج ، وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد ، وهكذا كان حالهم فى ملابسهم ، فما ظنك بمشاربهم .

وربما افتريت فرية شراب الخمر على يحيى بن أكثم قاضى المأمون وصاحبه ، فقد زعموا أنه كان يعاقر الخمر ، مع أن حال ابن أكثم والمأمون فى ذلك من حال الرشيد ، وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم ، وأما السكر فليس من شأنهم ، وصحابته للمأمون انما كانت خلة فى الدين ، ولقد ثبت أنه كان ينام معه فى

(١) الثبج : وسط الشىء تجمع وبرز .

البيت ، ونقلوا من فضائل المأمون وحسن عشرته ، أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى ابن أكثم ، وثبت أنهما كان يصليان الصبح جماعة ، فأين هذا من المعاقرة ؟ .

وأيضا فإن يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث ، وقد أثنى عليه الامام أحمد بن حنبل واسماعيل القاضى ، وخرّج عنه الترمذى كتابه الجامع ، وذكر المزنى الحافظ أن البخارى روى عنه فى غير الجامع ، فالقدح فيه قدح فى جميعهم .

فهذا النبيذ الذى كان يشربه يحيى بن أكثم مع توثيق أئمة الحديث له ، هو النبيذ الذى كان يشربه الخليفة هارون الرشيد .

وإذ قد وثق أئمة الحديث وفى ذروتهم أحمد بن حنبل ، يحيى بن أكثم مع شربه النبيذ ، فلا مناص لهم من أن يوثقوا الخليفة هارون الرشيد مع شربه النبيذ ، وأن يصونوه عن التبذل الذى ألصقه به الجهلة أو المغرضون من المؤرخين .

ومما ينبغى التنبه له والتنبيه إليه ، أن النبيذ المذكور هنا ليس هو النبيذ المعروف فى عصرنا ، فإن هذا هوالخمر بعينه ، وهو حرام بالنص قليله وكثيره ، وليس هو كذلك ما نعرفه فى مصر باسم الخشاف ، وانما هو شراب متخذ من غير العنب ، كثيره يسكر وقليله لا يسكر ، وهو موضع خلاف بين الأئمة ، فمالك والشافعى وابن حنبل يحرمون قليله وكثيره أخذا بقاعدة ما أسكر كثيره فقليله حرام ، وأما أبو يوسف صاحب أبى حنيفة فإنما يحرمه فى حالة الاسكار فقط .

ولا ريب أن الخلافة أو الامامة قد منيت بأعظم الشرور ، وابتليت بأفتك الآفات ، وتعرضت من البلاء والمحن وحَسك الضغائن لما لم يتعرض له نظام سياسى فى دنيا الناس ؛ منذ بدأت أولى خطواتها حتى لفظت آخر أنفاسها .

ويستطيع المؤرخ أن يتنقل بالحديث عن الخلافة فى ثلاثة أطوار :

١ ـ الخلافة الراشدة .

٢ ـ الملك العضوض .

٣ ـ العصبية الجامحة .

الطور الأول :

طور الخلافة الراشدة : وهو طور اجتهاد فى نصرة الحق بكل ما ينطوى عليه الاجتهاد من خطأ أو صواب ، ومن سداد فى المنطق أو سوء فى التأويل ، ومن تلمظ إلى لذاذات السلطان أو إيثار لمعايشات الحرمان .

وهذا الطور لا يطيب لنا أن نأخذ فى الحديث عنه ، لأن وجه التاريخ فيه قد حجبته أقنعة غليظة ، فقد اختلف الرواة أو حرفوا أو زيفوا أخبارا وروايات ، تغيوا بها ثواب الله أو ثواب الناس .

ولو أن مؤرخا أراد أن يؤرخ لأحداث جيلنا ـ على قرب العهد وتوافر الوثائق ـ لصعب عليه ذلك ، فكيف وبيننا وبين أولئك الأسلاف زمن متطاول وأمد بعيد ، وركام من الأحداث لا ينكشف إلا عن أنين جريح أو صرخة ملتاع . ومن أجل ذلك نرى أن نلوذ بما لاذ به من قبل الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز حين سئل عن الخلاف فى هذا الطور ، فلم يزد على أن قال : تلك فتنة طهر الله منها أيدينا ، فلا نغمس فيها ألسنتنا . وهو قول خليق أن يلتزمه أهل الايمان ، وأن يرضى عنه رادة الإنصاف .

الطور الثانى :

طور الملك العضوض : فقد انتقل أهل الاسلام من الشورى التى أمر الله بها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولزمها الخلفاء الراشدون إلى صورة أخرى من نظام الحكم كان العرب يعرفونها بالقيصرية أو الكسروية ، وسماها الرسول ـ عليه السلام ـ « الملك العضوض » ، فيما يروى عنه من حديث .

والعضوض ، بناء لغوى يعطى معنى المبالغة فى العض ، ويوصف به المذكر والمؤنث ، وهو مستعار من عض الناب ، فكأن هذا النوع من الحكم يعض الرعية عضا ، ومن ذلك يقول العرب : زمن عضوض ، يعنون أنه كلب مسعور .

والخصيصة البارزة للملك العضوض ، أنه مُغرىً بطمس كل حقيقة مأثورة تخالف هواه ، لكى لا ينبعث عنها ما ينبه غافلا ، أو يرشد حائرا ، أو يذكر ناسيا ، أو يشد عزمة واهية إلى وصل حاضر واهن بماض قوى مجيد .

ومن أعجب شيء فى طمس الحقائق ، أن يستمر ملوك بنى أمية على عداوتهم لأمير المؤمنين علّى حتى بعد أن لحق بالرفيق الأعلى ، فيتجاهلوا فى هذا الموطن كرائم الأخلاق العربية ، وفضائل الآداب الاسلامية ليأمروا عمالهم أن يلعنوا عليا على المنابر فى بيوت الله ، بين أسماع المسلمين وأبصارهم .

ولم تزل هذه الخسيسة ـ خسيسة لعن علّى على المنابر فى بيوت الله ـ تطارد كل يوم جمعة شرف العروبة وأدب الاسلام ، حتى قضى عليها أحد خلفاء بنى أمية ، وهو الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ فقد أمر أن تستبدل بهذه البدعة المنكرة ، الآية الشريفة من كتاب الله :

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (سورة النحل)

ومن أعدل الشهود على خساسة هذا الطور من الخلافة ، مراسيل الحسن البصرى ، وهو التابعى الورع ، رضيع أم سلمة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ وكان من شيعة على وأهل مودته ، كان يروى الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرسلا ، والحديث كذا ، أو فعل كذا ؛ أو فعل بحضرته كذا ؛ وقد كانت تلك طريقة الحسن البصرى فيما يرويه من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكن يذكر الصحابى الذى يروى عنه ، ويقول : إنهم يعلمون عمن أروى الحديث .

وقد سأل أحد طلاب الحديث الحسن ذات يوم فقال : يا أبا سعيد إنك تحدثنا فتقول قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحبذا لو أسندت الحديث إلى من حدثك من أصحاب النبى ، فقال الحسن : إنا والله ما كَذَبنا ولا كُذِّبنا ، ولقد غزونا غزوة إلى خراسان ومعنا فيها ثلاثمائة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد سأل يونس بن عبيد من أهل العلم : الحسن البصرى ـ يا أبا سعيد ـ إنك تقول قال رسول الله ، وإنك لم تدركه ؛ فقال : يا ابن أخى ، لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، ولولا منزلتك منى ما أخبرتك ، إنى فى الحجاج وهو من الجراءة والظلم لأهل الحديث بالمنزلة التى تعرف ، فإذا سمعتنى أقول قال رسول الله ، فاعلم أننى أروى هذا الحديث عن على كرم الله وجهه .

وقد وثّق أهل العلم حسن البصرى ، فقال ابن المدينى : مرسلات الحسن البصرى التى رواها عنه الثقات صحاح ، ما أقل ما يسقط منها . وقال يحيى بن سعيد القطان : ما قال الحسن فى حديثه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وجدنا له أصلا ، إلا حديثا أو حديثين . وقال محمد بن سعيد : كل ما أسند من حديث الحسن ، أو روى عمن سمع منه ، فهو حسن وحجة .

وقد يجد المرء منطقا سائغا وسببا معقولا ، يبرر به بنو أمية ـ فى ملكهم العضوض ـ سلوكهم المعيب بإزاء علّى وبنيه وشيعته ، من حيث كان طلب الخلافة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء ، ولكن المرء مهما أوتى من المقدرة على استخراج العلل وتتبع مداق الأمور ، لا يستطيع أن يجد مبررا يبرر به تجهمهم للشيخين الجليلين أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ إلا أن يلوذ بما قررناه من أن خصيصة الملك العضوض طمس كل حقيقة توحى بالمقابلة بين الحاضر والماضى خشية أن تغرى هذه المقابلة بعض الناس بالخروج على أمير المؤمنين . ولهذا كان من رأى الحجاج أن يمنع كل قاصى أو واعظ يروى للناس سيرة أبى بكر وعمر ، بما اشتملت عليه من تصرفات شريفة ، فقد روى ابن نباتة المصرى أن والد الحجاج بن يوسف الثقفى ـ وكان فى مصر ـ خرج يريد الشام ومعه ولده الحجاج ، فجاء قاضى مصر يومئذ يزور الوالد أو يودعه ، فقال والد الحجاج للقاضى : أليس لك حاجة أرفعها إلى أمير المؤمنين ، فإنى عازم أن ألقاه ، فأرجو إن أنا رفعتها إليه أن يقضيها إن شاء الله . فقال : حاجتى إليك أن ترفع إلى أمير المؤمنين ـ حفظه الله ـ رغبتى أن يعزلنى من ولاية القضاء . فأنكر ذلك يوسف الثقفى والد الحجاج وهو يقول : والله لوددت أن قضاة المسلمين كلهم مثلك ، فكيف أسعى فى عزلك ؟ . فلما انصرف قال الحجاج لوالده : من هذا الذى قمت إليه يا أبت ؟ . فقال : يا بنى هذا سليم بن عمرو قاضى أهل مصر وقاصّهم[1] . فقال الحجاج : يغفر الله لك يا أبى ، أنت ابن أبى عقيل تقوم إلى رجل من كندة أو تحييه ؟ . فقال : يا بنى والله إنى ما أرى الناس يرحمهم الله ـ تعالى ـ إلا بهذا وأمثاله من أهل الورع والتقوى . فقال الحجاج : والله يا أبت ، ما يُفسد الناس على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه ، يقعدون ويقعد إليهم أحداث الناس ، فيذكرون لهم سيرة أبى بكر وعمر ، فيخرجون على أمير المؤمنين . والله

---

(١) القاص : هو الواعظ .

يا أبت لو صفا هذا الأمر إلىّ ، لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لى السبيل فأقتل هذا الشيخ وأمثاله .

فهذا الحجاج - وهو رأس في دولة الملك العضوض - لا يطيق أن يرى الشعب يستمع من قاص أو قاص إلى سيرة أبى بكر وعمر ، ويود أن يجد السبيل إلى طمس الحقيقة على أية صورة وبأية وسيلة .

الطور الثالث :

طور العصبية الجامحة : وكلمة عصبية تدور مادتها حول القوة والتماسك . ومن ذلك العصْب ، وهو الطى الشديد . والعُصَبة والعَصَبة والعُصْبة ، كل ذلك شجرة تلتوى على الشجر وتكون بينها ، وهى شجرة اللبلاب ، وعليه قول الشاعر :

إن سُليمى عَلِقت فؤادى تَنشُّب العَصبِ فروعَ الوادى[1]

وقول الآخر :

تلبس حُبُّها بدمى ولحمى تلبّس عَصُبةٍ بفروع ضال[2]

والعرب تسمى السيد المطاع : مُعَصّباً ، لأن أمور الناس تُعْصَب به ، أى تدار به وترد إليه ، وقد أدركنا فى بلادنا من صعيد مصر أنهم كانوا يسمون السيد المطاع « محزما » ، وليس ببعيد أن يكون هذا التعبير ناظرا إلى التعبير العربى الأصيل .

والعرب حين يقولون : رجل مُعَصّب ، يعنون أنه مسوّد ، وكذلك حين يقولون رجل معمم ، فإن التيجان للملوك ، والعمائم للسادة من العرب . وقد تسمى العمائم عصائب ، ومن ذلك قول الفرزدق :

وَرَكْبٍ كأن الريح تطلُب منهمُ لها سَلَبا من جذبها بالعصائب[3]

ثم إن العصبية ضربان : عصبية عروق تستند إلى الأنساب ، وعصبية مذاهب تستند إلى الأفكار .

فأما عصبية العروق :

فإنها فطرة فى النفس الانسانية ، ومن أجل ذلك لم يقاومها الاسلام مقاومة

(١) تنشب : تعلق . (٢) الضال جمع ضالة ، وهى الشجرة ذات الشددة .

(٣) السلب : ما ياخذه الجندى المقاتل من الجندى المقتول فى ميدان الحرب . والشاعر يعنى أن الريح من شدتها تحاول حل عمائمهم التى اعتصبوا بها ، وكان هذه العمائم سلباً تبتغيه الريح .

تقضى عليها ، وإنما كان شأنه معها كشأنه مع سائر الأمور الفطرية ، يقوم فيها ما اعوج ويُنَهْنه منها ما غلا ، وشاهد ذلك أن النبى - ﷺ - كان يتسم الشرف من بيته وقبيلته وقومه ، فذلك حيث يقول : (إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار) .

فالاعتزاز بالعصبية فطرة لم يقاومها الاسلام ، وإنما قاوم الظلم الناجم عنها حتى تستقيم الحياة على ما ينفع الناس .

غير أن العرب بما فيهم من فضائل فطرية ظاهرتها فضائل الدين ، لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلا بهضم نفوسهم وقهر شهواتهم ، فنزعوا إلى الاستعلاء بالعروق والاستطالة بالأنساب . فلما مهد الاسلام لهم سبل النعمة ومكن لهم من السلطان ، استغلظت بينهم الفتن ، وضرب بعضهم رقاب بعض ، حتى خيم عليهم الفناء ، وكانت السنّة المألوفة فى صدر الاسلام ، أن تكون كتائب الجيش من القبائل العربية ، وأن يكون أمراؤ ها من ساداتها . ثم كان الملك العضوض يتربص الدوائر بآل بيت النبى ضربا بالسيوف أو قنصا بالرماح وصلبا على الأعواد بين أسماع الأمة وأبصارها .

ولم تكن عصبيات العروق قد ماتت فى أنفس المسلمين من غير العرب ، فبدأت تستيقظ حاقدة آملة ، وأعتى الشرور الشر الذى يزحف مدفوعا بالحقد ومزودا بالأمل ، وأى أمل آمل من آل البيت يتخذهم الطامعون فى السلطان مساعر فتنة ، كما اتخذ بنو أمية وتبّاعهم - أول عهد دولتهم بالحياة - قميص عثمان لسان فتنة لايجاريه فى فصاحته وبيانه لسان .

وقامت دولة بنى العباس وقد شارك فى إقامتها أبناء فارس ، وكان الظن ببنى العباس أن يكونوا أقرب إلى الخلافة منهم إلى الملك العضوض ، وخاصة فيما يتصل بآل البيت ؛ ولكن الملك عقيم ، وخابت الظنون خيبة ملأت من اليأس النفوس ، وأوقرت الصدور حقدا آنفا إلى حقد قديم ، فمضى الملك العضوض فى دولة بنى العباس على الطريق نفسها التى استنها الملك العضوض فى دولة بنى أمية ، وراح الخلفاء فى هذه الدولة يركبون متون الظنون إلى كل عظيمة تتصل بالرعية التى

أصابها الحرمان فى كل مقدس ، وفى ذروة ذلك كله الأمن والطمأنينة ووحدة الكلمة .

ومهما يكن هذا السلوك مصيبا أو مخطئا ، ومثوبا أو خاطئا ـ على ما يختلف فى ذلك المؤرخون ـ فليس ها هنا موضع الحكم عليه ولا القضاء فيه ، وكل ما نريد أن نقول هو أن الحقد يذكر بالحقد والشر يغرى بالشر ، والمطامع عدوى .

ولما رأى المسلمون من غير العرب أن بنى العباس كانوا يُصدرون فيما يأخذون أو يَدَعون مع أبناء عمومتهم عن عصبية قبلية أو عن أهواء ذاتية ؛ راح زعماؤهم يفكرون فى الحصول على السلطان ، ولو أفضى ذلك إلى تقويض دولة بنى العباس ، فاتخذوا من آل البيت وسيلة إلى غايات بعيدة المدى كثيفة الحجاب ، والتف من حول هذه الدعوات كثيرون ، بعضهم يدفعه إلى ذلك حب لآل البيت ورغبة فى الانتصاف لهم ، وبعضهم يدفعه حقد دفين وغيظ كظيم ، فهاجت الفتن هياجا شديدا ، واستوعبت كثيرا من أهل السياسة وأهل العلم والأدباء والشعراء . وكانت الدولة تخبطا عشواء ، فحينا تصادف حقا ، وأحيانا تواقع باطلا ، حتى انتكث فَتْلُها وأجهز عليها عملها ، وقامت الدويلات تتحداها فى أكثر من موضع ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى استقرت الخلافة فى تركيا فى آل عثمان ، وكانت هذه آخر مراحلها ، وفيها لفظت آخر أنفاسها .

وزر زعماء العرب
فـــى
العصر الحديث

ومن الإنصاف للحقيقة أن نقرر أن زعماء العرب فى العهد الحديث يحملون وزرا ثقيلا فى القضاء على الخلافة ، ذلك أنهم قاتلوا جيش الخلافة الاسلامى تحت رايات الصليبيين فى الحرب العالمية الأولى فإن هذا التصرف الغبى الأحمق مهد السبيل لكى تصبح دولة الخلافة مسودة لأوروبا بعد أن كانت سيدة فيها ، كما مهد السبيل أمام الجشع الصليبى الأوربى لكى يعتبر نفسه وارثا لدولة الخلافة فى كل مكان يخضع لسلطانها من دول وأقطار وشعوب .

ولم يكن الإثم فى القضاء على الخلافة إثم العرب وحدهم ، ولكن الدولة التركية العثمانية كانت تحمل من ذلك وزرين :

أولهما : تلكم العنجهانية[1] العنصرية التى كانت الدولة تعتز بها وتشجع عليها ، وتتصرف فى هديها تصرفات ملأت صدور العرب حقدا وضغينة .

وثانيهما : تلكم السياسة الجاسية الجافية ، التى كانت تلجأ إلى بسالة الحرب أكثر مما تلجأ إلى قوة الحجة فى حماية الاسلام والجهاد فى سبيله .

ولو أن دولة الخلافة كانت قد تخلت عن هذا السلوك ممثلا فى هذين الاتجاهين ، لما وجد الصليبيون هوة ينفذون منها إلى النيل من المقدسات الاسلامية نيلا أساء إلى الحق وإلى التاريخ وجعل الأمة الاسلامية ـ دولا وشعوبا ـ أشلاء ممزعة بين أيدى الطامعين فى الاستغلال والاستذلال من قادة الاستعمار . ذلك أن الصليبيين كان لهم هدفان كبيران منذ نشبت الحرب الدينية بينهم وبين القائد المجاهد صلاح الدين :ـ

---

(١) العنجهانية أو العنجهية ، هى الكبر والعظمة والجفاء .

فأما أحد الهدفين : فهو القضاء على المعاقل الاسلامية فى أوربا ، لتخلص لهم القارة الأوربية دون شريك .

وأما الهدف الثانى ، فهو القضاء على الخلافة الاسلامية ، للحيلولة دون قيام وحدة بين المسلمين .

وليس يخفى على الفقهاء بالتاريخ أن المعاقل الاسلامية التى كانت تقض مضاجع الصليبيين إنما هى : الأندلس ، والقرم ، وتركيا .

وغير ذى حاجة إلى بيان أن لهذه المعاقل وزنا عسكريا فى الحرب وشأنا عقديا فى السلم . أما فى الحرب ، فإن كانت هجومية كانت هذه المعاقل رؤوس حراب لها أهميتها وخطرها فى المعارك . وإن كانت دفاعية ، صارت هذه المعاقل خطوط دفاع أولى لها قيمتها وتأثيرها . وأما فى السلم فإنها كانت مركز إشعاع تنساب منها العقيدة إلى البلاد المجاورة . ومن هذه المراكز إنساب الاسلام إلى بولندة وليتوانيا ودول البلطيق فى الشمال ، وإلى بلاد البلقان فى قلب أوربا وإلى جزر المتوسط وشواطىء الجنوب الأوربى . حتى أصبح فى كل تلك البلاد جاليات إسلامية كبيرة أو صغيرة يزداد عديدها على الأيام .

وإذن ، فهذه المعاقل كانت فى صالح المسلمين فى حالة الحروب الهجومية ، وفى صالحهم فى حالة الحروب الدفاعية ، وفى صالحهم فى حالة السلم .

ومن أجل ذلك حرص الصليبيون على تقويضها واحدة بعد واحدة . فاستولوا على الأندلس بعد سلسلة مرعبة من الاضطهاد وسفك الدم والاحراق بالنار ، وما إلى ذلك من كل عظيمة أنشأتها محاكم التفتيش منافية أبلغ المنافاة لحقيقة المسيحية التى جاء بها المسيح عليه السلام .

تركيا بعد الأندلس

وعلى نحو ما صنعوا فى الأندلس ، صنعوا فى القرم ، فأزعجوا نفوسا آمنة وأزهقوا أرواحا بريئة حتى أزالوا سلطان المسلمين فى تلك الجزيرة ، والقضاء على المسلمين فى الأندلس وفى القرم ، ولم يبق أمامهم سوى البلد المجاهد « تركيا » ، التى كانت رافعة لواء الاسلام والمسلمين ، فماذا صنعوا معها ؟

لقد دأبوا على مناوأتها بغير ملل ولا فتور . فالنمسا تحاربها حتى تنسرق قواها . وروسيا تعاجلها بالاعتداء قبل أن تسترد أنفاسها . وفرنسا تنازلها فى أرض مصر تارة وفى أرض أوربا تارة أخرى . وإيطاليا تناوشها فى غير مرة . وانجلترا تصارعها بين حين وحين فى ميادين أوربا وفى بقاع آسيا وفى ربوع أفريقيا .

وهى فى إبان هذه الحروب الضروس ، كانت تواجه فتنا متتابعة يثيرها الصليبيون فى البلقان . إن أخمدت فتنة فى بلغاريا ظهرت فتنة فى الصِّرب ، وإن فرغت من أمر هذه ، برزت فتنة فى رومانيا . فإن قمعتها قامت غيرها فى اليونان .

وهكذا عاشت تركيا المجاهدة قرونا طوالا لا تخرج من حرب إلا لتدخل حربا ، ولا تقمع فتنة إلا لتواجه فتنة . وقد صمدت لكل هذا ، وأعانها عليه مدد لا ينقطع من الرجال والعتاد ، تمدها به الولايات الاسلامية فى آسيا وأفريقيا ، وروح معنوية فى الحروب لا تضعف ، لأن الاسلام كان هو الذى يغذى قلوب المجاهدين .

فلما ظهر الضعف فى بعض الخلفاء ، تسلل التوجيه الصليبى إلى قصورهم ، عن طريق الجوارى اللاتى يتصلن بالصليبيين بنسب ، والأغوات الذين يحقدون على البشرية ، وضعاف النفوس من رجال الحاشية ، والمرتشين من قواد الجيش .

وكان هذا التسلل أخطر ضربة صليبية وجهت إلى امبراطورية آل عثمان . فقد أسىء بسبب تدخل الجوارى والخصيان والخونة والمرتشين . . أسىء اختيار الولاة ،

فكثرت المظالم فى الولايات الاسلامية ، واشتد فيها العسف والجور ، فضاق المسلمون ذرعا بذلك ، وثاروا على الخليفة فى بعض البقاع ؛ فثورة تنشب فى الحجاز تجعل من الصحراء مقبرة لجيوش الخليفة ، وتمرد فى مصر ينتهى باكتساح جيشها كل مقاومة . ويقف أمام « الآستانة » يقرع أبوابها ؛ وثورة فى اليمن تنتهى بانسلاخة ؛ وثورة فى الشام تنصب بسببها المشانق فى الميادين والطرقات . وهذه الثورات فى البقاع الاسلامية ، هى التى فتّت فى عضد دولة الخلافة وضعضعتها .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، ودخلت تركيا فيها محاربة ، ثم خرجت منها منهزمة محطمة لا حول لها ولا قوة . وسيطر « الحلفاء » على كل شىء فيها ، سيطروا على « البسفور » وعلى قلاع « الدردنيل » وعلى المواقع الحربية الهامة . وأشرف ضباط الحلفاء على شئون البوليس والحرس الوطنى وعلى تجريد القلاع من أسلحتها وتسريح الجيوش .

وسنحت الفرصة للصليبيين أن يضربوا فى « تركيا » الإسلام والخلافة جميعا . ولكنهم تأنوا وتمهلوا ولعلهم قدروا أنهم إن فعلوا ذلك بأيديهم ، كان له رد فعل عنيف فى نفوس ملايين المسلمين فى المستعمرات ، فيثورون عليهم أو يستمسكون بالخلافة فلا تنهار .

فمن الخير لهم أن يضربوا بيد الغير . ولكن من يكون هذا الغير ؟ .

لقد كان أمامهم على مسرح تركيا رجلان : السلطان وحيد الدين ، الذى سلم لهم بكل مطالبهم ، ومصطفى كمال الثائر الذى يتزعم حركة مقاومة الاحتلال .

فأى الرجلين أصلح لتنفيذ ما يريدون ؟ .

إن وحيد الدين بجانب أنه السلطان الشرعى ، هو أيضا خليفة المسلمين . وإذا كان كرئيس دولة منهزمة قد سلم بمطالب المنتصرين ، فإن تسخيره لضرب الإسلام والخلافة أمر مشكوك فيه .

مصطفى كمال

لا يحترم دينا أو إنسانا

أما مصطفى كمال فقد كان بفطرته ثائرا لا يحترم دينا أو إنسانا أو وضعا من الأوضاع ، ولا يقدس شيئا على الإطلاق كما يقول عنه (أرمسرونج) فى كتابه (الذئب الأغبر) . وهو بحكم نفوره من الدين واحتقاره للقيم وسخريته من كل الأوضاع المقدسة ، ورغبته فى تسنم ذروة الحكم ، قد يأتى من الأعمال ما يرضى هوى الصليبيين ، وقد يحقق - من حيث يدرى أو لا يدرى - بعض أحلام المستعمرين .

وليس من شك فى أنهم درسوا الرجل وخبروه ، وأدركوا أنه لن يكون خطرا على الاستعمار . وحين أقول « لن يكون خطرا على الاستعمار » فإنما أستعير تعبير الغربيين أنفسهم فى هذا المقام .

يقول (أرمسترونج) فى كتابه عن أتاتورك : إن الغازى لن يقود تركيا إلى حماقة من تلك الحماقات ، أو ينصب نفسه بطلا للشرق معاديا للغرب وللاسلام ضد المسيحية أو للأجناس المضطهدة ضد مضطهديها . ولكنه لن يكون إلا كما حدد برنامجه بقوله : ليس لنا إلا مبدأ واحد ، هو أن ننظر إلى جميع المشكلات بالعين التركية ، ونصون مصالح تركيا .

ومن أجل ذلك أعان الغرب مصطفى كمال وساند حركته . فانجلترا وفرنسا توقفان زحف اليونانيين فى تركيا ، حتى لا تنهار حركته . وفرنسا منفردة تعقد معه معاهدة سرية تطلق بمقتضاها عقال ثمانين ألف جندى من الجبهة السورية وتمده بعتاد وذخيرة لأربعين ألفا آخرين . وروسيا القيصيرية تقرضه أموالا يشترى بها أسلحة من إيطاليا وأمريكا . . وانجلترا تحتضن (وحيد الدين) فتتبخر حماسة الشعب المناصر للسلطان .

ولقد صدقت تصريحات مصطفى كمال ظنون الصليبيين فيه ، وأكدت لهم أن مكاسبهم من ورائه تفوق ما كانوا يقدرون . لقد صرح لممثل الحكومة الفرنسية كما جاء فى كتاب (الذئب الأغبر) بقوله :

تستطيعون أن تنالوا سوريا وبلاد العرب ، ولكن كفوا أيديكم عن تركيا . نحن نطالب بحق كل شعب فى الحرية داخل حدود بلادنا الطبيعية ، ولا نبغى شبرا واحدا أكثر من ذلك ولا أقل .

وهل كان الصليبيون يطمعون فى غير هذا ؟ .

لقد اختطف كل منهم جزءا من تركة « الرجل المريض » كما كانوا يسمون الخليفة ، وكل منهم يود أن يطمئن على ما خطف ، فإذا جاء وارث التركة وقال : لن أتعرض لمغتصب ، ولن أمد عينى إلى خارج رقعة تركيا ، فكيف لا يفرح المستعمرون بهذا الوارث الزاهد القنوع ؟ .

كذلك صرح فى الجمعية الوطنية ـ كما جاء فى نفس المصدر وفى غيره ـ بقوله : أنا لست مؤمنا بعصبة من جميع الدول الاسلامية ولا حتى بعصبة من الشعوب التركية .

وهل كان للصليبيين أمل أحلى ومطمع أعز من القضاء على الجامعة الاسلامية ؟ .

وهل يقوض الجامعة الاسلامية شىء مثل أن يكفر بها زعيم الدولة الأم ؟ .

ويقول (أرمسترونج) فى كتابه عن مصطفى كمال : فلطالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا . .

فهل يكون لهذه الكلمة معنى سوى تحقيق هدف صليبى قديم هو القضاء على آخر معقل فى أوربا للمسلمين ؟

ربما يقال إن مصطفى كمال كان يدلى بهذه التصريحات ليصرف الغربيين عن مناوأته ، وأنه قد يكون جحد بها ولم يلتزمها . وليس من الانصاف أن نحاسب الرجل على أقوال ، وإنما الانصاف يقتضى أن نحاسبه على أعمال . فلننظر إذن فيما نفذ من أعمال تمس الاسلام بعد أن استولى على مقاليد الأمور .

أبرز أعماله التى مست الاسلام ثلاثة :

أولا : عزل الخليفة من سلطنة تركيا ثم طرده .

وقد أثر هذا على تركيا نفسها وعلى الخلافة كذلك :

أما بالنسبة لتركيا ، فإن عزل الخليفة وطرده ، أفقدها الزعامة الدينية التى حفظت لها مكان الصدارة بين الأمم ، لأن وراءها مئات الملايين من المسلمين . فخسرت بذلك تركيا خسارة أدبية ضخمة ، إذ نزلت إلى صفوف الدويلات الصغيرة التى لا وزن لها فى المحيط الدولى ولا حساب .

أما بالنسبة للخلافة نفسها ، فإن عزل الخليفة وطرده أدى إلى انهيار الخلافة . ذلك لأن الخليفة عزل وطرد فى وقت كانت فيه كل الأبواب موصدة فى وجهه . فالبلاد الاسلامية التى كان يمكن أن يلجأ إليها كانت كلها محتلة ، فمصر محتلة وبلاد الشام محتلة وبلاد شمال أفريقيا محتلة وبلاد شرق أفريقيا محتلة وبلاد غرب أفريقيا محتلة . وليس من المعقول أن يقصد خليفة المسلمين إلى بلد يتحكم فيه الصليبيون . فهو إن لم يتعذر دخوله إليه فستشل حركته فيه ، لأنه إن لم يستغل نفوذه الروحى لخدمة المستعمرين ، فلن يمكن من مزاولة أى نشاط يفيد المسلمين .

فإن قيل : إن بعض البلاد الاسلامية بقيت مستغلة ، فلماذا لم يلجأ إلى إحداها ؟ .

قلنا : إن أبواب هذه البلاد المستقلة كانت أيضا مغلقة فى وجهه . . فبلاد الحجاز كان يحكمها الشريف حسين ، الذى قاد الثورة العربية ضد الخليفة ، والذى أرسل أبناءه فتطوعوا فى جيش الحلفاء الصليبيين وحاربوا خليفة المسلمين .

فهل كان يمكن أن يذهب إلى الحجاز ؟

وبلاد اليمن ، سواء سكانها من الزيود ، أتباع المذهب الزيدى الذى لم يعترف به الخليفة . وكان يحكمها فى ذلك الوقت أبناء حميد الدين ، الذين ثاروا على الخليفة وانسلخوا من سلطانه .

فهل يمكن أن يأوى إلى اليمن ؟ .

وإيران ، يسودها المذهب الجعفرى الذى لم يعترف به الخليفة ، ويحكمها ملوك لم يخضعوا لخلفاء آل عثمان ولم يستسلموا لسكان تركيا على الاطلاق .

فهل كان يستطيع الانتقال إليها ؟

والأفغان ، كانت تناوشها انجلترا من حين لحين من حدود الهند ، ثم هى دولة صغيرة فقيرة شبه منعزلة ، ولا تستطيع أن تتحمل أعباء الخلافة أو تنهض بالتزامات الخلفاء .

وكانت النتيجة أن الخليفة عاش بقية حياته فى شبه عزلة ، فلما قضى نحبه انهارت بموته الخلافة الاسلامية ، وتمزقت الراية المباركة التى اجتمع تحت ظلها مئات الملايين من المسلمين مدى ثلاثة عشر قرنا وبضع عشرات من السنين .

وهكذا ضربت الخلافة الاسلامية بيد رجل تغنى المسلمون ببطولته فى وقت من الأوقات ، وقال فيه أمير الشعراء أحمد شوقى :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

وشتان بين الاثنين ، فخالد العرب عزله الخليفة وهو فى قمة مجده وعقب أعظم انتصاراته ، فلم يخرج عليه . وخالد الترك عينه الخليفة مفتشا عاما للمنطقة الشمالية بتركيا ـ وحاكما للولايات الشرقية فنظم حركة مقاومة الاحتلال وقادها ، وبمجرد انتصاره بطش بالخليفة وطرده من البلاد .

ثانيا : ألغى الدين .

وإلغاء الدين فى الدساتير والأوراق الرسمية إن كان لا يؤدى إلى نبذ القلوب للعقيدة ، فإنه يؤدى إلى عزل الدين عن الحياة العامة ، فتُهمل الفضائل التى يدعو إليها ، وتُغفل الحدود التى تصون المجتمعات من الانحلال . كذلك فإن إلغاء الدين رسميا يفتح الباب للتطاول عليه ، فيفقد قداسته وتضعف فى النفوس معانيه ، والمعانى الدينية هى التى يمكن بها تحريك الطاقات الهائلة الكامنة فى البشر . والحاجة إلى هذه الطاقات دائمة وشديدة ، إلا أنها تكون أشد فى أوقات المحن والحروب ، وفى إبان بناء النهضات .

أما فى المحن والحروب ، فإنها تقضى على الخوف واليأس والانهيار ، فيزداد الناس قدرة على الاحتمال وقدرة على الثبات ، وفى هذا ضمان النصر والغلبة .

وأما فى أوقات بناء النهضات ، فإنها ـ أى المعانى الدينية ـ تحيى الضمائر فيحرص كل فرد على أداء واجبه ، وينشد كل عامل الإحسان والكمال ، فتنهض المجتمعات بأسرع ما يكون .

فإن قيل : إن من الممكن أن يستعاض عن المعانى الدينية بمعانى الوطنية أو العنصرية ؛ وهو ما كان يومن به مصطفى كمال .

قلنا : إن المعانى الوطنية أو العنصرية قد تحرك فعلا طاقات البشر ، لكن ترسيخها فى النفوس يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد والمال . وليس يكفى أن تكون مجرد دعوة فحسب ، بل يجب أن تكون تربية وتوجيها وتثقيفا . والمعانى الدينية فوق أن ترسيخها فى النفوس أيسر لتجاوبها مع الفطرة ، فإن تأثيرها فى تحريك الطاقات البشرية أشد وأقوى .

ثالثا : أبطل استعمال الحروف العربية فى كتابة اللغة التركية ، وفرض استعمال الحروف اللاتينية .

وهو بهذا العمل جفف ينابيع الثقافة الإسلامية فى بلاده ، لأن الأجيال التى نشأت بعد اتخاذ الحروف اللاتينية ، أصبحت تعجز عن قراءة التراث الإسلامى المكتوب كله بالحروف العربية . فحرمت الأجيال الجديدة فى تركيا من الثقافة الإسلامية التى عاش عليها آباؤ هم وأجدادهم مئات السنين . وقد أدى هذا إلى انعدام المشاركة الفكرية بين الأتراك وبقية المسلمين ، وبالتالى إلى ضمور الانعطاف الروحى بين هؤلاء وهؤلاء ، فأصبح الأتراك لا يحسون بما يحس به إخوانهم فى الدين . وانتهى بهم ذلك إلى الوقوف من القضايا الإسلامية العامة موقفا سلبيا أحيانا ومعاديا إذا اقتضت الظروف أحيانا أخرى .

وأقرب مثال يؤيد ما تذهب إليه ، موقفهم من قضية فلسطين ، فقد كانوا من أسرع الدول اعترافا بإسرائيل ، مع أن قيام دولة الصهيونية فى قلب الوطن الإسلامى فيه أكبر الخطر على الإسلام والمسلمين .

فإن قيل : لعل هذا إجراء إنفرد به حكام تركيا .

قلنا : إن تأكد هؤلاء من سلبية الشعب هناك ، شجعهم على الإقدام عليه . ولو لمسوا فى الشعب اهتماما أو غيرة ، لترددوا ولو قليلا قبل أن يقدموا على الاعتراف بدولة إسرائيل .

وبعـــــد :

فإن هذه الضربات فوق أنها مست الدين ، فإنها أضرت بتركيا ماديا وأدبيا ومعنويا . فماذا صنع مصطفى كمال ليعوض بلاده عن هذه الأضرار ؟ .

هل أوجد فيها نهضة فكرية ترد إليها ما ضاع من معنويات ؟ . . كلا .

هل أوجد فيها نهضة صناعية تعوضها عما فقدته من بلاد ؟ . . . كلا .

هل أقام فيها صناعات ثقيلة جعلتها فى مستوى دولة صغيرة كالبلجيك ؟ . . . كلا .

هل أقام فيها صناعات خفيفة جعلتها فى مستوى دولة كسويسرا ؟ . . . كلا .

هل أوجد فيها نهضة زراعية على نحو ما فعل الهولنديون ؟ . . . كلا .

هل أوجد فيها نهضة علمية رفعتها إلى مكانة السويد ؟ . . . كلا .

هل اهتم كقائد عسكرى بإنشاء مصانع حربية تغنى بلاده عن استجداء السلاح ؟ . . . كلا .

إنه لم يفعل شيئا من ذلك ، ولم يعرف عنه أنه حاول بعضه على الإطلاق . . . ودعك من تغيير الزى ولبس القبعات وفرض السفور والترويج للرقص وغير ذلك من الشكليات .

فلماذا لم يحاول الرجل وضع أسس نهضة لبلاده ؟ .

هل كان لا يحس عملا سوى التحطيم ؟ . ولا يقدر على شىء من البناء ؟ . أو كان هذا هو الثمن الذى طلبه الاستعمار لجلاء قواته عن تركيا ؟ .

هذا ما يتعلق بعصبية العروق .

وأما العصبية المذهبية ، فإنها لا يكاد يجرى لها ذكر حتى تنبعث بها فى صدرى ذكريات :

الأولى : فى سنة ١٩٥٥ ميلادية فى طريقى إلى فارس ، وأنا يومئذ وزير الأوقاف فى جمهورية مصر ، وموفد باسم مجلس الثورة للمشاركة فى الاحتفال بمضى خمسة وعشرين عاما على دستور إيران .

والثانية : فى سنة ١٩٦٥ ميلادية فى طريقى إلى الهند ، وأنا يومئذ مدير لجامعة الأزهر ، وموفد من قبل الجمهورية العربية المتحدة للمشاركة فى الاحتفال بتنصيب السيد الدكتور محمد برهان الدين سلطانا على طائفة البهرة .

وكلتا الرحلتين كانت رحلة سُنِّى عريق فى السنية إلى شيعيين مغرقين فى الشيعة ، ففى إيران الشيعة الجعفرية ، وفى الهند الشيعة الاسماعيلية ، وفى كلا البلدين وبين كلتا الطائفتين وجدت الأخوّة الإسلامية تحوطنى فى كل مكان زرته وفى كل جمع جلست فيه أو تحدثت إليه .

ولست أنسى ما حييت لقاء الإمام البروجروى فى بلدة « قم » بصحبة صديقى العالم المجاهد الأستاذ محمد تقى القمى ؛ والإمام البروجروى هو بحق إمام الأئمة فى المذهب الجعفرى ، فقد كان بحرا فى العلوم والمعارف الإسلامية ، كما كان جم التواضع لمن يراهم أهلا لذلك ، شديد الاعتزاز بنفسه والترفع على من يراهم يستحقون الإعراض عنهم . وقد أهدى إلىّ كتاب « مسائل الخلاف » ، وهو كتاب جليل القدر ، أذكره به كلما نظرت فيه ، فأذكر رجلا ملأ عينى جلالة وصدرى هيبة ، وودت من أعماق نفسى لو أكثر الله ـ تعالى ـ من أمثاله بين أئمة المسلمين .

ولست أنسى كذلك ما حييت لقاء الدكتور محمد برهان الدين صاحب ، فى جمال أدبه وحسن تقواه ، وشدة اعتزازه بالأزهر الشريف ، وبكل ما يتصل بالأزهر الشريف .

ولا أرتاب فى أن هذه المشاعر التى صحبتُها وصحبتنى فى كل رحلاتى إلى مواطن الشيعة وفى كل لقاءاتى مع رجالهم ، فى بلدى أو فى بلادهم أو فى البلاد التى زرتها والتقيت بهم فيها فى آسيا وأوربا ، لا أرتاب فى أنهم يشعرون الشعور نفسه ويجدون العاطفة ذاتها ، فالأخوة الإسلامية القائمة على وحدة النظر إلى الفضائل والرذائل ، والمهيمنة على السلوك والعبادات والمعاملات ، هى إخوة يقوم على رعايتها فى نفوس المسلمين ، إيمانهم بالله ونبيه وكتابه ، لا يرتاب فى ذلك مرتاب . والذين يحاولون إفساد الأخوة بين المسلمين مع وجود هذا الإيمان مذكرا لهم بإخوتهم ، إنما يخبطون فى تيه بلا أعلام ، ويضربون فى مجاهل بلا حدود ثم يعودون من ذلك بما لا يروى غُلة أو يشفى علة ، وإنما فسد ما فسد من العلائق بين

المسلمين بالمعانى الموصولة بالمطامع ، والتى كان يتذرع بها طلاب الحكم ورواد السلطان باسم الدين ، الذين أشعلوا نيران البغضاء لأنهم وجدوا فى هذا سبلا ممهودة إلى نيل ما يتطاولون إليه من جاه وسلطان .

فنحن حين نتحدث عن المذهبية فى هذا المقام لا نقصد ما يتبادر إلى الذهن من مذاهب الفقهاء ، فى العبادات والمعاملات وسائر ما يدخل تحت خطاب الشارع ، خطاب وضع أو خطاب تكليف[1] ، وإنما نقصد المذهبية التى تتخطى المذاهب الفقهية بكل ما تنطوى عليه من أحكام إلى مجالات أخر يستصحبها أهلها فى صلاتهم السياسية والاجتماعية بسائر المسلمين .

والمذاهب الفكرية فقهية أو غير فقهية حين تسيطر عليها الأهواء وتسخرها المطامع ، تصبح شرا لا خير فيه وباطلا لا حق معه ، وهى من التعدد والكثرة فى مجتمع المسلمين على طول تاريخهم بحيث يستعصى إحصاؤها فى هذا المقام .

غير أن ها هنا ثلاثة مذاهب لا نرى بدا من التعرض لها ، تعرضا لا يقتحم بنا فى متاهات الظنون ، وهذه المذاهب هى : مذهب أهل السنة ، ومذهب الشيعة ، ومذهب الخوارج .

فأما مذهب أهل السنة : فهو ـ فيما نرى ـ أدنى إلى ما ينبغى لسلفنا الصالح من التوقير والاحترام فيما عدا كلمة ينسبونها إلى إمام دار الهجرة : مالك بن أنس ، يصف بها أصحاب النبى بأنهم إنما كانوا يتقاتلون على الثريد الأعفر[2] .

وخصيصة هذا المذهب تظهر فى أمرين : أولهما ، ترتُّب الخلفاء الراشدين فى الفضل حسب ترتبهم فى الولاية ، فهم فى الذكر والفضل معا على هذا الترتيب : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم وعنا بهم ، إنه سميع مجيب .

وثانى الأمرين ، أن ما وقع من السلف الصالح من قتال ، إنما كان الدافع إليه الاجتهاد وبذل الوسع فى طلب الحق .

---

(١) خطاب التكليف هو خطاب الله تعالى المكلفين على جهة طلب الشىء أو النهى عنه أو الإذن فيه ، ومداره على خمسة أمور : الوجوب ، والندب ، والحرمة ، والكراهة ، والإباحة . خطاب الوضع هو خطاب الله تعالى المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير ، ومداره على خمسة أمور : الأسباب ، والشروط ، والمواقع ، والصحة أو البطلان ، والعزائم أو الرخص .

(٢) هو الثريد معه اللحم ، وإلا فهو الثريد الأبيض .

حديث لرسول الله

وخير كلام يصف به الواصفون سلفنا الصالح ـ رضى الله عنهم ـ فيما كانوا عليه من اختلاف فى الرأى هو أن الصحابة والتابعين هم خيار الأمة بشهادة قول النبى ـ ﷺ ـ : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب) .

فقد جعل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الخَيْرة وهى العدالة ، مختصة بالقرن الأول وبالقرن الذى يليه فإياك أن تعوّد نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ، أو تشوش قلبك بالريب فى شىء مما وقع بينهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت إلى ذلك سبيلا فهم أولى الناس بذلك[1] .

وقد غلظ القاضى أبو بكر بن العربى المالكى ، فقال فى كتابه (العواصم والقواصم) ما معناه : أن الحسين قتل بشرع جده . وهذا غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ، ومن أعدل من الحسين فى زمنه فى إمامته وعدالته فى قتال أهل الأهواء .

وأما مذهب الشيعة : فهو مذهب الذين يهوون هوى عثرة النبى ، ويوالونهم من أتباع أمير المؤمنين وبنيه رضى الله عنهم .

والصورة المجملة لمذهبهم ، أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وفى رأيهم أنه لا يجوز أن يغفل النبى هذا الركن ولا أن يفوضه إلى الأمة ؛ والإمام عندهم معصوم من الكبائر والصغائر ، وعلىّ ـ كرم الله وجهه ـ هو الذى عينه ـ صلوات الله عليه ـ خليفة للمسلمين ، ثم أن الشيعة يختلفون فى مساق الخلافة بعد على :

---

(١) تراجع مقدمة ابن خلدون .

فمنهم من يسوقها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد ، وهؤلاء هم الإمامية . ومنهم من يسوقها فى ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ . وشرط الإمام عندهم أن يكون عالما زاهدا جوادا شجاعا ، وهؤلاء هم الزيدية .

والإمامية ، يسوقون الإمامة من الإمام علىّ بالوصية إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى على زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه موسى الكاظم ، ثم إلى ابنه على الرضا ـ الذى عهد إليه المأمون بالخلافة ولكنه مات قبل المأمون ـ ثم إلى ابنه محمد التقى ، ثم إلى ابنه على الهادى ، ثم إلى ابنه محمد الحسن العسكرى ، ثم إلى الإمام الغائب وهو المهدى المنتظر .

ومن الإمامية من يسوق الخلافة بعد الإمام جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل ، وهم الاسماعيلية وهم يقولون عن اسماعيل إنه إمام بالنص من أبيه ، ثم يقولون إن الخلافة انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ، وهو أول الأئمة المستورين ، وذلك لأن الإمام عندهم قد لا تكون له شوكة فيستتر ويكون دعاته هم الظاهرين لإقامة الحجة على الخلق ، فإذا كانت للإمام شوكة ظهر وأظهر دعوته . وقد ساقوا الإمامة من المكتوم إلى ابنه جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه محمد الحبيب ، وهو آخر المستورين ، ثم جاء بعده ابنه عبد الله المهدى الذى ظهرت دعوته فى المغرب العربى وتتابع الناس عليه فملك القيروان والمغرب ، وملك بنوه من بعده مصر ، ويسمون الاسماعيلية نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ، كما يسمون الباطنية نسبة إلى القول بالإمام الباطن أى المستور .

وبعض المؤرخين يطيب له أن يشك فى صحة نسب الفاطميين إلى البيت النبوى الشريف ، وقد أثبت ابن خلدون فى تاريخه صحة نسبهم ، وفصّل القول فى ذلك تفصيلا .

ومما نراه مؤيدا لما ذهب إليه ابن خلدون ، ما صنعه الخلفاء العباسيون من كتابتهم محضرا ينفى النسب الهاشمى عن الدولة الفاطمية . فليس هذا المحضر فيما نرى دليلا على صدق دعوى العباسيين بل هو على العكس من ذلك دليل على صحة نسب الفاطميين ، مهما يكن قدر الذين وقعوا ذلك المحضر ، لأن هناك أسبابا كثيرة تحمل أشد الناس تورعا على اتقاء غضب الحاكم وتجنب مواقع سخطه . وقد

رأينا سيدا من سادات المتورعة وإماما من أئمة التابعين يتكلف رأيا غير رأيه فى حق أمير المؤمنين على ، مع رفيع منزلته وجليل سابقته وكرائم مواقفه فى نصرة رسول الله وتثبيت دعائم الإسلام ، لم يحمله على ذلك إلا إتقاء سخط بنى أمية وتجنب مواجهته الحجاج بالخصومة ، وهذا أمر يعرفه أهل الحديث عن الحسن البصرى ، فكيف بهذا المحضر الذى أشار به متملقون على خليفة عباسى مستضعف .

وربما زاد هذا المحضر ضعفا على ضعفه ، ما يبتدر طلاب الحقيقة فيما يرويه ثقات المؤرخين وإثبات العلماء حول موقف للشريف الرضى الشاعر رحمه الله . وحاصل ذلك أن الخليفة القادر أراد إلى الشريف الرضى الشاعر أن يوقع مع الموقعين على ذلك المحضر ، فأرسله إليه مع أبيه وأخيه والمرتضى . ولكن الرضى - رضى الله عنه - امتنع عن تسطير خطه عليه . ولا ريب فى أن شيوع امتناع الشاعر الرضى من تسطير خطه حمل عامة الناس وخاصتهم على ترديد شعر يقول فيه الرضى :

أحمل الضيم فى بلاد الأعادى ... وبمصـــر الخليفـة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيدا النا ... س جميعا : محمد وعلى

شر ما فى الخوارج

وأما الخوارج : فإن أصح الناس نظرا وأقواهم بيانا ، لا يبلغ من صفتهم ما بلغ الحديث المأثور :

(حدثاء الأسنان ، تحقرون صلاتكم بصلاتهم وصيامكم بصيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) .

وقد كانوا من التنطع فى القول والمعنى والفعل والتفكير بالمنزلة التى يرثى لها الشامت .

خرجوا على الإمام على بعد التحكيم ، واتخذوا لأنفسهم شعارا تستأثر له عواطف المسلمين ، فذلك قولهم : لا حكم إلا لله .

وفى هذا الشعار يقول سيدنا على : كلمة حق يراد بها باطل . ويكشف ـ رضى الله عنه ـ عن مرادهم فيقول : نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وإنه لابد للناس من أمير أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، يجمع به الفىء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح بَرٌ ويستراح من فاجر .

وشر ما فى هؤلاء الخوارج من شر ؛ إنهم كانوا يتأولون القرآن تأولا يفسدون به نظام الأمة ، ويشوهون به وجه الإسلام .

ومن أعجب زيفهم عن الحق ، أنهم لا يتعرضون للمشركين بضر ، لأن الكفر فى مذهبهم عاصم لدماء الكفار ، تأويلا لقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾

(سورة التوبة ٦)

وفى الوقت نفسه يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، وقد أسرفوا فى هذا إسرافا جعل المسلم إذا وقع فى أيديهم يزعم أنه مشرك لينجو من بطشهم .

ومن أعجب زيفهم عن الحق أيضا ، أنهم كانوا يستحلون قتل أطفال المسلمين ، يتأولون فى ذلك قول الله تعالى حكاية عن نوح :

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة نوح)

فكانوا يستندون فى قتل أبناء المسلمين إلى هذه الآية ، يتأولونها على أن هؤلاء الأطفال صائرون إلى الكفر والفجور إذا بلغوا مبلغ الرجال ، وبهذا يسوغ قتلهم .

وليس يعرف الناس منطقا أدخل فى باب الخبل ، وأنأى عن مقاصد الشريعة ، وأشد حربا لكتاب الله ، من هذا المنطق الخبيث .

إن العصبية الجامحة ـ سواء فى ذلك عصبية العروق أو عصبية المذاهب ـ فوق أنها هاضت أمة القرآن ، فإنما هى التى أغرت بالخلافة أعداء الإسلام وأمكنتهم منها ، فأثقلوا عليها بالدسائس وبالفتن وبالحروب حتى سقطت صريعة فى سنة ١٩٢٤ ميلادية ، ولفظت آخر أنفاسها بين يدى عدو متربص وولى مستغل . وإذا كان العدو المتربص قد ظفر من سقوط الخلافة بحلاوة الشماتة ، فإن الوالى المستغل قد استعقب من ذلك مرارة الندامة .

وإجمال ما يمكن أن يقال فى هذا المقام ، هو أن سقوط الخلافة الإسلامية ، أنزل بأمة القرآن من البلاء ما نلخصه فيما يلى :

أولا : إرتدت الأمة الإسلامية بالقضاء على الخلافة إلى الجاهلية ، التى نص عليها الحديث النبوى الشريف : (من مات وليس فى عنقه بيعة لإمام ، مات ميتة جاهلية) .

ثانيا : امتهدت السبل إلى أن يصبح المسلمون فى كل مكان غرض سهام ونهبى أطماع ، حتى انتهوا إلى الصورة التى ذكرها الحديث الشريف : (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، ولينزعن من صدور عدوكم المهابة منكم) .

فقد اجتمع على هذه القصعة ـ أى على شعوب الأمة الإسلامية ـ الدول الاستعمارية يدعوهم إليها نهم لا يشبع ، ويغريهم بها ضغن لا ينام .

ثالثا : تضعضعت الوحدة الفكرية التى يفرضها سلطان الخلافة على المسلمين أخذا بالقاعدة الفقهية « حكم الحاكم يرفع الخلاف » ، فلا يجوز بعد حكمه أن يتشبث المختلفون بآرائهم . والوحدة الفكرية لا يعدلها شىء فى بناء الأمة . يؤيد ذلك ما ذكره الأمير شكيب أرسلان من أهل الرأى فى أوربا أجمعوا على أن طرد العرب من أسبانيا كان نكبة عليها ، وأن الأسبان خسروا بذلك خسارة فادحة فى كل مجالات الحضارة . ومع ذلك وُجد من المفكرين من رد على هذا الإجماع بقوله : نعم هذا صحيح ، ولكن أسبانيا كسبت بطرد العرب وحدة الفكر ، ووحدة الفكر فى الأمة ، فيها العوض من كل فائت .

والحمد لله على ما أنعم ، والعياذ به ـ سبحانه ـ من التكلف لما لا نحسن ، والإعجاب بما نحسن ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

* * *

مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ **كتب للأطفال والنشء :**

* **فى مجال العلوم :**

ـ الموسوعة العلمية الأولى للأطفال (ترجمة : د . محمد أمين سليمان)

ـ طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر (ترجمة : د . أيمن الدسوقى)

ـ ميكى يسأل ويجيب (ترجمة : د . أحمد فؤاد باشا)

□ **سلسلة علماء العرب :**

* ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) .
* ابن الهيثم (عالم البصريات)
* البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)
* جابر بن حيان (أبو الكيمياء)
* ابن البيطار (عالم النبات)

(سليمان فياض)

□ **فى مجال التربية البدنية والرياضية :**

ـ **موسوعة جوفى الرياضية :**

* السباحة والغطس
* الألعاب الأوليمبية
* العاب الأطفال

(ترجمة : نجيب المستكاوى)

□ **فى مجال ترقية المهارات والخيال :**

* الوان الوان (حسين أبوزيد)
* تعال نصنع (حسين أبوزيد)
* رحلة صيد (شاكر المعداوى)
* حكايات أعجبتنى (يعقوب الشاروني)
* حكايات عربية واسلامية (علية توفيق ـ رسوم : كمال درويش)

□ **فى مجال التربية الفكرية :**

* حوار بين طفل ساذج وقط مثقف (أحمد بهجت)

□ كتب فى الابداع الأدبى :

* عرابى زعيم الفلاحين (عبد الرحمن الشرقاوى)
* كانت صعبة ومغرورة (احسان عبد القدوس)

□ كتب فى الابداع الفكرى :

* سرقة ملك مصر (محسن محمد)
* معجم الأمثال العامية مع كشاف موضوعى (أحمد تيمور باشا)
* انطباعات مستفزة د . يوسف ادريس)
* مذكرات صائم (أحمد بهجت)

□ كتب دينية :

* قراءة فى وثائق البهائية (د . بنت الشاطىء)
* القرآن مأدبة الله للعالمين (الشيخ أحمد حسن الباقورى)
* معانى القرآن بين الراوية والدراية (الشيخ أحمد حسن الباقورى)
* الله فى العقيدة الاسلامية (أحمد بهجت)

●●

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٦ / ٤٥٤٨

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر